السلسلة البلاغية
للدكتور سعيد جمعه
(٤)

وشي الربيع
في فنون البديع

الأستاذ الدكتور
سعيد جمعة
أستاذ البلاغة وعميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية
بمدينة السادات

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع
دار الجديد للنشر والتوزيع

٤١٤

ج . س جمعه ، سعيد أحمد .

السلسلة البلاغة للدكتور سعيد جمعه(٤) / سعيد أحمد جمعه.-ط١.- دسوق: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، دار الجديد للنشر والتوزيع.

٣٧٢ ص ؛ ١٧.٥ × ٢٤.٥سم .

تدمك : 2 - 724 – 308 – 977 – 978

١. البلاغة العربية .

رقم الإيداع : ٢٤٧٨ .

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة – بجوار البنك الأهلي المركز

هاتف- فاكس : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ محمول : ٠٠٢٠١٢٧٧٥٥٤٧٢٥-٠٠٢٠١٢٨٥٩٣٢٥٥٣

E-mail: elelm_aleman2016@hotmail.com & elelm_aleman@yahoo.com

الناشر : دار الجديد للنشر والتوزيع

تجزءة عزوز عبد الله رقم ٧١ زرالدة الجزائر

هاتف : ٢٤٣٠٨٢٧٨ (٠) ٠٠٢٠١٣

محمول ٦٦١٦٢٣٧٩٧ (٠) ٠٠٢٠١٣ & ٧٧٢١٣٦٣٧٧ (٠) ٠٠٢٠١٣

E-mail: dar_eldjadid@hotmail.com

فهرس العناوين

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبة ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين،**وبعد** :
فلم يزل كثير من أهل الاختصاص يبسِّطون العلوم ، ويتلمسون طرائق التسهيل حتى خرجوا بقاطرة العلم عن مسارها ، بدعوى التخفيف تارة وبطرح ما لا فائدة فيه أخرى .

ومن أكثر العلوم التي أصابها هذا الموج الجارف : علم البديع ، حيث اقتصروا فيه على العنوان ويتلوه المثال ، وكأن المطلوب أن يعرفِ القارئ أن هناك محسنات معنوية ، أو أن هناك لونًا من البديع ، اسمه الطباق مثلا والمثال عليه قولهم : " **الليل والنهار** " وانتهى الأمر ، وكان الله يحب المحسنين ، وننتقل إلى لون آخر، ذلك لأنهم رأوا فيه الزينة ، وتحسين اللفظ وكفى ، وهذا أمر زائد على المطابقة ، بل ذكر بعض أهل العلم أنهم سموه : علم البنات !!!

ورمى بعض العلماء الكرة في ملعب السكاكي ، وزعموا أنه أخرجه من دائرة البلاغة ، وزاد أستاذنا المطعني **فقال:**

(والحق أن مدرسة السكاكي – وإن كانت ذات يد طولى على البلاغة – فإنها لم تضر بالبديع وحده ، وإن اشتهر ذلك وذاع ، ولكنها أضرت بالبيان كذلك ، وإن تجوهل هذا وتنوسي)[1]،وهذه الاتهامات لا أراها تخدم طالب العلم ، بل تجرأه على تراثه ، وتغمض عينه عن إبداعاته !!!

وحين تسأل: أين البديع في المثال ؟ ، وأين البراعة والبلاغة ؟

وما وجه الحسن ؟ ولم عبر بكذا دون كذا ؟ **كانت الإجابة**: أن هذا كثير على القارئ ، وسيضخِّم الكتاب ، وألوان البديع كثيرة ، والتيسير أمر مطلوب. والنتيجة أن يتخرج جيل من طلبة العلم كل ما يعرفه عن البديع هو اسمه !!!!!

لأجل ذلك أحاول في هذا الكتاب أن أتناول ألوان البديع بمنهج يجمع بين التيسير الذي يستخدم لغة قريبة ، لكن في الوقت نفسه لا أغفل التأصيل العلمي ، وتحليل الشواهد ، والإكثار منها، فهي معدن البلاغة وموطن البراعة ، **والمعلوم أن صنعة الكلام تكمل بأمرين** :

- **الأول** : أن يتفق الكلام مع المقام الذي يقال فيه .
- **والآخر** : استخدام الفن المناسب للحال الذي يقتضيه .

١- البديع من المعاني والألفاظ للدكتور عبد العظيم المطعني ص٤ – وهبة ط الأولى --وذكر الدكتور المطعني أن تعريف البلاغة مقصور على علم المعاني ، دون نظيريه البيان والبديع ، فتعريف المعاني وتعريف البلاغة تعريف واحد ، واكلاهما قائم على المطابقة ، ويلزم من ذلك خروج البيان والبديع من دائرة البلاغة ، لأن المطابقة التي هي البلاغة حاصلة بأبواب علم المعاني .

وعليه فلا بد من اعتبار الفنون البلاغية وسائل وأدوات فنية تؤدى بها الأغراض ، ويجب استخدامها بالقدر المناسب ،والوقت المناسب .

ولا يخفى عليّ هنا أنني أهيئ الشباب من خلال هذا العلم ؛ لفهم اللغة وجمالها ، وفهم كتاب الله تعالى ليأخذوا منه دستور حياتهم ،وعوامل إصلاح دنياهم وأخراهم ،كما لا يخفى عليّ أنني أنظر إلى جميع العلوم على أنها خدم للحياة ، وعامل رئيس من عوامل البناء فيها ، وحين يتخلى العلم عن هذا الدور فالأولى به أن يوضع على الأرفف .

ومما يُحزن أن كثيرًا من أهل البلاغة عزلوا هذا العلم عن الحياة وطبقوا عليه المقولة الكاذبة ، **فقالوا:**

لا علاقة للبلاغة بالحياة ، فالبلاغة في نظرهم أن تدبج مقالا جميلا أو تصنع خطبة عصماء ، أو تنشد قصيدة مجيدة ، وكفى ! أما أن تشارك البلاغة في نهضة الأمة وفي تربية الأجيال، وأن يكون لها دور فاعل في فهم وإصلاح، وإدارة الحياة فلا . !! وهذا – والله – عجيب ، فما قيمة علم أي علم – إن لم يكن له دور في حياة الناس ؟ ! بل كيف نسميه علما وهو حبيس الكتب ، ورهن العقول ؟ !

إن الذي لا شك فيه أن للبلاغة وللبديع خاصة دورًا كبيراً في نهضة الأمة، وعلى أهل البلاغة أن يميطوا اللثام عن هذا الدور، وأن يجددوا في شرحهم وتحليلاتهم هذه العلاقة ، حتى لا يكون العلم فتنة ، وبضاعة مزجاة . **أد. سعيد جمعة**

الباب الأول
مدخل إلى علم البديع
الفصل الأول
إطلالة تاريخية على نشأة علم البديع

توطئة :

في بداية كل علم ينبغي للقارئ أن يقف على تاريخه ، ولو لمحات سريعة ، لأن تاريخ كل علم هو نسبه الذي يعرف به معدنه ، وماضيه الذي يفتح الباب أمام قارئه ليعرف من أبوه ومن جده ؟ وما علاقته بغيره ؟ وكيف نما وتطور ؟ ولم قوي هنا وضعف هناك ؟ فلكل علم تاريخه الذي ينبغي الإلمام به ، ورصد حلقاته ، وكيفية تطوره حتى وصل إلى حالته التي هو عليها الآن ، والوقوف على هذا التطور ضرب من العلم لا ينبغي التهاون فيه ، بل إن كل فرع من فروع العلم ، وكل لون من ألوان علم البديع له تطوره ، وحلقاته التي ينبغي الوقوف عليها ، وهذا باب لو تتبعه الباحثون لاستخرجوا من ورائه جواهر لا يستغنى عنها، إن تاريخ كل علم بوابة لا بد منها ، ولما كان هذا الكتاب معنيا بالتيسير حاولت جاهدا أن أختصر الكلام في هذا الميدان ليقف القارئ على إشارات سريعة وعلامات عاجلة ليعرف من هم أرباب وشيوخ هذا العلم ؟ **والبداية مع أبو عذرته** :

أولا:ابن المعتز وكتابه (البديع) ت٢٩٦هـ

ينسب علم البديع دون خلاف إلى الخليفة العباسي عبد الله بن المعتز المتوفى ٢٩٦هـ ولقد كان هذا الخليفة شاعرا مطبوعا ، وله ديوان شعر مطبوع ، وكتابه الذي كتبه في علم البديع هو أول كتاب في هذا العلم وسماه «**كتاب البديع**» وقال إن سبب تأليفه لهذا الكتاب إثبات أن في القرآن الكريم والحديث الشريف ، وكلام الصحابة من فنون البديع الكثير ، وأن الشعراء لم يسبقوا إلى هذا ، فالرجل له وجهة دعوية ، ومقصد ديني ، وهو رفع كلام الله تعالى ، وكلام رسوله فوق كلام البشر ، وكذلك رفع كلام الصحابة فوق كلام الشعراء – على اعتبار أن البديع من محاسن الكلام ، وأن الكلام إذا احتوى عليه ارتفع قدره وعلت منزلته ، ولذلك حين شاع في الناس أن الشعراء هم أول من جاء بالبديع قام الرجل ليثبت أن كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ سبق كل كلام ، وفاق كل بيان .

ولذلك يقول في كتابه :

« قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله ﷺ وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع ليعلم أن بشارا ومسلما وأبا نواس ،ومن تقيّلهم ، وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن، ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه». هذا كلام الرجل ، وهو صريح في أن مقصده الإشارة إلى سبق كلام

الله تعالى وكلام رسوله إلى فنون البديع ، وأن شعر الشعراء وما فيه من فنون البديع مستمد من بديع القرآن والسنة ، كما أن من مقاصده بيان أن للشعراء محاسنهم في هذا الفن ، وكذا هناك من المساوئ ما يعادل هذا يقول : «ثم إن حبيب بن أوس الطائي «أبا تمام» من بعدهم شُغف به حتى غلب عليه ، وتفرع فيه ، وأكثر منه فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض وتلك عقبي الإفراط وثمرة الإسراف.

وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين في القصيدة وربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادرا، ويزداد حظوة بين الكلام المرسل».

فالرجل يلخص سبب تأليفه لهذا الكتاب فيقول :

«**وإنما غرضنا في هذا الكتاب تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب البديع**» هكذا دون مواربة ، بل أكثر من هذا يشير - ابن المعتز الذي تولى الخلافة يوما واحدا ومات مقتولا ، وياليته ما خاض هذا المعترك ، وهو الكريم الذي ينحدر من نسل هارون الرشيد يشير إلى أنه أول من نظم وجمع فنون هذا العلم فيقول: «وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد، وألفته سنة أربع وسبعين ومائتين» **وابن المعتز يقصد بالبديع خمسة ألوان بلاغية لا غير :**

وهي : (الاستعارة – الجناس – الطباق – رد الأعجاز على الصدور – المذهب الكلامي)

ويقرر بأن هذه الفنون ليست مانعة من الإضافة إليها ، فهناك من محاسن الكلام ما لا يجمعه الحصر ، ولذلك من أراد أن يزيد عليها فليفعل أما هذه الخمسة ، فهي من وجهة نظره أصول علم البديع . **ولذلك ذكر أن فروعا تتبع هذه الأصول ومنها :**

١ – الالتفات.

٢ – اعتراض كلام في كلام لم يتمم الشاعر معناه ثم يعود إليه فيتممه في بيت واحد.

٣ – الرجوع.

٤ – حسن الخروج من معنى إلى معنى.

٥ – تأكيد المدح بما يشبه الذم.

٦ – تجاهل العارف.

٧ – الهزل يراد به الجد.

٨ – حسن التضمين.

٩ – التعريض والكناية.

١٠ – الإفراط في الصفة ، أو ما يعرف الآن بـ " المبالغة " .

١١ – حسن التشبيه.

١٢ - إعنات الشاعر ، وتكلفه أو "لزوم ما لا يلزم "

١٣ - حسن الابتداءات.

وأيضا لم يغلق ابن المعتز الباب ، بل قال : إن الألوان هي من محاسن الكلام التي لا يحاط بها ، ولم يقف العلماء على أحد ألف في البديع قبل ابن المعتز ، وهو أيضا لم يذكر أحدا قبله ألف في ألوان البديع ، باستثناء كلام الأصمعي الذي تحدث عن الجناس في بحث لم يقف عليه أحد ، وكذلك الجاحظ الذي ذكر (المذهب الكلامي) وهو: إيراد حجة على المطلوب على طريقة أهل الكلام، وهي أن تكون المقدمات مستلزمة للمطلوب .

وعليك إذن أن تتذكر هذه البداية ، وصاحبها ، واسم الكتاب الذي وضعه ، وغايته من تأليف هذا الكتاب ، وأعيدها عليك مرة ثانية حيث يقول : (وإنما غرضنا في هذا الكتاب تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب البديع، وفي دون ما ذكرنا مبلغ الغاية التي قصدناها).وهذا الجهد المشكور كان البداية التي وضعت أولى لبنات علم البديع على طريق العلوم اللغوية ، أو البلاغية ، وتبعتها لبنات أخرى كثيرة .

ثانيا:قدامة بن جعفر وكتابه " نقد الشعر " ت٣٣٧ﻫ

كان قدامة بن جعفر معاصرا لعبد الله بن المعتز ، وكان نصرانيا ثم أسلم ، وتوفي سنة ٣٣٧ هـ ، وكان يغلب على منهجه المنطق والفلسفة

وكان كتابه " **نقد الشعر** " شارحا للعناصر التي ذكرها ابن المعتز ثم أضاف إليها تسعة محسنات جديدة ، لتصبح أربعة عشر نوعا. ولا يخدعك عنوان الكتاب ، فالكتاب ليس في النقد ، بمفهومه الحديث ولكنه كتاب يعالج فنون الشعر ، **وقسّمه الكتاب إلى ثلاثة أقسام:**

الفصل الأول : عرف الشعر ، وقال : إنه قول موزون مقفى دال على معنى ، وفي الفصل الثاني : تناول فيه نعوت الجودة في الشعر ، وذكر بعض المباحث البلاغية ، أما الفصل الثالث فتحدث فيه عن عيوب الشعر ورداءته ، وهذا أكثر التصاقاً بالنقد ، ثم ذكر قدامة فنون البديع ، ورتبها كما يأتي :

- **الترصيع**
- **الغلو**
- **صحة التقسيم**
- **صحة المقابلات**
- **صحة التفسير**
- **التتميم**
- **المبالغة**
- **الإشارة**
- **الإرداف**

- **التمثيل**
- **التكافؤ**
- **التوشيح**
- **الإيغال**
- **الالتفات ..**

فهو يتفق مع عبد الله بن المعتز في دلالة بعض المصطلحات وكذا تسميتها مثل:المبالغة والالتفات ، وقد يتفق في الدلالة ولا يتفق في المصطلح مثل : التتميم والتكافؤ والتوشيح ، لأن عبد الله بن المعتز يسمي التتميم : الاعتراض ، ويسمي التكافؤ الطباق ، ويسمي التوشيح رد أعجاز الكلام على ما تقدمها .

والمهم أن تعلم أن هناك ألوانا من البديع جديدة أضافها قدامة وهي :

الترصيع، والغلو، وصحة التقسيم، وصحة المقابلات، وصحة التفسير، والإشارة، والإرداف، والتمثيل، والإيغال.

ثالثا: أبو هلال العسكري وكتابه (الصناعتين) ت ٣٩٥هـ:

وكان أبو هلال معاصرا لقدامه لكنه عمر بعده أكثر من نصف قرن ويعد أبو هلال العسكري علامة بارزة ، بكتاب «الصناعتين- الكتابة والشعر» لأنه أتم ما بدأه قدامة في صناعة الشعر ونقده، بالإضافة إلى صناعة الكتابة أو النثر بصفة عامة، لأن الأدب لا يقتصر على الشعر

وكان رقيق الحال وذاك حال جل العلماء ، **ومن شعره الذي يعبر عن حاله وفقره قوله :**

إذا كان مالي من يلقط العجم — وحالي فيكم حال من حاك أو حجم

فأين انتفاعي بالأصالة والحجى — وما ربحت كفي من العلم والحكم؟

ومن ذا الذي في الناس يبصر حالتي — ولا يلعن القرطاس والحبر والقلم؟

ويقول من قصيدة أخرى:

جلوسي في سوق أبيع وأشتري — دليل على أن الأنام قرود

ولا خير في قوم يذل كرامهم — ويعظم فيهم نذلهم ويسود

ويهجوهم عني رثاثة كسوتي — هجاء قبيحا ما عليه مزيد

وأبو هلال جعل كتابه عشرة أبواب ، وجعل الباب التاسع منها « لشرح البديع والإبانة عن وجوهه وحصر أبوابه وفنونه».

يقول عبد العزيز عتيق:(وبالنظر في أنواع البديع عند أبي هلال ومقارنتها بما جاء به كل من ابن المعتز وقدامة من أنواع البديع **يتبين ما يأتي** :

١ - جارى أبو هلال ابن المعتز في اعتبار الاستعارة، والكناية، من أنواع البديع، مع أنهما في الواقع من فنون علم البيان.

٢ - كذلك جارى ابن المعتز وقدامة معا في اعتبار «**الاعتراض**» نوعا بديعيا، كما اعتبر هو نفسه «التذييل» نوعا بديعيا آخر، مع أن

«**الاعتراض**» و «**التذييل**» أسلوبان من أساليب الإطناب الذي هو أحد أبواب علم المعاني.

٣ - جارى ابن المعتز وقدامة في أربعة أنواع بديعية اتفقا فيها **وهي**: الطباق، المبالغة، رد الاعجاز على الصدور، الالتفات.

٤ - **أخذ مما انفرد به ابن المعتز ستة أنواع هي**: الجناس، الرجوع، تجاهل العارف، المذهب الكلامي، حسن الابتداءات، تأكيد المدح بما يشبه الذم، والذي سماه هو «**الاستثناء**».

٥ - كذلك أخذ مما انفرد به قدامة تسعة أنواع هي: صحة المقابلة، صحة التقسيم، صحة التفسير، الإشارة، الإرداف، التمثيل، الغلو الترصيع، الإيغال.

٦ - اهتدى أبو هلال نفسه إلى ستة أنواع بديعية، وقد حدد هذه الأنواع التي اكتشفها وعرفنا بها **في كتابه بقوله**: «وزدت على ما أورده المتقدمون ستة أنواع: التشطير، والمحاورة، والتطريز، والمضاعف والاستشهاد، والتلطف».

٧ - وأخيرا أورد أبو هلال ثمانية أنواع بديعية لم يرد لها ذكر عنده أو عند قدامة أو ابن المعتز، وهذه هي: التوشيح، والعكس والتبديل والتكميل، والاستطراد، وجمع المؤتلف والمختلف، والسلب والإيجاب، والتعطف، والاشتقاق....

وهذا يعني أن ما وصل إلينا مما اكتشف منها إلى عصر أبي هلال العسكري قد بلغ واحدا وأربعين نوعا، **منها**: ثمانية عشر نوعا من اختراع ابن المعتز، وتسعة أنواع من اختراع قدامة، وستة أنواع زادها أبو هلال العسكري، وأخيرا ثمانية أنواع ذكرها أبو هلال، ولعله قد عثر عليها لدى بعض من سبقوه من علماء البيان .

رابعا:ابن رشيق القيرواني وكتابه (العمدة) ت٤٦٤هـ

وابن رشيق من أدباء المغرب ،ولد سنة ٣٩٠ للهجرة، وأبوه مملوك رومي، وتوفي سنة ٤٦٤هـ ، ومن أهم كتبه «العمدة في محاسن الشعر وآدابه " وسبب تأليفه كما يقول هو جمع أحسن ما قاله السابقون ليكون العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، وهذا الكتاب يتألف من جزءين عن صناعة الشعر ووسائله البيانية والبديعية، فهو مادة ضخمة من البلاغة والنقد معا.وأنواع البديع التي أوردها ابن رشيق في كتابه «العمدة» تبلغ تسعة وعشرين؛ منها عشرون نوعا سبقه إليها ابن المعتز وقدامة وأبو هلال العسكري، وهي: الاستعارة، الإشارة، التجنيس، التصدير أو رد الأعجاز إلى صدورها، المطابقة، المقابلة، التقسيم، الترصيع، التسهيم، التفسير الاستطراد، الالتفات، الاستثناء وهو توكيد المدح بما يشبه الذم، التتميم المبالغة، الغلو، الإيغال، المذهب الكلامي، التضمين، التمثيل.

أما الأنواع التسعة الباقية والتي لم يرد لها ذكر عند رجال البديع السابقين فهي: التورية، والترديد، والتفريع، والاستدعاء، والتكرار ونفي الشيء بإيجابه، والاطراد، والاشتراك، والتغاير. وقد سار في هذا الكتاب على منهاج أشبه بمنهاج أبي هلال العسكري فهو أولا يعرف الفن البديعي ثم يشفعه بالأمثلة والشواهد من منظوم الكلام ومنثوره، وقلما عرض للشاهد بالتوضيح اعتمادا على فطنة القارئ.

وفي المصطلحات نلاحظ أنه إذا آثر مصطلحا بعينه لفن بديعي، فإنه يذكر اسمه الآخر عند هذا أو ذاك ممن سبقوه إلى البديع، ففي كلامه عن «الاستثناء» **يقول**: وابن المعتز يسميه توكيد المدح بما يشبه الذم، وفي كلامه عن «المطابقة» **يقول**: وسمى قدامة هذا النوع- الذي هو المطابقة عندنا- **التكافؤ** ، ولم يسمه التكافؤ أحد غيره وغير النحاس من جميع من علمته وفي «الالتفات» يقول: وهو الاعتراض عند قوم، وسماه آخرون الاستدراك، حكاه قدامة .

خامسا : **عبد القاهر الجرجاني وكتابيه الأسرار والدلائل ت٤٧١هـ**:

ولد عبد القاهر وعاش بجرجان ولم يفارقها حتى توفي سنة ٤٧١ من الهجرة، **وأشهر مؤلفاته** : " دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة " وهو الإمام المؤسس للبلاغة العربية ، ومنه استنبط العلماء كل ما تراه من فنون البلاغة **ومن بينها** : ألوان البديع مثل : الجناس، والسجع، وحسن التعليل والطباق والمبالغة ، وكان همه ووكده بيان ما في هذه المحسنات من مزية وجمال ، وبراعة وفصاحة وفوائد ترجع كلها إلى النظم يقول مثلا في الجناس في **قول أبي الفتح البستي**:

ناظراه فيما جنى ناظراه أو دعاني أمت بما أو دعاني

قد أعاد الشاعر عليك اللفظ، كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ويوهمك كأنه لم يزدك، وقد أحسن الزيادة ووفّاها ، فالجناس أو السجع عنده لا يكتسب صفة القبول أو الحسن حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه ، لكن المتفق عليه أن عبد القاهر الذي وضع نظرية النظم لم يتوسع في البديع ، وإنما كان خدما لنظرية النظم.

سادسا:**الزمخشري وكتابه " الكشاف " ت ٥٣٨هـ** :

هو جار الله محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ من الهجرة له مؤلفات قيّمة ، وأهم كتاب اشتهر به هو تفسير «الكشاف» الذي قدم فيه صورة رائعة لتفسير القرآن، وأشاد به حتى أهل السنّة على الرغم من نزعة

صاحبه الاعتزالية ، ويعد تفسير «الكشاف» تطبيقا لنظرية النظم التي وضعها عبد القاهر ، حتى قال أبو موسى (لم يفهم نظرية النظم مثل الزمخشري) ولذلك كانت عنايته بالبديع كعناية عبد القاهر ، فلم يعده علما مستقلا في البلاغة ، وإنما تابع لها ورديف ، فأشار إشارة خفيفة إلى ما ورد في بعض آي الذكر الحكيم من فنون البديع مثل: الطباق، والمشاكلة، واللف والنشر، والالتفات، وتأكيد المدح بما يشبه الذم، ومراعاة النظير والتناسب والتقسيم، والاستطراد، والتجريد، وكان قصده منها إبراز أثرها في الإعجاز .

سابعا : **أسامة بن منقذ وكتابه " البديع في نقد الشعر " ت ٥٨٤هـ** :

أبو المظفر أسامة بن مرشد بن منقذ ، وقد جمع في كتابه (كما يقول في مقدمته) أهم مواضيع كتب البديع التي سبقته، وسمى منها ستة كتب هي: (كتاب البديع) لابن المعتز، و (الحالي والعاطل) للحاتمي، و (كتاب الصناعتين) للعسكري، و (اللمع) للعجمي، و (نقد الشعر) لقدامة و (العمدة) لابن رشيق. وأوصل أبواب البديع كما يقول إلى خمسة وتسعين باباً ، **ثم جاء بعد هؤلاء في القرون التالية** :

فخر الدين الرازي المتوفي ٦٠٦ هجرية ، وكتابه المشهور (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) أراد به أن ينظم ويرتب ويحصر كل ما كتبه عبد القاهر ، ولم يأت بجديد يحسب له في فنون البديع .

ثامنا : السكاكي وكتابه (مفتاح العلوم) ت٦٢٦هـ

هو سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن محمد السكاكي المتوفى على الراجح سنة ٦٢٦ من الهجرة. له مصنفات كثيرة أهمها كتاب «مفتاح العلوم» **الذي قسمه إلى ثلاثة أقسام أساسية:** قصر القسم الأول منها على علم الصرف وما يتصل به من الاشتقاق بأنواعه، وجعل القسم الثاني منه لعلم النحو أما القسم الثالث فخص به علم المعاني وعلم البيان وملحقاتهما من البلاغة والفصاحة، والمحسنات البديعية اللفظية والمعنوية. وعلى هذا الكتاب دارت رحى المدرسة التي بقيت إلى يومنا هذا(مدرسة السكاكي).

وألحق البديع في القسم الثالث من كتابه المفتاح بعلمي المعاني والبيان فلم يكن عنده علما مستقلا ، لكن السكاكي كان أول من قسم المحسنات إلى معنوية ولفظية، واقتصر في المحسنات المعنوية على عشرين نوعا، **هي:**

المطابقة، والمقابلة، ومراعاة النظير، والمزاوجة، والمشاكلة، والإيهام واللف والنشر، والجمع، والتفريق، والتقسيم، والجمع مع التفريق، والجمع مع التقسيم، والجمع مع التفريق والتقسيم، وتأكيد المدح بما يشبه الذم والتوجيه، والاعتراض، والالتفات، والاستتباع ، وسوق المعلوم مساق غيره لنكتة كالتوبيخ، وتقليل اللفظ ، ولا تقليله أو(الإيجاز والإطناب).

تاسعا: **ضياء الدين بن الأثير**: **٥٨٨ - ٦٣٧ هـ**.

هو أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم محمد الشيباني المعروف با بن الأثير ، وأهم مؤلفاته كتاب «**المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**» وهوكتاب ذائع الصيت ، لم يفرد فيه ابن الأثير قسما خاصا بالبديع ، وإنما تناوله في مدارج حديثه عن المعاني والبيان ، فله مقالة في الصناعة اللفظية وفيها تحدث عن بعض الألوان البديعية اللفظية ، وفي مقالته عن الصناعة المعنوية تناول أيضا المحسنات المعنوية

فالمحسنات البديعية اللفظية هي صناعة تأليف الألفاظ والمحسنات البديعية المعنوية، هي صناعة تأليف المعاني .

عاشرا:**زكي الدين بن أبي الأصبع المصري وكتابه** (**تحرير التحبير**) **ت ٦٥٤هـ**

من أجل ما ألف في فن البديع، والصناعة الأدبية. ضمنه المؤلف الكثير من شعره. وأفاد صاحب كشف الظنون أنه اختصر به كتابه (التحبير في صناعة الشعر والنثر) .

ونقل عن" الصفي الحلي "قوله في كتابه (شرح الكافية البديعية) : (وهو أصح كتب هذا الفن، لاشتماله على النقل والنقد، وذكر أنه لم يؤلفه حتى وقف على أربعين كتاباً في هذا الفن، أو بعضه، وأوصل فنونه إلى تسعين فناً) **وهو المراد بقول الضياء ابن الملهم**: (هذا كتاب بديع ما رأى

أحد مثلاً له في مبانيه ومعناه حوى تصانيف هذا العلم أجمعها وزادنا جملاً عما سمعناه) (١).

ولقد أحصى في هذا الكتاب من المحسنات البديعية مائة وعشرين نوعا، بدأها بمحسنات ابن المعتز وقدامة، وثنّى بما جمعه من كتب البلاغيين بعدهما، فبلغ ذلك كله اثنين وتسعين محسنا، ثم أضاف إلى هذا العدد ثلاثين محسنا جديدا، منها عشرون من زياداته هو، والباقي إما مسبوق إليه أو متداخل عليه.

حادي عشر:**بدر الدين ابن مالك وكتابه**:(**المصباح في علوم المعاني والبيان والبديع**) **ت ٦٨٦هـ**

وهذا الكتاب تلخيص لكتاب المفتاح للسكاكي ، ويمتاز عنه بخلوه من الأسلوب الفلسفي ، والمصطلحات المنطقية ، وتابع السكاكي في اعتبار البديع من توابع البلاغة ولكنه عدها علما مستقلا ، ووضعه تحت عنوان (علم البديع) وبهذا تكونت أطراف البلاغة الثلاثة (المعاني والبيان والبديع) وجعل ابن مالك المحسنات قسمين محسنات لفظية ومحسنات معنوية ، **ثم قسم المعنوية إلى قسمين:**

قسم يعود إلى الإفهام والتبيين، **مثل**: المذهب الكلامي، والتتميم والتقسيم، والاحتراس، والتذييل، والاعتراض، والتجريد، والمبالغة.

---

١ - تعليق المكتبة الشاملة على الكتاب .

وقسم يعود إلى التـزيين والتحسـين، مثـل، اللـف والنشرـ، والجمـع مع التقسيم، والجمع مع التفريق.

ثاني عشر: يحيى بن حمزة العلوي ت ٣٤٩هـ وكتابه (الطراز)

وهذا الكتاب من أفضل ما كتب في علـم البلاغـة، واسـمه بالكامـل «**الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقـائق الإعجـاز**» ويقـع في ثلاثـة أجزاء.

وسبب تأليف هذا الكتـاب عجيـب ، أن العلـوي كـان يقـرأ تفسـير الكشاف على طلابه ، فطلبوا منه أن يؤلف لهم كتابا في البلاغـة يسترشـدون بـه في فهـم الكشـاف المؤسـس عـلى البلاغـة وقواعـدها، ويخفـف عـنهم مـن صـعوبة كتـاب الكشـاف ، فأجـابهم إلى طلـبهم وألّـف لهـم هـذا الكتاب.لكن البديع الـذي تضـمنه كتـاب الطـراز لم يخـرج عـما كتبـه ابـن مالك .

ثالـث عشـر:ابن معصـوم وكتابـه (أنـوار الربيـع في أنـواع البـديع) ت١١١٩هـ

وهو صدر الدين علي بن أحمد بـن محمـد معصـوم الحسـني الحسـيني المعروف بعلي خان بن ميرزا أحمد، الشهير بابن معصوم (المتوفى: ١١١٩هـ) ولد بمكة، وأقام مدة بالهند، وتوفي بشيراز.

وهذا الكتاب شرح لمنظومة في البديع قال ابن معصوم يصف ما فعله في كتابه من جمع كلام العلماء السابقين في البديع ، **يقول** : (جمعت ما وجدت في كتب العلماء ، وأضفت إليه أنواعاً استخرجتها من أشعار

القدماء ، وعزمت أن أؤلف كتاباً محيطاً بجلها ، إذ لا سبيل إلى الإحاطة بكلها ، فعرضت لي علة طالت مدتها ، وامتدت شدتها ، واتفق لي أن رأيت في المنام رسالة النبي ﷺ يتقاضاني المدح ، ويعدني البرء من السقام ؛ فعدلت عن تأليف إلى نظم القصيدة ، تجمع فيها أشتات البديع ، وتتطرز بمدح مجده الرفيع ، فنظمت مائة وخمسة وأربعين بيتا في بحر البسيط تشمل على مائه وواحد وخمسين نوعاً من محاسنه ، ومن عد جملة من أصناف التجنيس بنوع واحد كانت عنده العدة: مائة وأربعين نوعا فأن في السبعة البيت الأوائل منها أثني عشر نوعاً ، وجعلت كل بيت منها مثالا شاهدا لذلك النوع ، وربما اتفق في البيت الواحد منها النوعين والثلاثة ، بحسب انسجام القريحة في النظم ، والمعتمد منها على ما أسس البيت عليه ثم أخليتها من الأنواع التي اخترعتها ، واقتصرت على نظم الجملة التي جمعتها ؛ لأسلم من شقاق جاهل حاسد ، أو عالم معاند ، فمن شاقق راجعته إلى النقل ،ومن وافق وكلته إلى شاهد العقل)(١).

١- أنوار الربيع في أنواع البديع (المقدمة) ص ٢.

ولقد تنوعت نظم البديعيات مثل : نظم الجوهر المكنون في الثلاثة الفنون ، ومتن ابن الشحنة الحنفي ، وهذه كلها كانت خدمة للطلاب لتعينهم على تذكر العلوم ، ودائما ما تلجأ العلوم إلى عالم المتون وقت المحن والشدائد .

الفصل الثاني
مقدمـــات لا بـــد منهـــا

منزلة المعنى في علم البديع

حين يذكر لفظ البديع ينصرف الذهن – طوعا أو كرها – إلى الزخرف اللفظي ، أو الألوان والأشكال المرئية والمسموعة ، وهذا الأمر تراه في كتابات القدماء والمحدثين على السواء ، لكن الحقيقة أن أئمة البلاغيين ما قصدوا إلى إهدار جانب المعنى في المحسنات اللفظية ، كما أنهم لم يهدروا جانب اللفظ في المحسنات المعنوية لأن العرب تهتم بالألفاظ فتصلحها ، وتهذبها ، وتراعيها ، وتلاحظ أحكامها بالشعر تارة وبالحِكَم تارة أخرى ، والأسجاع التي تلتزمها ، وتتكلف استمرارها ، ومع ذلك فإن المعاني أقوى عندها ، وأكرم عليها ، وأفخم قدرا في نفوسها . يقول ابن جني تحت عنوان : باب في الردّ على من ادّعى على العرب عنايتَها بالألفاظ وإغفالَهَا المعاني:

(أعلم أن هذا الباب مِن أشرف فصول العربيَّة وأكرمها وأعلاها وأنزهها وإذا تأملته عرفت منه وبِه ما يؤِنقك ويذهب في الاستحسان له كل مَذْهَب بك ، وذلك أن العرب كما تُعْنَى بألفاظها فُتصلحها وتهذِّبها وتراعيها وتلاحظ أحكامها بالشعر تارة وبالُخَطب أُخرى وبالأسماع التي تلتزمها وتتكّلف استمرارها فإن المعانَي أقوى عندها وأكرم عليها وأفخم

قَدْرا في نفوسها ، فأوّل ذلك عنايتها بألفاظها فإنها لَمَّا كانت عُنوان معانيها وطريقا إلى إظهار أغراضها ومراميها أصلحوها ورتّبوها وبالغوا في تحبيرها وتحسينها ليكون ذلك أوقع لها في السمع وأذهبَ بها في الدلالة على القصد ألا ترى أن المَثَلَ إذا كان مسجوعا لَذَّ لسامعه فِحفظه ، فإذا هو حفظه كان جديرًا باستعماله ولو لم يكن مسجوعا لم تأنس النفسُ وبهِ ولا أنِقت لمستمعه وإذا كان كذلك لم تحفظه ، وإذا لم تحفظه لم تطالبِ أنفسها باستعمال ما وضع له ، وجيء بِه من أجله ،

وقال لنا أبو عليّ يوما : قال لنا أبو بكر :

" إذا لم تفهموا كلامي فاحفظوه فإنكم إِذا حفظتموه فهمتموه "

وكذلك الشعر النفس له أحفظ وإليه أسرع ، ألا ترى أن الشاعر قد يكون راعيا جِلْفا أو عبدا عَسِيفا تنبو صورته وتُمَجّ جُمْلُته فيقول ما يُقوله من الشعر فلأجل قبوله وما يورده عليه من طلاوتهِ وعذوبة مستمَعِه ما يصير قوله حُكْما يرجع إليه ويُقاس بهِ ، **ألا ترى إلى قول العبد الأسود** :-

إن كنتُ عبداً فنفسِي حُرَّة كرَماً   أو أسودَ اللونِ إِني أبيض الخُلُقِ (١)

وعليه ، فليس هناك حسن يرجع إلى اللفظ فقط ، بل هي خدمة للمعنى ، وما قيل إنها لفظية إلا لأن الحسن يظهر أولا في اللفظ من خلال الصوت والحرف والنغم ..

١- الخصائص لابن جني ١/ ٢١٥.

وكذلك الحال ليس هناك حسن يرجع فقط إلى المعنى دون وجود دور للألفاظ ، وإنما قيل محسن معنوي ، لأن الحسن يظهر للوهلة الأولى في تناسب المعنى ، أو تقابله ، أو جمعه ، أو تقسيمه ،. إلخ

فالحسن حين يضيء أولا في الألفاظ فهي محسنات لفظية ، وحين يبرق أولا في المعاني فهي محسنات معنوية ، فالتقسيم إلى لفظية ومعنوية كما يقول أستاذنا محمود توفيق – منظور فيه إلى الاستهلال ، لا جانب الاشتمال .

كما أن الحسن في الألفاظ تابع للحسن في المعاني ، وهذا ما أكده السكاكي في المفتاح،بل إنه زاد على ذلك فضم بعض المحسنات البديعية إلى علم المعاني ، وهذا يجعلك تعجب ممن اتهموه بإخراج البديع من البلاغة .

مكانة النغم في البلاغة العربية

في الوقت الذي تجد فيه البعض يحرم الموسيقى، ويعتبرها المقصود من **قوله تعالى :**

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ ﴾ [سورة لقمان:٦]

فهي عندهم وسيلة إضلال، وحبل من حبائل الشيطان ، وعلامة تَسِم صاحبها بالفسق والفجور ، تجد البعض الآخر يعتبرها علما نافعا وشفاء من الأمراض ، ووسيلة لزيادة الإنتاج .

ويظل المسلم في حيرة من هذا التناقض حيث لا وساطة بين الفريقين بل لا توجد منطقة منزوعة السلاح يمكن الالتقاء فيها بينهما ، ولما كان علم البلاغة علما معنيا بالنص وفهم المقصود منه كان لا بد من عرض الأمر عليه ليتبين للجميع أولا المقصود بالموسيقى حتى نفهم النص الشرعي في ضوء هذا المفهوم ، **لقد قسم العلامة الكندي الألحان إلى عدة أقسام في كتابه** : المصوتات الوترية من ذات الوتر الواحد إلى ذات العشر ـ الأوتار **وقال** : إن منها ما يكون للطرب ، أوإثارة الحماسة ، ومنها ما يكون للبكاء

والحزن والنوح الشجوى[1]، **ويقول طاشكفري زاده في كتابه** : علم الموسيقى :(ولذلك يستعملون النغم تارة في الأفراح والحروب وعلاج المرض وتارة في المآتم وبيوت العبادة).

ولا تعجب حين ترى لكل أمة موسيقاها ولحونها وإيقاعاتها، وحين ترجع إلى الفنون الأدبية لا تجدها تبعد عن الموسيقى بل تلتقي بها في خطوط كثيرة ، فهناك تعانق بين أنواع الفن المختلفة(الرسم – الشعر – الموسيقى – القصة – المسرحية ... إلخ)، فأكاد أرى خيطا واحدا يربط كل ذلك ، وهو أثره الذي يتركه في المتلقي ، وإذا حاولت البحث عن سبب هذا الأثر الماتع لوجدت أنه التآلف ، والتمازج ، والتناغم ، والتوافق ، والألفة التي يتركها الفن في النفس ، والنفس البشرية تميل إلى ذلك جدا وتستعذبه وتهفو إليه ، وترتاح له ، وكلما زادت درجة التآلف زاد انجذاب النفس إليه تماما مثل الأرواح التي تتآلف حين تتعارف ، وعندها يحدث الإمتاع وتتكامل اللذة. إنها المطابقة التي تحدث عنها البلاغيون ، إن البلاغة مطابقة ، والمطابقة تعارف وتآلف وتناغم ، بين الكلام ومقتضى الحال.

فالركن الذي تستند إليه البلاغة العربية هو التناغم بين الكلام والأحوال ، أو بين اللفظ والمستمع ، أو بين المرسل والمستقبل . والموسيقى لا تعدو كل ذلك بل هي : تقطيع الأصوات على نسب منتظمة معروفة

١- العلاج بالموسيقى ص ٨٣.

يوقع على كل صوت منها توقيعا عند قطعه فيكون نغمة ، ثـم تؤلـف بين تلك النغمات على نسب متفاوته فيلـذ سـماعها ، فالموسـيقى أصـوات ، ولها نسب معينة منتظمة ، ثم يضم بعضها إلى بعض حتى يؤلـف مـن بينهـا قطعا موسيقية فتحدث الجمال والمتعة .

وتلك هي أركان البلاغـة العربيـة : (كلـمات تركـب بنسـب معينـة فيحدث بينها علاقات بين اللفظ واللفـظ ، وبـين اللفـظ والسـياق ، وبـين اللفظ والمقام وهذا النسيج يحدث ضربا من اللذة والإمتاع ، ولـو أردت أن تضع عبارة جامعة بين البلاغة والموسيقى **لقلت** : (حسن التناسب) .

لقد قرأ الفراء قول الله تعالى:

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾﴾ [سورة النازعات:١١]

متفردًا في قراءة أهل المدينة والحجاز والبصرة بزنة (فَعِلة) ، وجـاءت قراءة عامة قراء الكوفة على زنة :(فاعِلة : ناخِرة) مشاكلة للفواصـل قبلهـا ويبـين "الفـراء" أنَّ "عمـر بـن الخطـاب " رضي الله عنه ، قـرأ (نـاخرة) وأنّ ابن عباس رضي الله عنهما قرأ (نَخِرَة) و (ناخِرة) ثُمَّ يقول عن (نـاخرة) إنَّهـا أجود الوجهين في القراءة ؛ لأنّ الآيات بالألف، ألا تـرى أنَّ (نـاخرة) مـع (الحافرة)و(السَّاهرة) أشبه بمجيء التنزيل ، و(الناخرة) و(النخـرة) سـواء في المعنى بمنزلة "الطَّامع" و" الطمع" و"الباخـل" و"البخـل" وقـد فـرَّق بعض المفسرين بينهما ، فقال :(النخرة) : البالية ، و(الناخرة) :

العظم المجوف الذي تمرّ فيه الريح ، فينخر " .

يقول أستاذنا محمود توفيق : لتنظر في قوله : « أجود الوجهين في القراءة ؛ لأنَّ الآيات بالألف...» ، فهذا منه إعلاء لعطاء التوافق في إيقاع النغم في الصورة الصوتية للآيات ، وقد يحسب ناظر أنَّ هذا من ردّ القراءات أو المفاضلة بينهما والقول بالتفاوت في بلاغة القرآن الكريم.

لو نظرت في مقال " الفراء" لرأيت أنّه يقول : « أجود الوجهين » فهو لم يحكم بصحة أحدهما هنا دون الأخر، بل قرر أن قراءة (ناخرة) أجود بفيوض المعنى على القلب من قراءة (نخرة) أي أن الصورة الصوتية لقراءة (ناخرة) يتوافد منها على القلب من المعاني أجودها بما حملته من الانسجام في الجرس والإيقاع ، وهذا ما لا يمكن أن تدفعه ، ولا سيّما أنّه يذهب إلى أن المعنى المتعقّل من (ناخرة و نخرة) سواء ، فلم يبق إلا ما يتوافد عليك من الأثر الانطباعي من الصورة الصوتية المتناغية مع ما سبقها وما تلاها)([1]).

فالنغم والإيقاع رافد من روافد البيان العربي ، رغم الزعم بأن النغم والموسيقى لا مجال لها في البلاغة العربية ، مع أنك لو حللت مصطلح الإيقاع ، أو مفهوم النغم لوجدت أنه في أصله يدور حول التناسب والانسجام بين الأشياء ، وإذا كان النغم هو الانسجام والتناسب فأين

١- العزف على أنوار الذكر ص ٢٣١.

نضع مثلا : السجع ، أو الجناس ، أو مراعاة النظير ، أو المشاكلة إن لم يكن ذلك كله من باب التناسب والانسجام ؟ فارتباط البلاغة عامة ، والبديع خاصة بالنغم والإيقاع ، سواء منه الإيقاع اللفظي ، أو الإيقاع المعنوي القائم على التشابه بين الأغراض والمقاصد ،أمر لا ينبغي الجدال فيه .

والذي يواظب على مصاحبة البيان العربي – شعرًا ونثرًا – يوقن بأن النغم والإيقاع هو السمة البارزة في اللسان العربي ، وأن اهتمام العربي بالمعنى يسبقه اهتمامه بالجملة الإيقاعية التي تنقل له هذا المعنى ، وأن العربي يسمع قبل أن يتدبر ، بل إن السمع عنده هو الباب الواسع الذي يفتح له مغلقات المعاني ، فتراه يفهم المعنى من خلال الصوت ، والعرب تسمي الأشياء بأسماء ما يكون فيها من أصوات مثل:(الوغى) وهي في الأصل صوت قعقعة السلاح ونحوه ، بل إن الصوت ليحكي لك في الكلمة الواحدة مراحل الفعل الواحد المتعدد ، وراجع معي صوت الفعل (اجتثت) وهو يرسم لك المراحل الزمنية المتتابعة لاجتثاث الشجرة من الأرض ، حيث يصور لك المقطع الصوتي الأول من الكلمة (إجّ) صوت تقطع الجذور من باطن الأرض ، ثم يرسم المقطع الصوتي الثاني (تثّ) حركة السقوط المدوي من الأعلى إلى الأسفل ، وما يصاحب ذلك من تداخل الأصوات الكامن في حرف الثاء ، ثم يرسم لك المقطع الصوتي

الثالـث (ثـتْ) مشـهد الارتطـام العنيـف بـالأرض والـذي يعقبـه سكوت .

وهكذا أردت أن أبين لك قيمة الصـوت والإيقـاع في البيـان العـري يقول أستاذنا وهـو يسـتعرض القيمـة الصـوتية في التفكـير البلاغـي عنـد السابقين :

مجمل القول:إنَّ التفكير البلاغيّ قـديمًا وحـديثًا قـد كانـت لـه عنايـة كريمة بالقيم الصوتية المكونة من الجرس والإيقاع على اخـتلاف مسـاحتهما ومنهاجهما ، وكانت عنـايتهم بـه مَنْسُـولَةً مـن عنـايتهم بالمعـاني وصـورها ومناهج الدلالة عليهـا ومسـالكها إلى النفـوس حاملـة إليهـا تلـك المعـاني ولعلَّ تبيان "**الرمّاني" جوهر البلاغـة بقولـه** :" إيصـال المعنـى إلى القلـب في أحسن صورة من اللفظ" يسـلك تلـك الحقيقـة في قلبـك ويقررهـا فيـه فالجرس والإيقاع هو أول ما يسترعي انتباه المستمع ، وإن لم يستطع لظلمـة جهالة أو عجمة أن يدرك شيئًا من المعنى المتعقّـل ، ولهـذا تجـد العامـة ممـن لا يعرفون من علم العربية شـيئًا يرغبـون في الإصـغاء إلى الترتيـل الحسـن وقد ينفعلون لتوقيعه ، انفعالًا قد لا يتجاوب مع ما يحمل هذا الإيقاع مـن المعنى المتعقل ، فتراه يهتف بكلمة الإعجاب في مقام ترهيب وإنـذار تنخلـع لـه قلوب العارفين ،وما هو بالذي هتف إعجابا لما تضمنه من ترهيب وإنذار ، فهـو به جهول ، وإنما هتف لجرسه وإيقاعه ، وذلك ما يدركه حسه الفطريّ) (١).

١ـ العزف على أنوار الذكر لمحمود توفيق ٢٣٩.

تعريف البديع عند العلماء

قد علمت أن علوم البلاغة تحمل بين دفتيها: (**المعاني** ، **والبيان** ، **والبديع**) وأن هذه العلوم الثلاثة لها هدف سام هو إيصال المعنى إلى قلب المتلقي ، ولكي يصل هذا المعنى سليما معافا لا بد من الاحتراز عن الخطأ في تأديته ، واصطفاء أفصح الألفاظ لحمله ، وهذا جوهر علم المعاني ، ثم وضع هذا المعنى في أوضح صورة ، وأبهى شكل ، وهذا جوهر علم البيان ثم تحسين الكلام وتزيينه ، وهذا جوهر علم البديع . ودعنا هنا نعرف هذا العلم ، ونوضح الإطار اللغوي والاصطلاحي له .

تعريف البديع في اللغة :

لفظة"**بديع**"على وزن (فعيل) من الفعل : (ب د ع)، وهذه المادة تفيد معنى : الجديد المحدث على غير مثال سابق ، فكل شيء ابتدعته وأنشأته ، وبدأته يقال له : بديع ، وصيغة (بديع) هي (فعيل) **بمعنى** :

فاعل ، وبمعنى : مفعول أيضا ، **فمن قبيل الفاعل قوله تعالى** :

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ... ﴾ [سورة البقرة:١١٧]

أي : موجدها، وبادؤها ، ولم تكن من قبل ، وفلان "بِدْعٌ" في هذا الأمر أي هو أول من فعله فيكون اسم فاعل بمعنى "مُبْتَدِعٌ" ... و"البَدِيعُ" : فعيل من هذا فكأن معناه هو منفرد بذلك من غير نظائره وفيه معنى التعجب ، **ومنه قوله تعالى**:

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ .... ﴾ [سورة الأحقاف:٩]

أي: ما أنا أول من جاء بالوحي من عند الله تعالى، وتشريع الشرائع بل أرسل الله تعالى الرسل قبلي مبشرين ومنذرين فأنا على هداهم(١).

ومن قبيل المفعول كل شيء تراه تقول إنه : بديع ، أي مبتَدع ، مثل الثوب البديع ، أي الذي لا نظير له ، أو الذي يحسن في عيون الناظرين ومنه : الفكر البديع، ويعني : الفكر الجديد الذي لا يظل داخل الصندوق بل يبتكر ويأتي بالجديد ، ومنه أخذت (البدعة) ، وهي الشيء المستحدث في الدين ، وهي مردودة على صاحبها .

ولقد جبلت كثير من النفوس على معاداة الجديد ، واستنت لنفسها سنة : وجدنا آباءنا على أمة ، وهذا ظاهر في كل شيء حتى في اللغة وبديعها **ولقد ذكر ابن سنان عن ابن الأعرابي** : (أنه أنشد أرجوزة أبي تمام) وهي من بحر الرجز التام (مستفعلن) ست مرات ، **وفيها يقول** :

(وعاذلٍ عذلته في عذله   فظنَّ أني جاهلٌ من جهلهِ)

(ما غبنَ المغبونَ مثلُ عقلهِ   مَنٍ لكَ يوماً بأَخِيكَ كُلهِ ؟ (٢)

أنشدها على أنها لبعض العرب فاستحسنها ابن الأعرابي وأمر بعض أصحابه أن يكتبها له ، فقيل له : أهي حسنة ؟ قال ما سمعت بأحسن منها

١- المصباح المنير ١/ ٢٦.

٢- وتكملتها هي : (لبستُ ريعاني فدعني أبلهِ ** رأيَ ابنِ دهرٍ غَرِقاً في خبلِهِ)
(أَعْلَمَ مِنْهُ بِحُداءِ إِبْلِهِ ** قَدْ لَعِبَتْ أَيْدي النَّوَى بِشَمْلِهِ)
(مَمَتّعاً مُضْطَلِعاً بحِمْلِهِ ** مُنْصَلِتاً كالسَّيْفِ عندَ سَلهِ)
(مَوْلُودَةٌ هِمَّتُه مِنْ قَبْلِهِ ** قد دانَ ذو الفضلِ له بفضلهِ)
(كالصَّابِ مَنْ يَذُقْه لا يُسْتَحْلِهِ ** إلاّ بأَنْ يَسْكُنَ تحتَ ظِلهِ).

فقيل له : إنها لأبي تمام فقال خرّق خرّق **!!** فخرقها .

وهذه الطباع سببها احترام الآباء الزائد عن المعقول ، واعتبار أن ما جاء الآباء لا مزيد عليه ، وتلك آفة تنقلت بين النفوس حتى وصلت إلى العقائد ، وصار الناس يرفضون الجديد ، كل جديد ، **وراجع قول الجاهليين** :

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

[سورة الزُّخرُف:٢٢]

وقولهم:

﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّٗا قَبْلَ هَٰذَآۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٖ ﴿٦٢﴾ ﴾ [سورة هود:٦٢]

وهذا كله نتاج الرفض التام لكل ما يعارض تراث الآباء، في المعتقد والفكر ، والسلوك والسير .

وجاء عن الأصمعي – وهو من هو – أن إسحاق بن إبراهيم الموصلي أنشده :

هل إلى نظرة إليك سبيل   فيروى الصدى ويشفى الغليل

إن ما قل منك يكثر عندي   وكثير ممن يحب القليل

فقال له الأصمعي : **لمن تنشدني ؟** **فقال** : لبعض الأعراب ، فقال :

هذا والله هو الديباج الخسرواني ، قال : فإنهما لليلتهما ، قال : لا جرم ، والله إن آثار الصنعة والتكلف بيّن عليهما)[1].

وأنا وإن كنت أشكك في نسبة هذه الأقوال ، وبخاصة لما ينسب إلى الأصمعي لعلمه وفضله ، إلا أنني أجزم بأن من النفوس نفوسا ترفض كل جديد ، لا لشيء إلا لأنه جديد ، والبديع ما هو إلا الجديد ، والخروج بالكلام من المعهود إلى غير المعهود ، حتى في زينته وزخرفه ، ولو راجعت الأبيات السابقة لوجدتها مليئة بألوان البديع غير المتكلف ، فزادت إشراقا وبهاءا ، وتقبلتها النفوس سريعا ، إلا أن حاجز الزمن أعادها إلى الوراء لحداثتها في هذا الوقت .

التعريف في الاصطلاح :

نشأ هذا المصطلح مع واضعه الأول ابن المعتز ، **وقال عنه** : (البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء والنقاد المتأدبون منهم، فأما العلماء باللغة والشعر القديم، فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو) فهو فنون من الشعر عند واضعه ، ويعني الجديد الذي يبتكره الشعراء والنقاد ، وظل هذا المصطلح زمنا طويلا لا يراد به إلا الجديد ، **مثل** : المعنى البديع ، والأسلوب البديع ، والصورة البديعة ، وكل ما فيه جديد

١- سر الفصاحة لابن سنان ١ / ٢٧٩.

تستحسنه القلوب ، حتى انتهى هذا المصطلح إلى مدرسة التلخيص فاستقر في دائرة لم يبرحها حتى اليوم ، **وهي :**

أنه علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعايته لمقتضى الحال ووضوح الدلالة .

وهذا يعني أن تحسين الكلام لا يقال عنه : بديع إلاَّ إذا كان الكلام مطابقا لمقتضى الحال ، وهذا هو لب علم المعاني ، وكان واضح الدلالة على المعنى المراد وهذا هو لب علم البيان .

وأهل البلاغة ضربوا لذلك مثالا يوضحون فيه أهمية المطابقة والوضوح فقالوا ، **لو أنك قلت:** " إن يزيد ليزيدن ظلما إذا أنّ المظلوم من الأذى ، وهذا مثال مصنوع ، يشتمل على جناسٍ بين :

(إنّ و أنّ) و(يزيد ويزيدون) و (ظلما والمظلوم) و (إذا وأذى) .

ولكنه مع ذلك ليس فيه مطابقة لمقتضى الحال ، فخرج عن البلاغة والتحق بعالم الطلاسم ، أو عالم الأحاجي .

وكذلك الحال لو أن المقام يستدعي لونا من ألوان البديع ، ثم جاء المتكلم بلون آخر لخرج الكلام عن البلاغة ، فمطابقة الكلام لمقتضى الحال هي أساس البلاغة العالية ، **في أبوابها الثلاثة** : المعاني والبيان والبديع والاعتناء بوجوه تحسين الكلام دون رعاية مطابقته لمقتضى الحال ووضوح الدلالة بمنزلة تعليق الدر على أعناق غير جميلة .

ولقد درج أهل البلاغة على رؤية ألـوان البـديع مـن خـلال مرجـع الحُسن ، فإن رجع الحسن أولا وقصدا إلى المعنى أطلقوا عليـه : المحسـنات المعنوية ، وإن رجع الحسن أولا وقصدا إلى اللفظ أطلقـوا عليـه المحسـنات اللفظية ، وهذا التقسيم لا أراه لائقا ، لأنه يميل بالكفة ، ويغبن طرفـا مـن اللفظ أو المعنى ، والبديع غير ذلك تماما ، لذلك لـن أعتمـد هـذا التقسـيم في كتابي ، بل سأجعله فنونا متشابهة يجمعها خيط واحد .

ويعد أبو يعقوب السكاكي (ت ٦٢٦) أول من أشار إلى المحسـنات اللفظية والمحسنات المعنوية وسار العلماء خلفه ، مع أنه لم يجعل نفسه علـما قائما بذاته ، مثل المعاني والبيان ، مما يشير إلى أنه يعتبر هذه الألوان إضـافات وزيادات تضاف إلى الأصول ، وليس معنى أن التحسين تحسين لفظـي أنـه لا يعود شيء منه إلى المعنـى ، وكـذلك العكـس ، وإنـما التحسـين اللفظـي أن يلمح الحسن أولا من خلال اللفظ ، وعلامة ذلك أننـا لـو غيرنـا لفظـة مكان لفظة لزال الحسن ، ومثال ذلك الجناس ، **ففي قول الله تعالى مثلا** :

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾

[سورة الروم: الآية ٥٥]

تجد لفظتين بينهما جناس وهما: (السـاعة – و سـاعة) اللفظـة الأولى تعني يـوم القيامـة ، واللفظـة الأخـرى تعنـي : الوقـت القليـل ، فاشـترك اللفظان في البنية ، واختلفا في الدلالة ، ولو أنك غيرت اللفظة الأولى

وقلت في غير القرآن مثلا : ويوم تقـوم القيامـة يقسـم المجرمـون مـا لبثوا غير ساعة ، أو غيرت اللفظة الثانية ، وقلت : ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا إلا قليلا ، لـزال الحسـن الناشـئ مـن الجنـاس ، حيـث لا جناس ساعتها ،أما التحسين المعنوي فهو ما يلمح الحسـن فيـه أولا مـن المعنى ، ولو غيرنا لفظة مكان لفظة لبقي الحسـن كـما هـو ، كـما في الطبـاق مثلا ، **واسمع إلى قول الشاعر** :

فيـــومُ علينـــا ويـــومُ لنـــا ويـــوم نُســـاء ويـــوم نُسر

لـو أنـك وضـعت مكـان كلمـة (نسـاء) كلمـة (نحـزن) مـثلا أو وضعت بدلا من (نسر) كلمة (نفرح) لبقي الحسن وما برح ، ولأجل كل هذا ذهب الطيبي – رحمه الله – إلى تقسيم المحسنات **إلى ثلاثة أقسام**:

الأول : محسنات لفظية ، يتعلـق الحسـن فيهـا بـاللفظ فقـط مثـل الجنـاس والسجع .

الثـاني : محسـنات معنويـة يتعلـق الحسـن فيهـا بـالمعنى فقـط مثـل تجاهـل العارف .

الثالث : محسنات معنوية ولفظية معـا ، مثـل الطبـاق حيـث يأتيـه الحسـن من المعنى ، مع تعلق ذلك بالألفاظ ، والذي يعنينا هنا أن كـل واحـد من هذه الثلاثة يطلبه المقـام ويسـتدعيه السـياق ، فلـو جـاء المـتكلم بطباق والمقام يستدعي سجعا ،أو مشاكلة – مثلا – كان الأسلوب

غير مطابق لمقتضى الحـال ، كـما أنـه لـو جـاء بتشـبيه ، والسـياق يسـتدعي استعارة ، أو كناية لم يكن هذا مطابقا لمقتضى الحـال ، ولا يعـد ذلـك من البلاغة ، ولهذا يتفاوت المتكلمون ، ويرقى بعضـهم فـوق بعـض في إصابة هذا الجوهر ، أو البعد عنه أعني – المطابقـة – فهـي جـوهر البلاغة ، وتعريفها قاطع بذلك .

وللقارئ أن يسـأل: لم خرجـت هـذه الجماليـات عـن علمـي المعـاني والبيان ؟ والذي يبدو أن الإبداع في مكونـات علـم المعـاني ، وعلـم البيـان إبداع ذاتي ، ومن داخل الجملة ، ولكن الإبـداع في هـذه المحسـنات إبـداع ملحق ، وتابع ، وخارجي ، و مـن الممكـن تنحيـة كثـير منـه عـن العبـارة ويبقى التركيب ، ولأجل كل ذلـك كـان لابـد مـن المهـارة الكبـيرة حتـى لا تبدو هذه الألوان ملحقة ، ولصيقة ، ومصطنعة .

الباب الثاني
فنون البديع
الفصل الأول فنون البناء
التشريع

بناء الكلام فن لا يقل أهمية عن بناء المنازل ، والعربي حين يتفنن في بناء الشعر أو النثر يضع نصب عينه البناء الحسي ـ الذي يعيش فيه ليقيس عليه ، فتراه تارة يقسم المكان إلى حجرات ، أو يضع هنا ما يناسب الذي هناك ، أو يزيد في البناء ما يراه هو صالحا لمعناه .... إلخ .

وكل هذه الدلالات ترى شبيها لها في كلامه ، وحين تراجع فنون البناء البديعي تجد ما تراه عينك هناك شاخصا هنا ، ومن أجمل صور البناء الشعري ما يسمى بالتشريع ، وهو فن يجعلك حين تشبع بالمعني ، وتستقر في مكان يقال لك : هناك مزيد ، **تماما كما يقول القرآن الكريم** :

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ٣٥﴾ [سورة ق:٣٥]

فهناك في التشريع قافيتان ، إذا وقفت على الأولى تم لك المعنى ، وإذا وقفت على الثانية جاءتك الزيادة الجميلة . **فالتشريع في لاصطلاح** :

(بناء البيت على قافيتين يصح المعنى بالوقوف على كل واحدة منهما)

ومن نماذج ذلك قول الشاعر:

يـا خاطـب الـدنيا الدنيـة إنهـا   شرك الـردى و قـرارة الأكـدار

فالوقوف على كل من جملتي (شَرَكُ الردى ، و قرارة الأكدار) يصح به المعنى ، فالجملتان متوافقتـان عـلى خـتم البيـت ، وكـأن إحـداهما تـوأم للأخرى ، ولذلك أطلق بعـض أهـل العلـم عـلى هـذه الصـورة مصـطلح " التوأم " لأن كلا من القافيتين تصلح للختام ، ويأتي هذا اللـون في الشـعر وقد يأتي في النثر ، ولكن وجوده في الشعر هو الأصـل ، ويكثـر في البحـور الشعرية التي تتكون من تفعيلة واحدة ، **مثل بحر الكامل** :

ومن نماذج هذا اللون قول الأخطل :

وإذا الرياح مع العشي تناوحـت   هـوجَ الرمـال تكـبهن شـمالا

ألفيتنـا نقـري العبـيط لضـيفنا   قبـل العيـال ونقتـل الأبطـال

لو أنك قلت :

وإذا الريـاح مـع العشيـ   تناوحـت هـوج الرمـال

ألفيتنـا نقـري العبيـ   ط لضـيفنا قبـل العيـال

وكأن الجملة الأخيرة من كل بيت هدية جديدة ، و عطاء بعـد عطـاء

وفي قول الحريري السابق :

ياخاطب الـدنيا الدنيـة إنهـا شرك الـردى وقـرارة الأكـدار

دار متى ما أضحكت في يومها أبكـت غـدا بعـدا لهـا مـن دار

فالبيتان مـن الكامـل ، وحـين تسـقط تفعيلتـين يصـير مـن المجـزوء " مجزوء الكامل " **فتقول :**

ياخاطب الـدنيا الدنيـة إنهـا شرك الـردى

دار متـى مـا أضـحكت في يومهـا أبكـت غـدا

وأكثر البحور الشعرية التي يمكن إجراء هذا اللون البـديعي فيهـا :
بحر الرجز ، وتفعيلته " مستفعلن " مكررة ست مرات ، وحـاول أنـت أن **تجرب ذلك فيما يأتي :**

يرنـو بطـرف فـاتر مهـما رنـا فهـو المنـى لا أنتهـي عـن حبـه

يهفو بغصن نـاضر حلـو الجنـى يشفي الضنى لا صبر لي عن قربـه

لو كـان يومـا زائـري زال العنـا يحلـو لنـا في الحـب أن نسـمى بـه

وبعـد أن تنتهـي تـرى مهـارة الشـاعر في اصـطفاء النغمـة الشـعرية وقدرة هذه النغمة على صوغ المحسن البديعي .

المهم أن هذا النوع إنما لقب بالتشريع أو التوشيح لأنه فـن مـن فنـون بناء الشعر ، فالشاعر يبني معناه على بحرين من البحور الشعرية، فإذا وقف على القافية الأولى استقام له البحر ، وإذا وقف على الأخير استقام له بحر

آخر ، لذلك سمي توشيحا من الوشاح وهو ما يزيد من الحلى على الكشح وسمي تشريعا أيضا .

اللف والنشر

يكاد يعطيك مصطلح اللف والنشر مراده من لفظه ، فهناك كلام مطوي في بداية الأمر ، أدخل بعضه في بعض ، وانطوى بعضه على بعض ثم أعيد هذا المطوي وفتح له الباب لينشر ، **يقول السكاكي شارحا المراد من هذا اللون البديعي** :

(اللف والنشر، أن تلف بين شيئين في الذكر ، ثم تتبعهما كلاما مشتملا على متعلق بواحد وبآخر من غير تعيين ، ثقة بأن السامع يرد كلا منهما على ما هو له **كقوله عز وعلا** : ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ....﴾ [سورة القصص:٧٣]

ويروق لي جدا قوله:(ثقة بأن السامع يرد كلا منها على ما هو له) فمصطلح (الثقة) مصطلح أخلاقي ، وقد زرعه السكاكي في البلاغة ليبين لك أن هناك علاقة بين المتكلم والسامع ، تقوم هذه العلاقة على الثقة في توفر العقل عند الطرفين ، هذه الثقة هي التي أجازت للمتكلم أن يحذف ؛ لأنه يخاطب من يقدر المحذوف ، وأجازت له أن يضمر لأنه

يخاطب من يفهم اللفظ المضمر ، ويخاطب من يرتب الكلام لأنه يعرف كيف يرد الكلام بعضه إلى بعض ، ولذلك كله ينبغي أن تتأكد من أن اللغة العربية لغة تزرع بين أهلها الثقة ، وتفويض المتكلم للمخاطب في إنتاج المعنى معه ، كما أن المخاطب فوض المتكلم في قول ما يشاء ما دام الكلام ملتزما بقواعد اصطلح عليها الجميع .

فهذا اللون يعتمد على ذكر أمرين في بداية الكلام دون بيان المراد من كل أمر ، ثم يتبع ذلك ذكر ما يوضح كل أمر أيضا إجمالا ، والمتلقي يستطيع من خلال السياق إلحاق البيان بالمبين ، وضم كل طرف ببيانه وجمع الشيء بما يناسبه ، فلو قلت مثلا ، (الحق والباطل ، يحق الله ويبطل) فأنت ذكرت في البداية الحق والباطل دون توضيح ، ثم ذكر جملتين ، كل جملة تنضم مباشرة بما يناسبها ، فجملة (يحق الله) تذهب مباشرة إلى الحق وجملة (ويبطل) تذهب مباشرة إلى الباطل ، وهكذا ترى هذا اللون يحرك فيك نوازع الفكر ، ويثير فيك الانتباه ، ويضمك إلى عالم الكلام لتنتج المعنى مع المتكلم ، وهذا من أمتع الأساليب ، وهي ما يطلق عليه الآن التداولية ، بحيث تجعل اللغة سجالا بين المتكلم والمتلقي ، وتوظف اللغة في إنتاج المعاني بينك وبين السامع ، **وحاول معي أن تنظر إلى قول الشاعر** :

ألست أنت الذى من ورد نعمته ... وورد راحته ، أجنى وأغترف

وراجع هذا الجمع بين (ورد نعمته وورد راحته) وكيف أثـارك هـذا الغموض الذي لف لك الكلام ، وطواه ، ثم انظر إلى ما فعله الشـاعر بعـد ذلك **حين قـال** : (أجنـي وأغـترف) وتركـك تقـوم بعملـك ، وتسـتحث عقلك في إرجاع كل فعل إلى ما يناسبه ، فقمت أنت بإعادة الفعل (أجني) إلى (ورد نعمته) و الفعل (أغترف) إلى (ورد راحته) ولعلـك لاحظـت الترتيب في بناء العبارة ، فالترتيب بـين (ورد نعمتـه وورد راحتـه) انـتظم عليه الترتيب بين (أجني وأغترف) .

وقد لا يراعى الأديب هذا الترتيب ، ويبالغ في تحريك عقـل السـامع وهو يثق بأنه سيردّ كل شيء إلى موضعه سواء تقدّم أو تـأخر، وانظـر مثـال **ذلك في قول الشاعر:**

كيف أسلو وأنت حقف وغصـن وغـــزال لحظـــا وقـــدّا وردفـــا

والحقف هو الذي قد انحنـى وتثنـى في ولهـذا قيـل للرمـل المنحنـي حقف ، المهم أن الشاعر خلط لحبيبه الأوراق ، وكأنـه يسـتثيره ، ويناكفـه ؛ لأنه في موقف المناكف الذي يـراد منـه السـلو ، ولا يسـتطيع ، **فيقـول لـه** : (كيف أسلو؟)، فذكر له ثلاثة أشياء ، وبيّنها بثلاثة أخرى ، وخلـط الكـل لك ليشغله عن مطالبته بالسلو ، والحقف ترد إلى الردف ، والغصن يـرد إلى القد ، ويرد الغزال إلى اللحظ ، المهم أن هناك ثقة من المتكلم بأن المخاطـب قادر على رد كل شيء إلى ما يناسبه ، وإلا ألحق الكلام بالتعقيد الذي يخرج

الأسلوب من عالم المدح إلى عالم الـذم ، وأريـد هنـا أن أضـع تعريفـا يلخص هذا المراد **فأقول** :

اللفو والنشر هو : ذكر الشيئين أو أكثر ، ثم ذكر ما يناسـبهما بعـدهما ثقة بأن المتلقي يلحق كل عني بما يليق به .

وأبرز شاهد على هذا قول الله تعالى : ومـن رحمتـه جعـل لكـم الليـل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله " **والأصل أن يقال** :

" ومن رحمته جعل لكم الليل لتسكنوا فيه، وجعل النهار لتبتغوا مـن فضله " لكن الذكر الحكيم عدل عـن ذلـك ، وأرى خلـف هـذا العـدول **بعض المعاني منها** :

- أن التفضل بخلق الليل والنهار نعمة مستقلة عن فعل الإنسان فيهما .
- أن السكن ليس مرتبطا بالليل عند كـل النـاس ، وكـذا النهـار لـيس مرتبطا بالسعي فيه عند كل الناس ، بل إنك تـرى كثـيرا مـن النـاس تربط معاشاتهم بالليـل ، وآخـرين يـرتبط سـكونم بالنهـار ، لـذلك فصلت الآية السكن عن الليل ، وفصلت المعاش وابتغاء الفضل عن الليل ، لمراعاة أحوال هؤلاء ، بحيـث يسـتطيع كـل إنسـان أن يعيـد سكنه إلى الليل أو إلى النهار ، وكذا يعيـد معاشـه إلى الليـل أو النهـار كل بحسب أحواله .

ومن مواعظ أهل الـوعظ قـول بعضـهم:(إن المـرء بـين يـومين يـوم قد مضى أحصى فيه عمله فحتم عليه. ويوم قد بقى لا يدرى لعلـه لا يصـل إليه) ، فقوله بين يومين، يعني يوم مضى ويوم آت ، فاليومان يشملان اليـوم الماضي واليوم الآتي ، **ثم وضح ذلك بقوله** :

(يوم قد مضى أحصى فيه عمله) فبدأ بما مضى وهو اليوم الذي أحصي فيه العمل ، ليبين أن ما هو آت سيحصى فيه أيضا العمل ، فعلى كل نفس أن تنتبه ، وما دام اليوم الماضي أحصي فيه العمل ، فانتهز هذه الفرصة في اليـوم القادم لأنك لا تدري ماذا سيكون فيه ، لذلك قـال بعـده (ويـوم قـد بقـى لا يدرى ما يفعل فيه) .

ومن كلام الواعظين أيضا قولهم:(وقـد رأيـتم الليـل والنهـار كيـف يبليان كل جديد، ويقربان كل بعيد، ويأتيان بكـل موعـود) فقولـه في أول العظة : (وقد رأيتم الليل والنهار) من اللف حيث جمع الليل والنهـار دون توضيح ولا بيان ، ولو وقف المتكلم عليهما لما فهم من لفظهـما شيء ، حتـى قيل : (كيف يبليان كل جديد ، ويقربان كل بعيد ، ويأتيان بكل موعود).

ومن لطائف هذه الصورة البديعية ، أنك لا تستطيع أن تفصل في هذا النشر شيئا يعود إلى الليل ، وآخر يعود إلى النهار ، لأن المقصود بهما هنا هـو مطلق الزمن .

ومما ينسب إلى ابن القيم رحمه الله قوله : (إنما يؤتى الناس يوم القيامة **من إحدى ثلاث** :

- ❖ **إما من شبهة فى الدين ارتكبوها.**
- ❖ **أو شهوة للذة آثروها.**
- ❖ **أو عصبية لحمية أعملوها .**

فإذا لاحت لكم شبهة فاجلوها بـاليقين، وإذا عرضت لكم شهوة فاقمعوها بالزهد، واذا عنت لكم عصبية فادرؤوها بالعفو .

وراجع هذا الكلام لأنه من النفائس ، فلقد قدم للكلام بمقدمة فتحت طريق النفوس إلى استقبال ما يوعظ به

واللف والنشر على ثلاثة أقسام :

الأول :هو اللف والنشر المرتب ، وما سبق من شواهد داخل فيه ، ومن لطائف ما قيل فيه ، **أيضا قول الشاعر** :

يا ردفه يا خصره   من لي بنجد أو تهامه

والردف هو المؤخرة ، والعجز ، والخصر هو الوسط،وقوله (من لي) من أساليب التمني ، وكأنه يتمنى صعود نجد ، أو الهبوط مع انحدار تهامة وأنا أسألك : هل ترى صعوبة في إرجاع (نجد أو تهامة) إلى ما يناسب كل منها ؟ !!!!

ومثله قول ابن نباتة:

لـــه قلـــب ولي دمـــع عليـــه فهــــذا قاســـيون وذا يزيـــد

والشاعر هنا يتلاعب باللغة التي أعطتـه مسـاحة مـن الثقـة في ،فبـدأ أولا باللف **وهو قوله** :

له قلب ولي دمع ، كذا دون تحديد ماذا يريد بهذا ثم نشر مراده فقـال (فهذا قاسيون) ويقصد قاس ، لكنه جمع اللفظ جمـع مـذكر سـالم ، وكـان قلب حبيبته جماعة من الطغاة القاسين ، ثم زاد في غرابته فقال (وذا يزيـد) أي أن دمعي كلما زادت قسوتها زاد انهمالا .

وقد يزيد اللف والنشر فيكون بين ثلاثة وثلاثة كما قال الشاعر :

ومقرطق يغنـي النـديم بوجهـه عـن كاسـه المـلأى وعـن إبريقـه

فعـل المـدام ولونهـا ومـذاقها مـــن مقلتيـــه ووجنتيـــه وريقـــه

والمقرطق: لابس القرطق هو لباس إيراني مـزركش ، والـذي يعنينـي **هنا قوله في البيت الثاني** :

(فعل المدام ولونها ومذاقها) ، وهذه ثلاثة أشياء جاء الشـطر الثـاني بثلاثة أخرى على شاكلتها ، وكل لفظ يرجع إلى صاحبه ، فقولـه (مقلتيـه) ترجع إلى (المدام) وهو اسم من أسماء الخمر ويقصد في الصفاء ، ووجنتيـه ترجع إلى لونها ، وريقها يرجع إلى مذاقها ، وسأدعك في مثال هنا تعيد كـل لفظ إلى ما يناسبة ثقة بأنك تقوم بذلك ، **يقول ابن الرومي** :

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم في الحادثات إذا دجون نجوم

منها معالم للهدى ومصابح تجلو الدجى والأخريات رجوم

ومثله قول حميدة الأندلسية وهو:

ولما أبى الواشون إلا فراقنا وما لهم عندي وعندك من ثار

غزوناهم من ناظريك وأدمعي وأنفاسنا بالسيف والسيل والنار

وقد يزيد الأمر عددا فتجد الشاعر يورد عليك أربعة ألفاظ لتعيدها إلى أربعة سابقة **ومن ذلك :**

ثغر وخد ونهد واحمرار يد كالطلع والورد والرمان والبلح

الثاني : اللف والنشر غير المرتب :

وهذا القسم يشعرك بزيادة في الثقة التي منحها المتكلم للمخاطب وكأنه لفرط الثقة بعثر له الكلمات ، وخالف بين ترتيبها ، وهو يعلم أن ذلك لن يعجز المخاطب ، فالمخاطب قادر على إعادة كل لفظ إلى ما يناسبه حتى وإن تغايرت أماكن الألفاظ ، **ومن شواهد ذلك قول صفي الدين الحلي :**

وجدي حنيني أنيني فكرتي ولهي منهم إليهم عليهم فيهم بهم

(فالوجد عليهم) (والحنين إليهم) (والأنين فيهم) (والفكرة منهم) (والوله بهم) ، وهكذا ترى هذا اللون يحرك عقلك ، ويثير فكرك ويحركك بعد وداعة ، ويجعلك تشارك المتكلم في إنتاج المعاني ، وهذا

ما يسمى في النظريات البلاغية الحديثة (التداولية) حيث ترى اللغة توظف بين المتكلم والمتلقي ، وتجد اللفظ الواحد تتعدد معانيه بحسب كيفية توظيفه .

الجمع والتفريق والتقسيم

من المحسنات اللفظية التي تعنى بأسلوب العرض جمع الأشياء تحت حكم واحد ، وكذا التفريق ، وكذا الجمع مع التفريق والتقسيم ، وهذه كلها وسائل لعرض المعاني ، وطريقة من طرق الزينة التي يراد بها إيصال المعنى إلى القلوب ، فالمعاني كالطعام التي إن أحسن الطاهي عرضها كان الإقبال عليها شديدا ، والالتفاف حولها سريعا ، والمبادرة إلى تناولها حثيثا وكنز المعانى وضمها وجمعها في معقد واحد ، هو الذي يطلق عليه الجمع **فالجمع يعني** : ضم عدة معان في حكم واحد ، أو ربط مجموعة من الدلالات برباط واحد ، ووضعها تحت غطاء واحد ، وتسكينها تحت سقف واحد ، حتى ينظر إليها المتلقي جملة ، ويتناولها المتناول دفعة فلا يؤخذ شيء منها دون الآخر ، لأن بعضها مضموم في النفس إلى بعض واللغة تعبر عما في النفوس ، **وانظر مثلا إلى قول الله تعالى** :

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا .....﴾ [سورة الكهف:٤٦]

فالمال زينة ، والبنون زينة ، لكن الآية لا تريد منك أن تفرد كل واحد بالحكم ، بل تريد أن تضم الأول إلى الآخر لترى الزينة فيهما معا فجمعتهما

في رباط واحد ، وهو رباط الزينة ، وكأنها تقول إن حرص الإنسان عليهما جميعا ، ورغبة الإنسان فيهما معا ، ولا يحب الإنسان أن يكون له مال ويحرم الولد ، وكذا لا يحب أن يكون له ولد مع حرمانه من المال فالإنسان يحب الاثنين معا ، لأن كل واحد منهما منفردا يكون شقاء على صاحبه .

وكل من المال والبنين يعين الإنسان في الحياة، ويتفاخر بهما بين الناس ولكنهما لا يبقيان ، والذي يبقى هو العمل الصالح وسماه القرآن الكريم الباقيات الصالحات ، فهذه هي التي تبقى ، ولا حظ أن الآية ذكر فيها المال أولا لأنه الأساس في الزينة ، وبه يؤتى الزواج الذي يتبعه البنون ، فليس تقديم المال عفوا .

ومن الشواهد أيضا قوله تعالى أيضا :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ .... ﴾

[سورة البيِّنة:٦]

حيث جمعت الآية بين صنفين متغايرين ووضعتهما تحت مظلة واحدة وهي (في نار جهنم) وقس على ذلك آية الأحزاب رقم ٣٥ وما يشاكلها حيث ترى القرآن الكريم يجمع لك الأنواع المختلفة ويضعها في سلة واحدة ليرسم لك القرآن صورًا عديدة للجمع تحت حكم واحد .

ومن نماذج الشعر في باب الجمع قول الشاعر :-

إنّ الشّــباب والفــراغ والجــده   مفســـدة للمـــرء أى مفســـده

فالشاعر هنا يريد أن يعدد المفاسد ، وأن يجمعها جميعا ليراها كل ناظر **فوجدها مجموعة في ثلاثة أشياء :**

(الشباب) لما فيه من نزوة وتهور ونسيان العاقبة ، فـما زالـت الـنفس في مقتبل الحياة ، ثم (الفراغ) لما فيه من خلو النفس من المشاغل ، والنفس إذا خلت من المشاغل جرتها شهواتها إلى المبطلات ، ثـم (الجِـدة) بمعنـى الغنى وكثرة المال وحدث عن هذه ولا حـرج فالمـال ظهـر مـن لا ظهـر لـه وساعد مـن لا سـاعد لـه ، وهـذه الثلاثـة إذا اجتمعـت في إنسـان أهلكتـه لا محالة ، لذلك جمعها الشاعر تحت عنـوان (المفسـدة) لأن فلسـفة الجمـع هي ضم المتغايرات والإخبار عنها بحكم واحـد ، **ومـن ذلـك أيضـا قـول الشاعر :**

ثلاثــة تشرــق الــدّنيا ببهجتهــا   شمس الضّحى وأبو إسحق والقمر

حيث قدم الحكم أولا ، وهـو (ثلاثـة تشرـق الـدنيا ببهجتهـا) عـلى الأصناف المجموعة ، **وهي :**

(شمس الضحى وأبو إسحق والقمر) وهذا بخـلاف المعهـود لكنـه يحقق المراد وهو ضم الأصناف الثلاثة تحت حكم واحد ، سواء تقـدم هـذا الحكم أم تأخر .

التفريق

والتفريق يعني : إيقاع تباين بين أمرين في غرض من الأغراض فقصد المتكلم إيصال معنى الاختلاف بين أمرين إلى السامع ، وأن واحدا منهما يرقى فوق الآخر ، رغم أنهما من باب واحد ، لكن المتكلم يفرق بينهما ويقول لك ليس هذا كذاك ، إذن هناك قصد إلى وجود خلاف بين المتشابهين ، وعليك أيها السامع أن تتحقق من هذا الاختلاف ، **ومن نماذج هذا قول الشاعر :**

ما نوال الغمام وقت ربيع كنوال الأمير وقت سخاء

فنوال الأمير بدرة عين ونوال الغمام قطرة ماء

فهناك نوالان ، أو عطاءان : عطاء الغمام حين ينساب على الأرض ليسقي الإنسان والنبات ، وعطاء الأمير الذي يراه الشاعر ، ثم وضع الشاعر العطاءين في الميزان فرجح عنده عطاء الأمير ، كيف؟

يعلل الشاعر سبب الترجيح بأن نوال الأمير بدرة عين بمعنى عطاء البئر المملوء بالماء حين يؤخذ من أول الأمر ، وهذا يصور كثرة ما يؤخذ منه من ماء ، وحين تقيس هذا المأخوذ من البئر أولا بقطرة الماء يتضح لك سبب علو نوال الأمير على عطاء الغمام .

فإذا لم يقصد تفضيل جانب على آخر ، وارتقاء نوع على نوع لا يسمى تفريق بل يسمى تقسيم ، **والتقسيم هو :**

ذكر متعدّد، ثم إضافة ما لكلّ إليه على التّعيين ، فهناك طرفان ، وكل طرف له صفته ، ولا يريد المتكلم أن يرفع أحدهما على الآخر ، وهذا هو الفارق بين التقسيم والتفريق ، **ولاحظ مثلا قول الشاعر** :

ولا يقيم على ضيم يراد به ... إلّا الأذلّان عير الحي والوتد

هذا على الخسف مربوط برمّته ... وذا يشجّ فلا يرثى له أحد

فالشاعر هنا لا يفضل طرفا على طرف فكلاهما في الهم سواء فكلاهما ذليل ، هذا مربوط ، وهذا مشقوق ، هذا مخسوف به ،وذاك لا يرثي له أحد ، وليس مرادا هنا رفع عير الحي على الوتد ، أو تفضيل الوتد على عير الحي ، لذلك يسمى هذا التقسيم و أما إذا أريد تفضيل طرف على طرف فالأمر يعود إلى التفريق ، ووازن مثلا بين ما سبق **وبين قوله تعالى** :

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾

[سورة فاطر:١٩-٢٢]

حيث ترى التفضيل بارزا لطرف على طرف ،وترى البصير والنور والظل والأحياء السامعين ، كل ذلك مفضل على الآخرين .

الجمع مع التفريق

ويقصد بالجمع مع التفريق وجود معنى جامع بين طرفين ، لكن جهة الجمع مختلفة وضربوا لذلك **مثلا بقول الشاعر** :

فوجهك كالنّار فى ضوئها وقلبى كالنّار فى حرّها

فكلاهما كالنار ، الوجه والقلب ، لكن علاقة الوجه بالنار علاقة ضوء ولمعان ، وعلاقة القلب بالنار علاقة حرارة ولهيب متولد عن الحب الشديد ، فالشاعر هنا جمع القلب والوجه في معقد واحد وهو النار ، ثم فرق بين ارتباط كل منهما بالنار من حيث الضوء والحرارة ، وهذا فارق لطيف قل من ينتبه إليه .

الجمع مع التقسيم

أما الجمع مع التقسيم؛ فيعني الجمع بين متعدّد تحت حكم، ثم تقسيمه ، **ومن ذلك قول الشاعر** :

حتّى أقام على أرباض خرشنة تشقى به الرّوم والصّلبان والبيع

للسّبى ما نكحوا والقتل ما ولدوا والنّهب ما جمعوا، والنّار ما زرعوا

ولعلك لا حظت تشابها بين هذا وما ذكرناه في اللف والنشر ، ولكي لا يلتبس الأمر عليك فالعلم أن في اللف والنشر قصد إلى الضم أولا ، ثم الكشف ثانيا وهذا يقتضى أن يكون التقسيم أعم من اللف والنشر.

وانظر مثلا إلى قول المتنبى:

حتّى أقام على أرباض خرشنة   تشقى به الرّوم والصّلبان والبيع

للسّبى ما نكحوا والقتل ما ولدوا   والنّهب ما جمعوا والنّار مازرعوا

تجد الشاعر وهو يجمع لك المعنى أولا في قوله (الروم والصلبان والبيع) ثم يقسم هذا المعنى **فيقول** : للسبي ما نكحوا ، أي زوجاتهم والقتل ما ولدوا ، يعني أولادهم ، والنهب ما جمعوا ، يعني أموالهم ، والنار ما زرعوا ، **يعني** : محاصيلهم .

الجمع مع التقسيم والتفريق

وهذا يدخلك إلى ثلاثة مقاصد يريدها المتكلم حيث يجمع لك المعاني في كلمة عامة أولا ،ثم يذكر لك أقسامه ، ولا يغيب عنك في تقسيمه مقصد المخالفة ، والتباين التي تقف خلف التفريق ، **ومن ذلك قوله تعالى** :

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [سورة هود:١٠٥-١٠٨]

فالجمع تراه أولا في كلمة (النفس)في قوله: لا تكلم نفس إلا بإذنه فهي نكرة مسبوقة بنفي ، ثم جاء التفريق الذي ترى فيه تباينا ، وترقي نوع فوق نوع ، **وذلك في قوله** : (فمنهم شقي وسعيد) ثم يأتي الحديث عن

التقسيم **في قوله تعالى** :(فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا . الآية) .

العكس والتبديل

هذا فن من فنون البناء للكلام البديع ، حيث يُقدم في الكلام جزءٌ ثُم يؤخر ،أو يُقدم في الكلام جزءٌ ثُم يعكس، فتتبدل المواقع فيوضع ما قدم مؤخرا ، ويوضع ما آخر مقدما ، وانظر معي إلى المثال المشهور هذا : (عادات السادات سادات العادات)، وكذلك قولهم : (كلام الملوك ملوك الكلام) .

وهذا الفن يلفت الانتباه ، ويثير العقل ، ويرغمه على المراجعة ؛ لأن هناك خلطًا للأوراق ، ودمجًا للمعاني ، ووضعًا للكلمات في مواضع لم تألفها النفوس ، وكل ما يثير ويحرك النفس هو من جماليات اللغة وبديعها وتعريفه **كما جاء في كتب أهل العلم هو** :

(أن يقدّم فى الكلام أحد جزئيه ثم يؤخّر لنكتة)

أي أن هذا التقديم والتأخير يقصد منه معنى يتطلبه المقام ، فليس الأمر خبط عشواء ، بل هناك ولابد مقصد يرمي إليه المتكلم من وراء هذا البناء المتعاكس . **مثل قولهم** :

(جار الدار أحق بدار الجار)، وهو ما يطلق عليه (الجار أحق بالشفعة)، ومعناه إذا أراد أحد أن يبيع داره ، فأولى الناس بشرائها الجار .

ويقع على وجوه:

أبسطها وأولها : عكس طرفي الجملة الواحدة ، كقول بعضهم: (عادات السادات، سادات العادات) أو (كلام الملوك ملوك الكلام) فالمتكلم يحول المسند إلى مسند إليه ، والمسند إليه إلى مسند ، ليحكم بكل منهما على الآخر .

والنوع الثاني : يكون العكس في متعلقات الجملة ،وليس في أركانها مثل قوله تعالى :

﴿.....يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ .....﴾ [سورة يونس:٣١]

وفي الشعر ترى قول الشاعر:

فرد شعورهن السود بيضا ورد وجوههن البيض سودا

حيث عكس ، فقدم وأخر، بين متعلقي فعلين في جملتين.

وهناك نوع ثالث حيث يقع العكس بين لفظين في طرفي جملتين كما **في قوله تعالى:**

﴿.....هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ.....﴾ [سورة البقرة:١٨٧]

وراجع هذا (لباسٌ لكم .. لباسٌ لهن) ، **وكذلك في قوله** :

﴿....لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ....﴾ [سورة الممتحنة:١٠]

حصل التقابل والعكس، بأن كان أولاً لمذكر فصار لمؤنث، فالعكس والتبديل: أن يتقدم جزءٌ ثُم يُعكس ، ويُبدل ، ويُجعل في الجملة الأخرى

أو في نفس الجملة مقابلاً لما سبق، كما أن العكس والتبديل يكون للمعاني بحيث لا يشغلك اللفظ بقدر ما يشغلك المعنى ، **ومن ذلك قول أبى الطيّب:**

ولا مجد فى الدنيا لمن قلّ ماله ولا مال فى الدنيا لمن قلّ مجده

حيث حرك المجد والمال ، ليبدل كل منهما الآخر في مكانه .

وقد تجد في هذا الفن البنائي حدوث العكس بين قائلين ، فتجد الشاعر مثلا يقول البيت ، ويأخذه غيره فيعكس المعنى ،وهذا من ألطف صور العكس والتبديل، **ومثال ذلك قول الشاعر :**

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

حيث أخذ هذا المعنى شاعر آخر ، وعكسه فقال :

وربما فات بعض القوم أمرهم مع التأني وكان الحزم لو عجلوا

فالشاعر الأول امتدح التأني ، ويرى الزلل في العجلة ، وهذا هو الأقرب إلى العقل والشرع ، فمن تأنَّ أصاب ،أو كاد ، ومن عجل أخطأ أو كاد ، إلا أن الشاعر الآخر أخذ هذا المعنى وعكسه فامتدح التعجل وجعل فوات الفرص في التأني .

لزوم ما لا يلزم

هذا اللون له أسماء كثيرة ، منها :(الإعنات ، التضييق ، التشْديد التضمين) ، وهذه الأسماء الكثيرة توضح كيف يقيد المتكلم نفسه ، تماما كما يفعل صاحب النذر ، فيلزم نفسه بما لم يلزمه به الشرع ، وهذا نادر في اللسان العربي ، ولعل هذه الندرة سبب من أسباب جمال هذا اللون من البناء البديعي ، وهذا الفن مثله مثل كل فنون البديع لا يحسن إلا إذا خلا من التكلف ،وإن عدوه من إعنات الشاعر نفسه ، لكن لندرته حسن وجمل لأنه دليل على قوة الشاعر ، وبراعته في صنعة الشعر ، وأن عنانه لا حدود له ، وتجد شبيها لهذا في بعض آيات القرآن الكريم ، فيالكلمات المتوازنة **مثل قوله تعالى :**

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ (١٥) ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ (١٦)﴾ [سورة التكوير:١٥-١٦]

وكذا قوله تعالى:

﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ (١٨)﴾ [سورة الانشقاق:١٧-١٨]

وقوله : ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ (٩) وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ (١٠)﴾ [سورة الضُّحى:٩-١٠]

ولزوم ما لا يلزم ثلاثة أقسام:

١ - التزام الحركة وحدها : ومن ذلك قول ابن الرومي :-

لما تؤذن الدنيا بـه مـن صروفهـا يكون بكـاء الطفـل سـاعة يولَـدُ

و إلا فـما يبكيـه منهـا و إنهـا لأوسـع ممـا كـان فيـه و أرغَـدُ

إذا أبصرـ الـدنيا اسـتهلّ كأنـه بما سـوف يلقـى مـن أذاهـا يهـدَّدُ

فالشاعر هنا التزم حركة الفتح قبل حرف الروي ، وهـذا مجهـد جـدا لأنه يحتاج إلى ثروة لغوية فائقة ، حتى يختار من بينها ما يوافق قافيته .

٢ – التزام حرف واحد :

وهذا أيسر حالا من التزام الحركة ، ومنه قول الشاعر :-

عصاني قومي والرشاد الذي بـه أمرت ومن يعصِ المجـرب ينـدمِ

فصبرًا بني بكر على الموتِ إننـي أرى عارضًا ينهل بـالموت والـدمِ

٣ – التزام حرفين :

بحيث يأتي قبل حرف الروي بحرفي نيل تزمهما حتى آخـر القصـيدة **ومن ذلك قول الشاعر:**

سلِّم على قَطَـن إنْ كنـتَ نازِلـه سلام مـن كـان يهـوى مـرَّة قطنـا

ما منْ غريـبٍ وإن أبْـدى تَجلُّـده إلا تــذكَّر عنــد الغُربَــةِ الوَطنـا

فالتزم الطاء والنون . ومنه قول امرئ القيس وقد نظـر إلى قـبر امـرأة من بنات الروم بأنقرة ،**وهو يجود بنفسه فقال:**

أجارتنــا إن المــزار قريـــب وإني مقــيم مــا أقــام عســيب

أجارتنــا أنــا غريبــان ههنــا وكـل غريـب للغريـب نسـيب

٤ – التزام أكثر من حرفين:

وهذا يزيد في الصعوبة والعنت ، **ومثاله قول عبد الله بن الزبير يمـدحُ عمرو بن عثمان بن عفان:**

سأشْكُرُ عَمْرًا إنْ تراخت منيتـي أيـاديَ لمْ تُمْـنَن وإن هـي جلَّـت

فتًى غير محجوب الغنى عن صـديقه ولا مظهر الشكوى إذا النَّعل زلـت

رأى خلَّتي من حيـثُ يخفـى مكانُهـا فكانــت قــذى عينــه حتــى تجلَّــت

فالتزم اللام المشددة مع التـاء في القافيـة،ومن ذلـك قـول كثـير عـزة **في قصيدته :**

خلـيليَّ هـذا ربْـعُ عـزَّة فـاعقِلا قلوصيكما ثمَّ انظرا حيـث حلّـت

يقول الدكتور طه حسين عن هذه القصيدة :

" لا تـتردد في أن الشـاعر قـد تعمـد التـزام الـلام والتـاء، ولكنـكَ في الوقت نفسه لا تشعر بأن " كثيرًا" قد لقي في ذلك جهدا، أو احتمل فيـه عناء، وإنما يخيّل إليك أنه دعا الألفاظ فاستجابت له، وأهاب بها فأسرعـت إليه " ، وهناك مع كل هذا مـا يسـمى بــ (لزوميـات أبي العـلاء المعـري) وهو ديوان شعري جاء كله على هذه الطريقة ، يتحدى فيه معاصريه بآرائـه ويغمض القول جدا حتى أشكل على الناس فَهْمُ مـا يريـد ،حتـى قيـل إنـه ألفه لنفسه ، وليس للناس . **ومن شعره فيه :**

مَشَى الطاووسُ يوماً باعْوجـاجٍ فقلــدَ شــكلَ مَشــيتهِ بنــوهُ

فقـــال عـــلام تختـــالون قـــالوا　　بـــدأت بـــه ونحـــن مقلـــدوه

فخالف سيرك المعوج واعدل　　فإنـــا إن عـــدلت معـــدلوه

أمـــا تـــدري أبانـــا كـــلَّ فـــرع　　يجـــاري بـــالخطى مـــن أدبـــوه

وينشَـــأَ ناشـــئُ الفتيـــانِ منـــا　　عـــلى مـــا كـــان عـــوَّدَه أبـــوه

الاطـــراد

الاطراد، في اللغة : التتَابع والتسلسل وجريان الأمر على نسق وَاحِـد وفي اللغة يقال : اطرد النّهر بمعنى : تتَابع جَرَيَـان مَائـه ، **والعـرب تقـول** : اطرد الماء ، وتريد أنه يجرى من غير توقف .

والاطـراد في اصـطلاح فـن البـديع : أن يـذكر الشـاعر عـدة أسـماء في بيت واحد على الترتيب بسهولة دون تكلف ، ويكون ذكر الأسماء سهلا جاريا كجريان الماء في النسيج الشعري فلا يشعر القارئ بغرابة ولا صـعوبة عنـد تتـابع الأسـماء عـلى أذنـه. وهنـاك فـرق بـين الاطـراد والاسـتطراد **فالاستطراد هو** : الخروج من غرض إلى آخر لمناسبة بينهما ، أما الاطراد فكما علمت ذكر الأسماء في البيت أو الفقرة على الترتيب بسهولة ودون توقف .

فالمقصد مـن الاطـراد تتـابع الأسـماء في المـدح أو الـذم دون تكلـف ولا تعسف ، بحيث يشبه تتابعها تتابع الماء وانحـداره ، وهـذا إن دل فـإنما يدل على قوة عارضة الشاعر ، وامتلاكه لأدوات الشعر ، والشاعر حين

يسبك الأسماء في بيت شعر ، إنما يستعيض عن المعاني بالأسماء لأنه يحمل الأسماء مراده من البيت ، فإن كان في مدح أشعرك وهو يذكر الأسماء أن كل اسم علم من أعلام الفخر ، ويكفي أن تسمع الاسم ليدلك على المعنى والسياق في ذلك هو الحكم **ومن ذلك قول الأعشى** :-

أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد وأنت الذي ترجو حباءك وائل

فكل اسم من هذه الأسماء باب من أبواب الرجاء للناس ، ولا شك أن سبك هذه الأسماء في بيت واحد قدرة من الشاعر ، وحسن اختيار للبحر الشعري الذي يجمعها دون تنافر ، في أول البيت أو آخره ، **وانظر أيضا إلى قول دريد بن الصمة** :-

قتلنا بعبد الله خير لداته ذؤاب بن أسماء بن زيد بن قارب

وكيف استطاع الشاعر أن يضع هذه السلسلة في آخر البيت حتى قال عبد الملك بن مروان لما سمع هذا البيت: لولا القافية لبلغ به آدم.

وقال أبو تمام:

عبد المليك بن صالح بن علي بن قسيم النبي في نسبه

والأذن لم تعهد أن ترى الأسماء مسبوكة هذا السبك ، ولا منظومة هذا النظم ، والشاعر المجيد هو الذي يلتفت إلى ما لا يلتفت إليه الناس فينظم ما لا ينظمون ،ويسلك ما لا يسلكون ، وكل طريق يتوخاه الشاعر

تكون فيه جدة يرقى به الشاعر إلى درجات المجيدين ، ومن أعسر الطرق التي لا تسلك طريق نظم الأسماء في السلك الشعري ..

وقد يلجأ الشاعر في نظم هذه الأسماء إلى وضع كلمة بعد اسم من الأسماء لتسلس له وتخضع للنظم الشعري ، **كما فعل ابن أبى الإصبع حيث قال:**

من يكن رام حاجة بعدت عنه وأعيت عليه كلّ العياء

فلها أحمد المرجّى ابن يحيى بن معاذ بن مسلم بن رجاء

وراجع كلمة (المرجى) وقد سدت ثغرة الشعر ، وجعلت الاسم ينسجم مع الوزن انسجاما لا مزيد عليه .أما إذا كان الاسم لا يحتاج إلى هذه التكملة فيكون أحسن كما جاء عند الشيخ مجد الدين بن الظّهير الحنفيّ **حيث كتب على إجازته :**

أجاز ما قد سألوا بشرط أهل السّند

محمد بن أحمد بن عمر بن أحمد

فلا تجد في البيت الثاني شيئا إلا الأسماء .

لكن الشعر الذي تجري فيه عروق الذهب وترى فيه الاسماء كأنها نجوم لوامع فمثاله ما ذكره عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز حيث **قال** : عن بعضهم أنه قال: رآني البحتري ومعي دفتر شعر فقال: ما هذا؟

فقلت:شعر الشّنفرى.

فقال: وإلى أين تمضي؟

فقلت: إلى أبي العباس أقرؤه عليه.

فقال: قد رأيت أبا عبّاسكم هذا منذ أيام عند ابن ثوابة فما رأيته ناقدا للشعر ولا مميّزا للألفاظ، ورأيته يستجيد شيئا وينشده، وما هو بأفضل الشعر.

فقلت له: أمّا نقده وتمييزه فهذه صناعة أخرى، ولكنه أعرف الناس بإعرابه وغريبه، فما كان ينشد؟

قال قول الحارث بن وعلة:

قومي هم قتلوا أميم، أخي فإذا رميت يصيبني سهمي

فلئن عفوت لأعفون جللا، ولئن سطوت لأوهنن عظمي

فقلت: والله ما أنشد إلّا أحسن شعر في أحسن معنى ولفظ.

فقال: أين الشعر الّذي فيه عروق الذهب؟ فقلت: مثل ماذا؟

فقال: **مثل قول أبي ذؤاب:**

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم بعتيبة بن الحارث بن شهاب

بأشدّهم كلبا على أعدائه وأعزّهم فقدا على الأصحاب [1]

وحاول أن تردد على لسانك هذا الشطر من البيت : بعتيبة بن الحارث بن شهاب ،وفتش ، أين عروق الذهب التي تحدث عنها الشاعر ؟ ستجد

١ - دلائل الإعجاز تحقيق هنداوي ص ١٦٨.

أن الشاعر اكتفى بالاسم لأن كل واحد من الثلاثة سيد في عشيرته ، فكأنه **قال** :

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم بسيد ابن سيد ابن سيد ، أو بكريم ابن كريم ابن كريم ، أو بشريف ابن شريف ابن شريف ، فكلهم سادات وكلهم أعلام ، وكلهم سادة . وهكذا تجد للاسم مذاقا لا تراه لغيره من الكلمات شريطة أن يحسن الشاعر استخدامه .

واشترط بعض أهل العلم أن يجمع الشاعر مع الاسم اللقب والكنية والوصف المشهور لديه ،لأن المقصود عنده زيادة التعريف ، وهذا ما قاله الشيخ صفي الدين ، **حيث نقل في شرح بديعيته:**

أن الاطراد عبارة عن اسم الممدوح ولقبه وكنيته وصفته اللائقة به واسم من أمكن من أبيه وجده وقبيلته، ليزداد الممدوح تعريفًا ، وشرط أن يكون ذلك في بيت واحد من غير تعسف ولا تكلف ولا انقطاع بألفاظ أجنبية ، **وأورد على ذلك قول بعضهم:**

مؤيد الدين أبو جعفر محمد بن العلقمي الوزير

فتجد في البيت الواحد الاسم واللقب والكنية والصفة الملائمة له ولعمري إن غياب المقصد هو الذي جعل الشيخ يظن هذا ، والذي أراه أن جمع هذه الأسماء لا يقصد من ورائها التعريف ، ولو قصد التعريف لكان

قدحا له لا مدحا ، إنما أراد أن هذا الاسم من الظهور والجلاء ما لا مزيد عليه ، لذلك استغنى به عن المعاني الأخرى .

ولا يجوز كما أن أدخل الكلام المنثور هنا ، لأن المقصد من هذا الفن هو سبك الأسماء في دائرة وبحور الشعر ،وعليه فقولهم في حديث النبي ﷺ :الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف ابن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ، أنه من باب الاطراد لا يصح لأن الاطراد سبك الأسماء في البحر الشعري ، والمعهود في الأسماء أنها لا تتواءم مع البحور الشعرية إلا ما ندر ، وتحتاج من الشاعر إلى حذق ولقانية ، وقدرة على سبك الاسم في البحر الشعري

يقول الصاحب بن عباد رحمه الله تعالى: (لم نزل مستحسنين لجمع الأسامي في الشعر)، **وكان أبو تمام كثيرًا ما يستعمل هذا النوع في شعره فمنه قوله:**

لمحمد بن الهيثم بن شبانة ... مجد إلى حيث السماك مقيم

وقوله:

عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب ... **بن سعد سهمكم لا يسهم**

وقول سراج الدين عمر الوراق:

فله الجمال غدا بغير منازع ... ولي الجوى فيه بغير قسيم

وكذا العلى لمحمد بن محمد ... بن علي بن محمد بن سليم

وقول الأديب أبي الحكم مالك بن المرحل في أبي عبد الله بن يربوع:

صحبت عمري ناسا من ذوي حسب حازوا الثناء بموروث ومطبوع

فلم أجد فاضلا فيما صحبت سوى محمد بن أبي العيش بن يربوع

وقول بعض شعراء المغرب في إدريس بن حمود خليفة الأندلس:

وكأن الشمس لما أشرقت فانثنت عنها عيون الناظرين

وجه إدريس بن يحيى بن علي بن حمود أمير المؤمنين

الإدماج

أن توصل مرادك إلى المخاطب تلك غاية الكلام ، أما أن تزيد على المراد شيئا فهذه الزيادة تعد من الإضافات التي إن استلزمها الكلام وحسن موقعها حسنت وملحت ، وصارت من فنون البديع الذي يشار إليه بالبنان ويوجه إليه كل بليغ ، أما إن كانت الزيادة ثقيلة ثقل الضيف الذي جاء على غير استعداد ، والبيت مشغول ، وفيه من الهم ما فيه فإن هذه الزيادة تقبح ويفسد بها المعنى ، وتراها مثل الرقعة السوداء التي التصقت بالثوب الأبيض ؛ لذلك ينبغي التنبيه على أن زيادة الكلام على أصل المراد لابد أن تكون لنكتة بلاغية ، ويحسن اللجوء إليها من أجل السياق .

ومن **فنون الإضافات** التي يحتال المتكلم لوضعها داخل الكلام فن يسمى (الإدماج) **وهو في اللغة:**

يدل على" الانطواء والستر ، يقال : أدمجت الحبل : إذا أدرجته وأحكمت فتله، وفي الاصطلاح: " أن يُضَمَّن كلام سيق لمعنى معنى آخر لم يصرح به " أو هو أن يريد المتكلم معنى فيدخل فيه آخر عرضًا ، **وذكر أهل البلاغة له تعريفا ثالثا وهو** :

(أن يدمج المتكلم غرضاً له في ضمن معنى قد نحاه من جملة المعاني ليوهم السامع أنه لم يقصده ، وإنما عرض في كلامه لتتمة معناه الذي قصد إليه) .

وهذا تعريف طويل ينبغي اختصاره فيم ذكرته أولا ، ومن نماذج الإدماج ، **قول الشاعر لأحد الوزراء** :

أبي دهرنا إسعافنا في نفوسنا وأسعفنا فيمن نحب ونكرم

فقلت له : نعماك فيهم أتمها ودع أمرنا إن المهم المقدم

فالشاعر هنا يريد العطاء ، لكن كيف عرض هذا الطلب ؟ لقد ذكر في البداية أن الزمان أبى أن يغنيه ، وهذه شكوى من الزمان ، لكنه أتبعها بأن هذا الزمان أسعفه وأغناه بإغناء الممدوح فأدمج شكواه في شكوى الزمان، وشرح ما هو عليه من الاختلال في ضمن التهنئة ، وتلطف

في المسألة ، ودقق التحليل لبلوغ الغرض، مع صيانة نفسه عن التصريح بالسؤال ، وحمايته من الإذلال.

فأنت ترى إدخال معنى غير مصرح به في كلام له معنى مستقل " والمعنى المدموج يجب ألا يكون مصرحاً به ولا يكون في الكلام إشعار بأنه مسوق لأجله ، وإلا لم يكن ذلك من الإدماج "**ولاحظ هذا في قول الشاعر :**

وليل طويل لم أنم فيه لحظة أعد ذنوب الدهر وهو مديد

فإنه قصد إلى التعبير عن طول الليل ، وأدخل ذنوب الدهر وتعدادها في هذا المقصد .

وفي آية الدين من سورة البقرة ذكر الطيبي أن في قوله تعالى :-

﴿ ..... وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ..... ﴾ [سورة البقرة:٢٨٢]

إدماج ويقول إن هذه الجملة مسوقة لمعنى ، ومدمج فيها آخر بإشارة النص ، وهو اشتراط الفقاهة في الكاتب؛ لأنه لا يقدر على التسوية في الأمور الخطرة ، إلا من كان فقيهاً " ولذلك جاز تعلق الجار والمجرور " بالعدل " بكلٍ من الفعل والفاعل ، أعني: يجوز تعلقه بالفعل" يكتب " ويجوز تعلقه بالفاعل " كاتب ".

فإذا قدرنا تعلقه بالفعل " يكتب " يكون المعنى المدمج هو: وليكتب بينكم كاتب كتابة عادلة ، تكون محل ثقة من أهل الاختصاص عند التنازع؛

بحيث تخلو من الثغرات التي تمكن أحدهما من المراوغة ، أو الانفكاك مما في ذمته؛ فالعدل هنا ناتج عن موافقة الكتابة للشروط الواجب توافرها لضمان الحقوق؛ فهي صفة للكتابة. وقد يكون الجار والمجرور متعلقاً بالفاعل " **كاتب** " فيكون المعنى المدمج هو: وليكتب بينكم كاتب مشهور بالفقه والعدل وعدم الميل إلى هذا أو ذاك ، وهذا يعرف من خلال كتاباته السابقة بين الناس؛ " فالأصل ألا يكتب الوثيقة إلا العدل في نفسه ، وقد يكتبها الصبي والعبد، إذا أقاموا فقهها ، أما المنتصبون لكتبها؛ فلا يجوز للولاة أن يتركوهم إلا عدولاً مرضيين ، **قال مالك –رحمه الله تعالى:**

" لا يكتب الوثائق بين الناس إلا عارف بها ، عدلٌ في نفسه ، مأمون؛ **لقوله تعالى:**

﴿.....وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ.....﴾ [سورة البقرة:٢٨٢]

وعلى هذا فالجار والمجرور في موضع الصفة للكاتب " "ففقه الكاتب ، ومعرفته بأنواع الوثائق معنى مدمج في الجملة، مقصود منها في النهاية.

التكميل والتتميم

من فنون البناء البديعي فن التكميل ، ويعني في اصطلاح البلاغيين : أن يكون بعد تمام المعنى معنى آخر يكمله ، فيحول المعنى من حالة التمام إلى حالة الكمال ،**ومن ذلك قوله تعالى** :

﴿ . . . .فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ . . . . ﴾

[سورة المائدة:٥٤]

فالصفة الأولى للقوم أنهم يحبون الله تعالى ويحبونه ، وهـذا معنـى تـام ثم زيد على ذلك معنى آخر وهو " أذلة على المؤمنين أعزة عـلى الكـافرين " فأضيف إلى المدح مدح آخر ، فتحول الأمر من حالة التمام إلى حالة الكمال .

ومثاله، في الشعر، **قول كعب بن سعيد الغنوي:**

حلـيم إذا مـا الحلـم زيّـن أهلـه مع الحلـم في عـين العـدو مهيـب

فالصفة الأولى التي تم بها المعنى هي الحلـم ، وكمـل المعنـى بصـفة المهيب ، ولولا الهيبة لكان الحلم ناقصا ، لأنه يكون في بعض الأوقات عـن ضعف ، فاحترس بالهيبة عن النقص في فهم الحلم .

ومما يؤيد هذا التقرير قول الشاعر:

وحلـم ذي العجـز أنـت عارفـه والحلم عن قدرة ضرب مـن الكـرم

ومن التكميل الحسن قول كثير عزة:

لو أن عزة خاصمت شـمس الضـحى في الحسن عنـد موفـق لقضىـ لهـا

فقوله: عند موفق تكميل ، لأن المنافسة التـي تتفـوق فيهـا تحتـاج إلى حاكم موفق ، وقاض عادل ، لا تأخذه في الله لومة لائـم ، فـإذا وجـد هـذا القاض فلا شك أنـه سقضيـ لهـا بالحسـن ، عـلى شـمس الضـحى ، وكـم في الشعر من عجائب ؟ !!

فروق لا بد من توضيحها :

يخلط بعض أهل العلم بين التتميم والتكميل، ولاختصار الفرق أقول ، إن التمام ما يتحمل الزيادة ، أما الكمال فلا زيادة عليه ، **ولو راجعت قول الله تعالى :**

﴿ .. ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا .... ﴾

[سورة المائدة:٣]

لوجدت أن لفظ الكمال جيء به مع الدين ، لأن الزيادة في الدين بدعة ، فالدين لا يزاد عليه لأن الله تعالى أكمله ، أما النعمة فمهما زادت في الدنيا فمن الممكن الإضافة إليها والزيادة عليها ، ولن تكمل إلا بالجنة بالنظر إلى وجه ربنا تبارك وتعالى ، ولهذا أقول : التمام مع النعمة لأنها ناقصة مهما زدتها في الدنيا ، والكمال مع الدين لأنه لا يزاد عليه ، وأنا أعرض عليك الآن نماذج من التكميل حيث يتم المعنى ثم ترى الشاعر يضيف إليه معنى آخر ليكمل به ، **ومن ذلك قول الشيخ جمال الدين بن نباتة :**

نفس عن الحب ما حادت ولا غفلت   بأي ذنب وقاك الله قد قتلت

فقوله – وقاك الله –تكميل – للمعنى التام ومثله قول الشاعر :

جردت سيف اللحظ عند تهددي   يا قاتلي فسلبتني بمجرد

وأردت أن تسقى بماء حشاشتي   حاشاك ما يسقي الصقيل من الصدى

ومثله قول الشاعر:

أذابت القلب في نـار الهـوى عبثًـا   ومـذ سـلبته وقالـت إنـه قـالي

إن المتكلم يرى بعض عرض المعنى أنه يحتاج إلى زيادة فيكمله بمعنى آخر وسواء وقع التكميل في وسط الكلام أو في آخره فإن الحسن يكمن في تلك الإضافة التي يستعذبها المتلقي حين يسمع المعنى الآخر ،ومن الفروق أيضا أعرض لك ما يتماس مع التكميل ، الاعتراض حيث يختلف عن التكميل لأن الاعتراض يكون بمعنى فضلة ، كما أنه يكون بجملة لا محل لها من الإعراب .

أما التذييل: فالغرض منه التأكيد ، ويجري مجرى المثل ولا يكون بين كلامين متصلين .

الاستتباع

من فنون العرض فن الاستتباع : وهو مصطلح على وزن الاستفعال من التتبع ، تقول تتبعت الأثر واقتفيته بمعنى سرت عليه حتى تصل إلى نهايته .

وتعريفه في الاصطلاح : (هو أن يذكر المتكل غرضا من الأغراض فيستتبع الغرضُ غرضا آخر من جنسه لنكتة).

وهذا يعني أن الكلام ألجأ المتكلم إلى ذكر شيء لم يكن في نيته ذكره من البداية ، ولكن الكلام جر بعضه بعضا ، وألجأ بعضه إلى بعض ، وهذا من الإطناب الحسن مادام هناك غاية وهدف من الكلام ، **ومن ذلك قول أبي الطيب المتنبي:**

نهبت من الأعمار ما لو حويته لهنئت الدنيا بأنك خالد

والنهب هو الأخذ قصرا ، والاستيلاء على الشيء بالغصب والقوة ومعنى (نهبت من الأعمار) أي انه قتل من أعدائه جمعا لا حد له ، ولا عدد له وهذا مدح بالشجاعة، على وجه استتبع مدحه بكونه سببًا لإصلاح الدنيا، لأنه إذا ضم أعمار من قتلهم إلى عمره لكتب له الخلود ، وهنا نسأل الدنيا ، وهذا معنى آخر ، وشيء آخر غير قتله لأعدائه ، المعنى الآخر هو فرحة الدنيا بخلوده ، وسعادتها ببقائه.

ولا تنس بعد هذا أنه نهب الأعمار وليس الأموال، وأنه لم يكـن ظالمـا في قتل من قتلهم ؛ لأنه لم يقصد إلا الإصلاح ،لذلك كانت الدنيا مسرورة ببقائه.

ومن أجمل ما تراه في الاستتباع قول أبي بكر الخوارزمي:

سمح البديهة ليس يمسك لفظه فكـــأنما ألفاظـــه مـــن مالـــه

وكـــأنما عزماتـــه وســـيوفه مـن حـدهن خلقـن مـن إقبالـه

متبســم في الخطــب تحســب أنــه تحــت العجــاج ملــثم بفعالــه

والشاهد في البيت الأول ، ومعنى (سمح البديهة) أنه يجيب عن كـل كلام مرتجلا دون تفكير، وتكون إجابته بأجمل ما يقال ، وأحسن ما يقابل به المخاطب ، فكلمه سمع كلاما أجاب مبـاشرة دون حبسـة ، أو مـدة زمنيـة أو تفكير ، ولو تفحصت ما قاله ارتجالا لوجدته لا مزيد عليـه ، ثـم عقـب الشاعر بجملة تؤكد هذا المعنى فقـال (لـيس يمسـك لفظـه) لاحـظ هـذا فهو لا يرى في لفظه خللا حتى يحجبه ، بل هو يعلم أن مـا يقولـه لايحسـن غيره ، فيدع للسانه ما يقول دون تفكر فيه ، وهذه كلها دليـل اقتـدار وثقـة وحسن ظن بالنفس.. . إلخ .

لكن هذه المعاني ذكـرت الشـاعر بشيـء آخـر لا علاقـة لـه بـالكلام وحسن الكلام وإرسال الكلام دون تحكم ، هذا الشيـء الآخـر هـو الجـود والكرم ، فإرسال الشاعر للفظه دون نظر ، ودون تحكم ذكره بإرسال المال

دون نظر ودون تحكم ، فهو لا ينظر كم أنفق ، ولا يعد كم أخرج ولا يتابع من أخذ منه وكم أخذ ، إنه لا يتحكم في ماله كما لا يتحكم في لفظه ، وليس هذا عن سوء ومذمة ، بل عن فصاحة وجود .

المهم أن تعرف أن الوصف إذا جرك إلى وصف آخر ، ورغبك في الدخول على باب آخر من المعاني سواء كان في المدح أو الذم ، أو معنى آخر من المعاني ، **فإن هذا يسمى في عرف البلاغيين** :

(الاستتباع) والفرق بين هذا النوع وبين التكميل، إن التكميل يكمل ما وصف به أولا، والاستتباع لا يلزم به ذلك.

المـــزاوجة

فن المزاوجـة أحـد فنـون بنـاء الكـلام لأنـه طريقـة خاصـة في بنـاء الأسلوب ، ولفظة المزاوجة عـلى وزن المفاعلـة ، حيـث يبنـى الكـلام عـلى طرفين ، ويوضع في طرف شيء يوضع مثلـه في الطـرف الآخـر ، والكلمـة مشتقة من الزوج وهو القرين ، والشـبيه ، فـازدواج الكـلام يعنـي اقترانـه وتشابهه ، يقال : تزاوج الكلام : بمعنى : أشبه بعضه بعضا ، وتعلق بعضـه ببعض ، إما في السجع أو الوزن ، **والمزاوجة في اصطلاح علم البديع تعني**:

أن تجعل معنيين واقعين في الشرـط والجـزاء مـزدوجين ، بـأن ترتـب على كل منهما معنى رتب على الآخر.

وأشهر الأمثلة التي يستشهد بها قول البحـتري يشـكو هجـر حبيبتـه سعاد له :

إذا ما نهى النـاهي فلـج بي الهـوى أصاخت إلى الواشي فلج بها الهجـر

وراجع البيت وانتبه إلى الفعـل (لـجّ) لأنـه هـو الـذي ترتـب عـلى الشرط والجزاء ، وهو الذي روعي بناء الكلام عليه ، وهو الذي عقـد بـين الشرط والجزاء هذه الصلة .

والمعنى:إذا نهاني الناهي عن حبها لجّ بي الهوى ، وحين يحدث هـذا : أصاخت هي إلى الواشي (أي: استمعت إليه) فلج بها الهجر ، وأصل الجملة

الشرطية : إذا نهى الناهي أصاخت إلى الواشي ، لكن الشاعر رتب على الشرط ، وعلى الجزاء لجاجا ، فهناك لجاج مترتب على نهي الناهي له عن حبها، ولجاج مترتب على إنصاتها إلى الواشي ،واللجاج الأول يزيد في هواه واللجاج الآخر يزيد في هجرها .

ووجه الحسن هنا في هذا الأسلوب يكمن في قدرة الشاعر على الإمساك بمعاقد الشرط والجزاء ، وربط الطرفين بمعنى واحد وهو اللجاج و هذا اللجاج له في الشكل صورة واحدة لكنه في حقيقته رباط يباعد بين الطرفين ، فأصل الكلام إذا ما نهى الناهي أصاخت إليه فالناهي عن حبها هو هو الواشي المتربص بهما ، وفعل هذا الناهي له عند الشاعر مردود يختلف عن مردوده عندها ، ففعل الناهي يترتب عليه زيادة الحب عنده ، في حين يترتب عليه هجران وبعاد عندها ، وهذا من بدائع التهالك الممدوح في العشق ، أن يظهر الشاعر هيامه بمحبوبه ، وانغماسه في هذا الحب مع نهي الناهين ، في الوقت الذي يزداد فيه محبوبه إعراضا وهجرا .

ومن بدائع المزاوجة أيضا قول البحتري من قصيدة يمدح بها المتوكل ويصف فرسان حرب ثائرة للأخذ بالثأر من ذوي قرباها:

إذا احتربت يوما ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها

والاحتراب: شدة الحرب ، لأنه افتعال منها ، والشاعر يصور صورة التناقض في الحرب الدائرة بين فرسان تأخذ بثأرها من ذوي القربى فالحرب تولد نشوة بالقتل ، وفرحا بالنصر ، وغبطة بالتنكيل ، ولكن حين تعلم أن هذا القتل والتنكيل كان من ذوي القربى ، رأيت الصورة تختلف ورأيت الحرب حربين ، حرب يؤججها دافع الثأر والانتقام من القتلة وحرب أخرى مضادة تطفيء لهيب الحرب الأولى ، لأنها حرب نفسية داخلية ، تذكر الفرسان بحرمة الأهل والعشيرة ، وأنك حين تقتل هؤلاء تقتل نفسك ، ومن هنا كانت قيمة المزاوجة في تصوير هاتين المعركتين فالشاعر رتب على الحرب الأولى فيض الدماء ، وهو فيض محمود إلا هنا ورتب على الحرب الأخرى فيض الدموع ، **وهذا يذكرني بقول الآخر** :

قومي همو قتلوا أميم أخي ... فإذا رميت يصيبني سهمي

فلإن عفوت لأعفون جللا ... ولئن سطوت لأوهنن عظمي

ومن نماذج المزاوجة أيضا قول الشاعر :

إذا ما بدت فازداد منها جمالها ... نظرت إليها فازداد مني غرامها

وأصل الجملة الشرطية هو : إذا ما بدت نظرت إليها ، ثم ربط الشاعر بين هذين الركنين ، فرتب على الشرط والجزاء فعلاً واحدًا هو (ازداد) لكن الزيادة المترتبة على بدوها زيادة الجمال ، والزيادة المترتبة على النظر إليها زيادة الغرام ، فكأنه فرع عن الزيادة الرابطة بين الشرط والجزء

معنيين مختلفين ، **ولك أن تتصور هذه الخريطة الذهنية التي تجمع أولا بين الشرط والجزاء :**

إذا ما بدت نظرت إليها ، ثم ترتيب زيادة الجمال على جملة الشرط فيصير المعنى : إذا ما بدت ازداد منها جمالها .

وترتيب زيادة الغرام على جملة الجزاء فيصير المعنى : إذا نظرت إليها ازداد مني غرامها ، وهذه الخيوط مربوطة بأداة الشرط (إذا) واللون البديعي المزاوجه ، لأن هاتين الوسيلتين تعاونتا في تزاوج هذه المعاني وربط بعضها ببعض حتى تخرج إلينا هذه اللوحة البديعة .

وقد تجد الشاعر يزاوج بدون شرط، ويربط بين المعاني ويزاوج بينها دون هذه الوسيلة، وإن كان الكلام يحمل في رحمه ترتيب شيء على شيء وحاول أن تراجع معي **قول الشاعر** :

أجد الملامة في هواك لذيذة　　　حبا لذكرك فليلمني اللوم

ورتب معي هذا الكلام ؛ لأن موهبة الشاعر صاغته بحرفية عالية لكنه في الأصل شرط وجزاء ، ثم مزاوجة بين الشرط والجزاء ، **فالمعنى في أصله :**

إذا ذكرت هواك فلاموني تلذذت بذكرك فليلمني من يلوم

ولك أن ترتب ترتيبا آخر ، لكن الذي لن نختلف عليه أن هناك خيوطا استطاع الشاعر أن يربط بينها ، ويرتب بعضها على بعض ، فهناك

حب ترتب عليه ذكر ، ونشأ عن الذكر لذة ، مما ترتب عليه لوم اللائمين فزادت اللذة بلومهم ، فرغب في زيادة اللوم ، وهذه كلها خيوط ، ومعاقد لا يحسن ربطها ، وجمع رءوسها إلا موهبة الشاعر التي ألفت بين هذه الخيوط وصنعت منها هذه القطعة الرائعة من النسيج **فقال** :

أجد الملامة في هواك لذيذة حبا لذكرك فليلمني اللوم

ولقد أشار بعضهم إلى أن هذه المزاوجة لها نظير في القرآن الكريم **وذلك في قوله تعالى** :

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ ﴾ [سورة الأعراف:١٧٥]

لا حظ أن ترتيب المعاني هنا ليس مرتبطا بالشرط والجزاء في الصورة الظاهرة ، لكن الكلام يحمل في جعبته معنى الشرط والجزاء لأن الآية كأنها تحذر وتنفر كل من كان على هذه الشاكلة ، وتحذر كل من يسمع هذه الآية وتقول له : من آتيناه آياتنا فانسلخ منها أتبعه الشيطان فكان من الغاويين .

هكذا أفهم الآية ، لأن الأمر بتلاوة هذا النبأ على الناس لا يفهم منه إلا التحذير ، وكأنه قيل ، اسمعوا هذا واحذروا أن تكونوا مثله ، فمن آتيناه آياتنا فانسلخ منها أتبعه الشيطان فكان من الغاويين ، والمعنى المترتب على الشرط والجزاء مختلف في مظهره ، ولكنه متحد في مخبره

لأن الانسلاخ من الآيات المترتب على إعطائها لـه يشـبه في مضـمونه تخلي يد العناية عنه ، وتركه فريسة للشيطان دون حماية ، وقد عبر عـن ذلـك بقوله (فكان من الغاوين) فالكلام يشبه إلى حد كبير صورة المزاوجة.

الاستطراد

الاستطراد في اللغة، مصـدر اسـتطرد ، والكلمـة مـأخوذة مـن مـادة (الطاء ، والراء ، والدال) ، وهي مادة تعني الإبعـاد والإخـراج ، فيقـال: اطرد الشيء اطرادا، إذا تابع بعضه بعضـا، كـأن الأول يطـرد الثـاني ، وهـو في البلاغة فن من فنون بناء الكلام **ويعني في اصطلاح البلاغيين** :

الخروج من غرض إلى آخر لمناسبة بينهما .

بمعنى أن يكون المتكلم في غرض من الأغـراض، ثـم يخـرج منـه إلى غرض آخر لوجود مناسبة بين الغرضين، ثم يرجع إلى الأول ويقطع الكلام فـإن تمـادى في الغـرض الثـاني فـإن ذلـك يسـمى : الخـروج، وإن عـاد إلى غرضه الأول فإنه الاستطراد .وعليه فإنك تستطيع أن تضع هنا شروطـا أو ضوابط للاستطراد ، **وهي** :

- ❖ **أن يكون في غرض ثم يخرج منه .**
- ❖ **ومنها الرجوع إلى الكلام الأول.**

❖ **ومنها أن يكون هناك مناسبة بين الغرضين .**

❖ **ومنها قطع الكلام بعد المستطرد به فيكون آخراً**

وقد يكون ذكر الكلام الأول تكأة للوصول إلى الكلام الثاني وخروج من معنى إلى معنى ، والوسائل المعينة على هذا الخروج كثيرة فمنها التشبيه ، ومنها الشرط، ومنها الإخبار، ويأتي الاستطراد في جميع الأغراض ، لكنه يكثر في الهجاء والمدح ، ومن نماذج الاستطراد في كلام ربنا سبحانه وتعالى **قوله** :

﴿.... أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [سورة هود:٩٥]

والحديث عن قوم هود ، وتكذيبهم ، وتسليط العذاب عليهم ذكر من قبل في السورة ، **حيث قيل** :

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [سورة هود:٦٧-٦٨]

ثم انتقل الحديث إلى شأن قوم سيدنا إبراهيم فقيل :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى .... ﴾ [سورة هود:٦٩]

ثم انتقل الحديث إلى شأن قوم لوط :

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ....﴾ [سورة هود:٧٧]

ثم انتقل الحديث إلى شأن مدين حيث أرسل إليهم سيدنا شعيب حيث قيل :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ .... ﴾

[سورة هود:٨٤]

ولما نتهى الحديث عنهم وذكر عذابهم وأنهم مبعودون ، رجع وذكر أن بعدهم يشبه بعد ثمود ، التي ذكرت من قبل ، ولو سألت عن الحكمة في الجمع بين قوم مدين وقوم ثمود دون غيرها ؟

لقيل : إن كل واحدة منهما هلكت بالصيحة ، فمن ثم اختص ذكر مدين من بين الأمم، لتقترن بثمود وقال " ألا بعدا لمدينكما بعدت ثمود ".

ومن النماذج القرآنية أيضا قوله تعالى:

﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ ﴾ [سورة المزَّمل:٢-٣]

فالحديث في شأن الليل ، وقيام الليل من حيث فترة القيام وماذا يصنع حين يقوم ، ثم استطرد القرآن الكريم فذكر ثقل القول ، ثم عاد إلى الحديث عن الليل وناشئة الليل **مما يعني أن قوله:**

﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ [سورة المزَّمل:٥]

استطراد لأنه واسطة بين أوصاف الليل، وما ذكره من أحكامه

ومن أمثلة الاستطراد الشعرية في كتب البلاغيين قول السموأل :-

وإنا لقوم لا نرى القتل سبة إذا ما رأته عامر وسلول

يقرب حبّ الموت آجالنا لنا وتكرهه آجالهم فتطول

فلقد كان الشاعر يفخر بقومه ، وأنهم معشر تقضى آجالهم في الحروب ، وعلى أسنة الرماح ، فالقتل عندهم ليس غريبا ولا عيبا

ثم خرج من هذا المعنى إلى هجاء عامر وسلول ، الذين يـرون القتـل سبة وهذا الخروج من دائرة الفخر إلى ذكر شأن عـامر وسـلول ، يعـد مـن قبيل الاستطراد ، لأنه بعد ذلك عاد إلى الفخـر بقومـه مـرة أخـرى ، **ومـن أقذع الهجاء الذي جاء على هيئة الاستطراد قول الشاعر :**

إذا مـا اتقـى الله الفتـى وأطاعـه فليس به باس وإن كان مـن جـرم

وهذا الهجاء جاء كالمخاتلة ، وكأن الشاعر حين بدأ بيته أشـعرك بأنـه سيأخذك في حديث الوعظ والإرشاد ، وأخذ بناصيتك تجاه التقوى وطاعـة الله تعالى ، وأن الله تعالى يعفو عن كل من أساء ، إذا عاد المسيء إليـه وتـاب ثم فجأة يخرجـك إلى معنـى يفجـؤك بـه ، وهـو أن العبـد مقبـول عنـد الله وإن كان فعل ما فعل ، لا لا ، بل العبد مقبول عنـد الله وإن كـان مـن جـرم وتصـور أنـت كيـف كانـت النفـوس تترقـب معـاني أخـرى ، وحـاول أن تستحضر هذه المعاني التي طواها الشاعر وغرس بدلا منها (وإن كـان مـن جرم) لتعلم إلى أي مدى كان الهجاء .

إن المعاني التي كانت تنتظرها النفوس هنا ، هي (وإن سرق وزنـى) هـــي : (وإن فعـــل الموبقـــات كلهـــا) هـــي (وإن . وضـــع مـــا تشـــاء من الفحش والرذائل) الشاعر طوى كل هذا ، ووضـع مكانـه (وإن كـان من جرم) ليشعرك أن هذه القبيلة هي كل ما تتوقعة من موبقات ، ورذائـل ونقائص ، وخسائس .

إن الاستطراد انتقال من موضوع إلى آخر بأن يكون المتكلم في معنى فيخرج منه ، إما بطريق التشبيه أو الشرط أو الإخبار أو غير ذلك إلى معنى آخر يتضمن مدحاً أو قدحاً أو وصفاً أو غير ذلك، **واسمع إلى قول حسان بن ثابت :**

إن كنت كاذبة التي حدثتني فنجوت منجا الحارث بن هشام

ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ونجا برأس طمرة ولجام

فالشاعر وهو يحدثها ، ويذكر كذبها ،وابتغاءها النجاة بهذا الكذب فهي قد فعلت فعل الحارث بن هشام ، وهنا ترك الشاعر الحديث معها والتفت إلى الحارث بن هشام ، وماذا فعل به كذبه ، وكيف جر عليه العار والشنار حين ترك قومه ، وأهله وأحبته ، ولم يدافع عنهم حتى هلكوا وظن أنه فاز بها فرّ به ، واغتنمه ، أتدري ماذا غنم ؟ ، لقد غنم فرسا ولجاما !!!

وهنا يترك الشاعر لك الصورة لتتأملها ، وتنظر فيها ، وتتدبر هذا المأفون الذي ترك قومه من أجل طمرة ولجام ، وظن أنه نجا ، وفي هذا من التهديد للمحبوبة والزجر الكثير ، لأن كذبها سيجر عليها الوبال كما جر ظن الحارث عليه بأنه نجا .

وقد يأتي الاستطراد في المدح ، ومن ذلك قول بكر بن النطاح طويل:

عرضت عليها ما أرادت من المنى لترضى فقالت قم فجئني بكوكب

فقلــت لهــا هــذا التعنــت كلــه كمن يتشهى لحـم عنقـاء مغـرب

ســلي كــل شيء يســتقيم طلابــه ولا تذهبى يا بدر بي كـل مـذهب

فأقسم لو أصبحت في عـز مالـك وقدرتـه أعيـا بـما رمـت مطلبـي

فتـــى شـــقيت أموالـــه بنوالـــه كـما شـقيت بكـر بأرمـاح تغلـب

وشبيه بهذا قول امرئ القيس :

عوجاً عـلى الطلـل المحيـل لعلنـا نبكي الديار كـما بكـى ابـن حمـام

ومن نماذج الاستطراد في السنة النبوية ما أخرجه البخاري عن عطـاء بن أبي رباح قال :سمعت جابر بن عبد الله وهو بمكة وهو يقول: إن رسول الله ﷺ قال عام الفتح:

" إن الله ورسوله حرم بيـع الخمـر، والميتـة، والخنزيـر، والأصـنام " فقيل له عند ذلك: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة، فإنه يدهن بها السـفن ويدهن بها الجلود، ويستصبح بها الناس؟ قال: " لا، هو حرام "، ثـم قـال رسول الله ﷺ عند ذلك: " قاتل الله اليهود، إن الله لما حرم عليها الشـحوم جملوها، ثم باعوها، وأكلوا أثمانها" .

فقوله: «قاتل الله اليهود» استطراد ، لأنه حديث عن اليهود في سـياق تحريم الميتة والخمر والخنزير، ولكي تفرق بين الاستطراد والخـروج ، **انظـر إلى هذا الشاهد يقول الشاعر :**

وأحببتُ من حبها الباخلينَ حتى رمقتُ ابن سلم سعيدا
إذا سئل عرفاً كسا وجهه ثياباً من البخل صفراً وسودا
يغارُ على المالِ فعلَ الجوادِ وأبى خلائقه أن يسودا

فقوله: «حتى ومقت ابن سلم سعيدا» من الخروج وليس من الاستطراد لأن الشاعر أعرض عن كلامه الأول وتمادى في الحديث عن ابن سلم وبخله ، وكأنه كان يقصد هذا الحديث لكنه قدم له بمقدمة لطيفة تدخله على هذا المعنى ، وهذا نمط من البديع يخالف الاستطراد ، لأنه خروج عن المعنى الأول ، وطرح له ، وإعراض عنه .

ويكثر الاستطراد أيضا، في مقامات الصلح بين الناس ، ومقامات المديح وذكر المناقب ، ومقامات الفخر ، ومقامات الهجاء ، وكل ما يستحب فيه الإطناب يحسن فيه الاستطراد .

وألحق ابن رشيق القيرواني بهذا الباب بابا آخر سماه (التفريع) وقال : هو من الاستطراد كما أن التدرج من التقسيم ، **وحين عرفه قال** :

(أن يقصد الشاعر وصفاً ما ثم يفرع منه وصفاً آخر يزيد الموصوف توكيداً).

ويحاول حازم القرطاجني أن يوضح ذلك في كتابه المنهاج فيقول :

(وكل معنى فرع عن معنى فقد يكون واقعا معه في حيز واحد، وقد يكون بينهما تباين في ذلك، وقد يكون المأخذ فيهما واحدا، وقد يكون متخالفا

وقد يكون أحدهما موجها من بعض جهات التوجيه نحو النسب الإسنادية على ما وجه غليه الآخر، وقد يكون أحدهما موجها إلى غير ما وجه إليه الآخر) ومثل العلماء للتفريع، **بقول الكميت:**

أحلامكم لسقام الجهل شافية كما دماؤكم يشفى بها الكلب

فالشاعر هنا في شأن وصف الشفاء من الجهل ، وأن شفاء هذا الجهل كامن في (أحلامهم) ثم فرع عن ذلك حديثا عن شفاء داء (الكلِب) واستعمل في الخروج من شفاء إلى شفاء أسلوب التشبيه ، فقال : هذا مثل ذاك يكون ، والعرب كانت تعتقد أن الرجل إذا عضه كلب إصابته خساسة لا تشفى إلا بجرعة من دم رجل شريف كريم ، ولا تنس هنا أن التفريع جمع بين متناسبين ، وليس جمعا بين متنافرين فعند الجمع والتفريع ينبغي أن يكون المعنى الثاني مما يحسن اقترانه بالأول ويفيد الكلام حسن موقع من النفس. وما وقع من التفريع غير متناسب الوضع ولا متشاكل الاقتران لم يحس، وكان من قبيل التذييل والحشو الذي لا يحسن، وهذا مما نص عليه حازم أيضا ، **ومن هذا الباب أيضا ما قاله ابن المعتز :**

كلامه أخدع من لحظه ووعده أكذب من طيفه

ولا تنس هنا أن الوعد يكون بالكلام أيضا ، لكن الشاعر أراد أن يحدثك عن الكذب ، والخلف في الوعد ، وهو في حقيقته كذب أيضا لكنه كذب خاص بالوعود .

ومن لطائف التفريع قول الصنوبري في وصف غلام استعمله أحد الأمراء ليكون كاتبا له ، **وكان الغلام جميلًا :**

أَنظُرْ إلى أثرِ المدادِ بخدّه كبنفسَجِ الروض المشوب بوردِهِ

ما أخطأتْ نوناتُه من صدغِهِ شيئاً ولا ألفاتُه من قَدِّهِ

وكأنما أنفاسه من شعره وكأنما قرطاسه من جلده

والشاعر حين بدأ بالفعل (انظر) وجه عينك إلى جهة ، ثم انتقل متفرعا عنها إلى جهة أخرى ، فهو في البداية وجه نظرك إلى حمرة الخد وهذا من أثر المداد كما زعم ، ثم تفرع من حمرة الخد إلى هذه الغمزات في الصدغ والتي سماها نونات ، وهي أماكن في الخدود تشبه النون ، ثم تفرع إلى القد الذي يشبه الألف في استقامته وجلده الأبيض الذي يشبه القرطاس والشاعر كلما ذكر لك شيئا انتقل بك إلى غيره لتراه ليزيد في وصف جمال هذا الغلام الكاتب .

الفصل الثاني
فنون الإيقاع

أول ما يلقانا من فنون الإيقاع الصوتي : فن الجناس ، وبدأت به لأنه كما قال على الجندي : (وجه البديع المشرق ، وغرته الناصعة ، وهامته العالية ، الذي تطرب الآذان لسماعه ، وتهش القلوب لحسنه ، وترتاح النفوس لوقعه فهو يدخل الألفاظ الفصيحة في الأذن بغير إذن .

حتى قيل : إنه أشرف الأنواع اللفظية)([1])، وبما أن النغم والموسيقى رأس الدلالة البديعية ، **ويمثله في أعلى طبقاته** : الجناس والسجع ، تحدث عبد القاهر عنه حين تحدث عن النظم وأنه عمود البلاغة ، وأنه لا يخرج عن ثلاثة أضلاع ، **هي** : (حسن الدلالة على المعنى ، وتمام الدلالة على المعنى ، وتبرجها في صورة هي أبهى وأزين وآنق وأعجب وأحقّ بأن تستولي على هوى النفس وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب ، وأولى بأن تطلق لسان الحامد وتطيل رَغْمَ الحاسد)([2])، ولا شك أن الجناس ركين رئيس في تبرج الدلالة .

ولفظة الجناس على وزن الفِعال – بكسر الفاء وفتح العين– ومادته (الجيم والنون والسين) وهذا أصل واحد يعني الضرب من الشيء .

١- فن الجناس لعلي الجندي ص ١٨ بتصرف.
٢- دلائل الإعجاز ص ٤٢.

قال الخليل : وكل ضرب جنس ، وهو من الناس ، والطير ، والأشياء جملة والجمع : أجناس ، وسمي الجناس بهذا الاسم لأن حروفه من جنس واحد ، أو أن أكثرها من جنس واحد ، والكلمة لم يوضع لها في كتب العلماء القدامى تعريف واحد ، بل ترى لكل منهم تعريفا يقترب أو يبتعد عن الآخر ،([1])لكنها في مدرسة السكاكي والخطيب تعني :

" تشابه الكلمتين في اللفظ واختلافهما في المعنى ."([2])

ومعنى التشابه في اللفظ ، أي : في التلفظ ، لأن الملاحظ في هذا اللون هو الصوت المسموع ، وحين يكون الصوت المسموع متحدا يتحقق الركن الأول من الجناس وهو النغم الشجي ، والذي يتلوه تدبر المعاني ، والرجوع إليه مرة بعد مرة ، وهذه فطرة فطر الله الناس عليها ، حتى أنك حين تنزل إلي ريفنا الحالم ، وتزور مريضا فتقول له : سلامتك ، يكون رده : الله يسلمك، لاحظ كيف رد عليك باللفظ نفسه ، وكأنه يحييك بتحيتك **وتقول لآخر**:

(أهلا وسهلا ، فيقول لك : أهلا بيك) **وتقول له** : تفضل : فيرد عليك : فضلك الله .. كل هذا يشعرك بأن النفس البشرية تستعذب هذا النوع من الكلام ، وتفضله على غيره ، وتأنس إليه ، ولا تظن أن هذا

١- وقد جمعها وعلق عليها علي الجنديفي كتابه فن الجناس ص ٩ وما بعدها .

٢- وأعني بالتشابه هنا الاتفاق ، ولكني آثرت لفظة التشابه ، لأن هناك من الجناس ما يتفق في بعض الألفاظ دون البعض ، لكن النغمة واحدة ، والإيقاع واحد ، وهذا هو الحاكم للجناس ، والضابط لطرفيه .

موقوف عند العرب على ما لـه دلالـة ، بـل إن العـربي ليـأنس بهـذا التجانس حتى وإن خلا من المعنى ، فالأذن تعشق قبل العين أحيانا ، لذلك تجد من قوة الأنس بهذا التجانس ألحقت العربية باللفظة اللفظة الأخـرى – رغم خلوها من المعنى – ولكن فقط لأنها تشبهها في السجعة ، وهـذا بـاب كبير في اللغة يسمى الإتباع والمزاوجة ، ولأحمد بن فارس بن زكريا الـرازي كتاب في هذا ، جمع فيه ما تيسر لـه مـن كـلام العـرب في هـذا الشـأن مثـل (رجل مجرب مدرب) (وهو خائب لائب) (وعطشـان نطشـان) ويقـال للأحمـق (هفّـات لفّـات)(وقبـيح شـقيح) .... ونحـو ذلـك ، ومـا هـو في حقيقته إلا النغم والإيقـاع ، فـالعرب يشـدها الـنغم ويطربهـا الإيقـاع حتى أنها تتم النغمة بألفظ لا حاجة إليها ، بل وفي أحيان لا معنى لها .

لكن ينبغي أن أشير إلى أن موقع الجنـاس في عـرف المتكلمـين موقـع عظيم ، فهو مظهر من مظاهر التمكن والبراعة والقدرة على لم شتات اللغـة في نغمات متوافقة ، ويكفي الجناس فخرا أن عمد إليه رسـول الله ﷺ – في كلامه ، حيث قال (غفار غفر الله لها ، وأسلم سالمها الله ، وعصـية عصـت الله)[١]، بل إن العلماء كـانوا يفضـلون في عنـاوين كتـبهم مـا فيـه جنـاس ويعدون ذلك أبلغ وأروع ، **يقول السيوطي –ت ٩١١– في مقدمة كتابه :**

تناسق الدرر في تناسب السور :

١- صحشيح البخاري عن عبد الله بن عمر ٤ / ١٨١ رقم الحديث .٣٥١٣

(وكنت أولا سميته نتائج الفكر في تناسب السور لكونه من مستنتجات فكرتي ، ثم عدلت وسميته : تناسق الدرر في تناسب السور لأنه أنسب بالمسمى ، وأزيد بالجناس) أ هـ مما يعني أن العنوان إذا كان مشتملا على الجناس فإنه يرفع من قدره ، ويزيد من شأوه ، ويقره في آذان السامعين.

ومعلوم أن موسيقى الصوت ، وتساويه يقربه إلى النفس ، ويحفر له مكانا بداخلها لا يكاد يبرحها ، لأن النفوس تعشق النغم ، وتأبى نسيانه ولذلك بقي كثير من الشعر ، واندثر كثير من النثر .

فإذا ارتقيت لتنظر في البيان العالي مثل الشعر ، لا تجد ذلك بعيدا عنك ، **وانظر إلى قول ابن الرومي :**

(للسُّود في السودِ آثارٌ تركن بها لمعاً من البيضِ تَثني أعين البيضِ)

وراجع نفسك وأنت تقرأ كلمة (السود) ثم تراها مرة أخرى ، وكأن الناسخ كررها ، مما يجعلك تعيد النظر إليها ، وتتفحص مدلولها ، وكذلك كلمة (البيض) ، وليس ذلك تلاعبا بالألفاظ ، كما أنه لا يعد بابا من أبواب إظهر المقدرة الشعرية ، لأن التلاعب بالألفاظ يخرجك من باب البلاغة ويلحق الكلام بالتكلف والتعقيد ، إنما الذي تجده هنا قدرة على اقتناص الكلمة الدالة ،وبراعة في اصطفاء النغمة الموحية ، وأستاذية في الوقوف على خصوصيات الألفاظ ودلالاتها ، إن كلمة (السود) الأولى تعني

الليالي الحالكة المظلمة ، وهـذه الليـالي فاعلـة في شـعر رأس المهمـوم المكروب أفعالاً لاتنكر ، إنها ماحقـة لسـواد هـذا الشـعر ، حارقـة لبهائـة وزينته ، قالبة نضارته ونعومته إلى الضد ، وكم من ليالي الهم في زماننـا ، وفي مصرنا ، وكم من مكروب تحول شـعر رأسـه بعـد قليـل إلى الشـيب بفعـل الليالي السُود إن الشاعر يريد أن يريك حركة السـواد في السـواد ، – سـواد الليل في سواد الشعر ، وأثر البياض الناتج عن الشيب في عزوف الغانيات ، وزهدهن في أصحاب الشعر الأبيض ، وإن كان ذا مال .

وعبقرية الشـاعر هنـا في هـذا الجمـع بـين سـواد وسـواد ، وبيـاض وبياض، ولكن شتان بين اللفظ ومـا يشـبهه ، كـما زاد مـن روعـة الصـورة طلاقتها ، وخلوها من التعمد ، وبعدها عـن التكلـف ، حتـى أنـك لـترى اللفـظ ينسـاب في مكانـه دون ضـغط ، أو إكـراه ، وهـذا مـا استحسـنه البلاغيون ، حتى قال الإمام (لا تجد تجنيسا مقبولا ، ولا سجعا حسنا حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه ، وساق نحوه ، وحتى لا تجده تبتغـي به بدلا ، ولا تجد عنه حولا ، ومن ههنا كان أحـلى تجنـيس تسـمعه وأعـلاه وأحقه بالحسـن وأولاه مـا وقـع مـن غـير قصـد مـن المـتكلم إلى اجتلابـه وتأهب لطلبه) [1]، وأول من أشار إلى هذا الفن من القول ، **أعني** :

١ـ أسرار البلاغة ص ٧

" الجناس " ووضع له هذا المصطلح هو عبد الله بن المعتز في كتابه المسمى بـ" البديع " ، و ذكر فيه أن بشاربن برد ، ومسلم بن الوليد وأبا نواس كانوا متقدمين في هذا الفن ولم يسبقهم أحد في براعته .

وفن الجناس ظاهر عند كل من تناول البديع ، واستحسنه كثيرون ولكن الذي فاق كل هؤلاء في مدحه صاحب الوافي بالوفيات : صلاح الدين الصفدي[1]، **حتى أنه ألف فيه كتابا سماه** :

"جنان الجناس " فهو فن يلجأ إليه كل متكلم ، فضلا عن أهل البيان والإبداع ، فبه تدخل الألفاظ إلى القلوب دون شفيع ، وهو في علم البديع **كما قال الصفدي** :(خالُ خِّده ، وطراز برده ، وفص خاتمه ، وجود حاتمه ، وسجع حمامه ، وسحّ غمامه ، وزهر كمامه ، وقمر تمامه ، متى عد في القصيدة بيت كان الجناس طرازه) [2].

وعلى النقيض من الصفدي تجد آخرين يعيبون هذا الفن ويصفونه بالوضاعة ، ويقول عنه إنه على غير مذهبي ، ومذهب من نسجت على منواله ،مثل الحموي صاحب خزانة الأدب.

ولقد جمع الإمام عبد القاهر بين المذهبين حين جعل الحسن في الجناس والسجع راجعا إلى المعنى ، وعدم التكلف وقال :

١- صلاح الدين الصفدي (٦٩٦ - ٧٦٤ ه) خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، صلاح الدين: أديب، مؤرخ، كثير التصانيف الممتعة.، ولد في صفد (بفلسطين) وإليها نسبته.وتعلم في دمشق فعانى صناعة الرسم فمهر بها، ثم ولع بالادب وتراجم الاعيان.وتولى ديوان الانشاء في صفد ومصر وحلب، ثم وكالة بيت المال في دمشق، فتوفي فيها.له زهاء مئتي مصنف، منها (الوافي بالوفيات - خ) و (الشعور بالعور - خ) في تراجم العور وأخبارهم، و (نكت الهميان - ط) ترجم به فضلاء العميان، و (ألحان السواجع - خ) رسائله لبعض معاصريه، رتب أسماءهم على حروف المعجم،

٢- فن الجناس لعلي الجندي ص ٢٥ .

(قد تبين لك أن ما يعطى التجنيس من الفضيله أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن ولما وجد فيه إلا معيب مستهجن ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به وذلك أن المعاني لا تدين في كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه ، إذ الألفاظ خدم المعانى والمصرفه في حكمها وكانت المعانى هى المالكه سياستها المستحقه طاعتها فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشىء عن جهته وأحاله عن طبيعته وذلك مظنة من الاستكراه وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للشين)([1])، والذي لا شك فيه أن ألوان البديع ، بل وألوان البلاغة ، بل وكل شيء إذا كثر وفاض وزاد عن المراد قبح وسمج ، وانتقل من عالم الحسن والبهاء إلى عالم الشين والإيذاء .

أقسام الجناس

وهذا التشابه الصوتي ، وذلك الإيقاع النغمي يتحقق في أربعة أركان :

١ – تشابه في نوع الحروف .

٢ – تشابه في ترتيب الحروف .

٣ – تشابه في عدد الحروف .

٤ – تشابه في هيئة الحروف .

---

١ ـ أسرار البلاغة ص٥ ت شاكر .

ولعلك تلحظ أن القاسم المشترك بين الأقسام الأربعة هو الحروف فلا مجال هنا لذكر المعنى ، فالتقسيم هنا تقسيم لفظي ، وينتج عن هذه الأربعة سبعة أنواع من الجناس ، **وهي :**

- ❖ **الجناس التام**
- ❖ **والجناس الناقص**
- ❖ **والجناس المحرف ، أو المصحف**
- ❖ **والجناس المقلوب**
- ❖ **والجناس المضارع**
- ❖ **والجناس اللاحق .**
- ❖ **ثم الملحق بالجناس .**

وهذه الأقسام السبعة لها أقسام أخرى داخلية ، يأتي شرح كل منها بالتفصيل :

❖ **الجناس التام**

قلت إن الطرفين إذا اتفقا في نوع الحروف وترتيبها وعددها وهيئاتها يسمى الجناس جناسا كاملا ، أو تاما ويتفرع عن ذلك عدة فروع ، فإذا كان الطرفان من نوع واحد من أنواع الكلام كأن يكونا اسمين ، أو فعلين أو حرفين سمي ذلك جناسا تاما مماثلا ، وإن اختلفا في النوع كأن يكون بين اسم وفعل ، أو اسم وحرف ، أو فعل وحرف سمي جناسا تاما غير مماثل .

القسم الأول : ما اتفق فيه كل شيء ويسمى :

❖ **الجناس التام المماثل :**

أعني (نوع الحروف وعددها وترتيبها وهيئاتها ونوع الكلام)

ومن الأمثلة على **ذلك قول الله تعالى :**

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾

[سورة الروم: الآية ٥٥]

فالساعة الأولى هي القيامة ، والساعة الثانية هي الوقت القليل فالكلمة إذا ذكرت معرفة ثم أعيدت نكرة ،كانت النكرة غير المعرفة فلو قلت قابلت الرجل فسلمت وسلمت على رجل ، كان الثاني غير الأول أما إذا ذكرت اللفظة نكرة ثم أعيدت معرفة كانت المعرفة هي عين النكرة فلو قلت قابلت رجلا وسلمت على الرجل ، كان الرجل الثاني هو عين الأول ، وعليه فلفظة الساعة في الآية ذكرت أولا معرفة ، ثم أعيدت نكرة لتبين أن الساعة الثانية ليست هي الساعة الأولى ، فالأولى تعني القيامة والثانية تعني الوقت القليل .

والذي يشغل البال هنا هو اصطفاء اسم الساعة من بين أسماء يوم القيامة ، وكذا اصطفاء لفظ " ساعة " من بين أسماء الوقت ليحدث هذا الضرب من التوافق الذي يصور حالة الذهول لديهم ، **وكأنهم حين سألوا :**

ما هذا ؟ قيل هذه الساعة ، فلـم يـذكروا إلا أنهـم مكثـوا في الأرض ساعة واحدة ، لذلك كان الـرد علـيهم " لقـد لبثـتم في كتـاب الله إلى يـوم البعث " ثم قيل : " فهذا يوم البعث " فعدل عن لفظ " الساعة " إلى لفظ : " يوم البعث " لإخراجهم من حالة الذهول التي أحاطت بهم .

كما أن في التوافق بين:(الساعة و ساعة) ما يشير إلى القـرب الشـديد ليوم القيامة ، وكأن الباقي عليها ساعة واحدة ، ولا اعتبار هنـا لأل المعرفـة لأنها طارئة على الكلمة ، ولقد اصطفى رسول الله ﷺ الاسم نفسـه حـين أراد التعبير عن القرب الشديد **فقال** : " بعثت أنا والساعة كهاتين " ولم يقل : أنا والقيامة ، أو أنا والبعث ، أو غير ذلك ، فلفظ الساعة فيـه مـن القـرب والقلة في الوقت ما يرشحه ليكون محلا لهذا الجناس .

وحين ترجع إلى طبيعـة الجنـاس النغميـة – إذ هـو في الأصـل نغمـة عالية الصوت – تلحظ أن الغايـة مـن هـذه النغمـة هـي تنبيـه كـل غافـل عن حقيقة اقتراب الساعة ، وانخداع الناس بالدنيا ، وهي في الحقيقة سـاعة قليلة ، وشتان بين الساعة التـي تمكـث خمسـين ألـف سـنة عـلى الكـافرين ولفظ ساعة الذي يشير إلى أقل وقت يدركـه العقـل ، وهـذا المعنـى كـامن خلف التعريف والتنكير في اللفظين ، لكـن المفارقـة بـين السـاعتين تُحـدث رجّة في العقل ليصـحو مـن غفلتـة ، فينظـر في هـاتين السـاعتين ، ويـدرك الفارق بينهما .

ومن الأمثلة أيضا قول الله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤)﴾

[سورة النور:٤٣-٤٤]

والآيتان في معرض لفت انتباه الناس إلى آيات الله تعالى فتسمع قبلها : " ألم تر أن الله يسبح له .. " ثم يقول :" ألم تر أن الله يزجي سحابا إلخ .

وتلك كلها آيات تحتاج إلى إعمال العقل والجوارح معا للوقوف على ما فيها من حكم ، لذلك استحثت الجوارح في الآية الأولى وهي الأبصار جمع بصر ، واستحثت العقول في الآية الثانية فقال " إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ، وفي هذا الجناس إشارات ، **منها** :

إعلاء قيمة البصر ، ولفت الانتباه إليه ، فهو وسيلة الإدراك والفهم وبدونه يصبح الإنسان فارغا من المعرفة ، وسواء كان لفظ الأبصار يقصد به الجارحة أو العقل ، فلا قيمة لإنسان بدون العقل ، ولا وسيلة للعقل بدون الجوارح ، فالعبرة والاعتبار هما الغاية من بث الآيات وتصريفها للناس .

كما أن في الجناس ضربا من المباغتة بحيث تتكرر على الأذن لفظة واحدة فتُخدع بأن الثانية هي الأولى ، وهذا يوقف العقل ، ويوقظه ليتحقق من هذه النغمة المتكررة ، فيرى أن الثانية لا علاقة لها بالأولى ، أو على الأقل ليست هي ، فيضاف إلى رصيد اللغة معلومة جديدة ، وهي تشابه كلمتين في الحروف ، واختلافهما في المعنى ، وهذا مما تهش له النفس وتبش ، لذلك ترى في الجناس بهجة حيث يزيد العقل معلومة جديدة ، وهي اشتباه الألفاظ في الشكل واختلافها في المعنى ، **ومن نماذج الشعر قول الشاعر** :

فعباس عباس إذا احتدم الوغى والفضل فضل والربيع ربيع

وسياق البيت المذكور فيه يحكي عن موقف هؤلاء الثلاثة ، فالسياق كما قرأت هو : عند احتدام المعارك ، وموقف كل واحد منهم ، فعباس عند احتدام الوغى عباس ، وفي ذلك من المدح ما فيه ، لأن العبوس ساعتها ، والبأس والقوة هي أهم ما يميز الأبطال الصناديد ، لكن على النقيض من عباس تجد " الفضل والربيع " ، فهما عند احتدام الوغى قد أخذا نصيبا من اسمهما فتجد الفضل : فضلا ، وهذا يعني أنه لا قيمة له ولا حاجة إليه ، لأن الفضلة من كل شيء هي الزيادة ، وكذا الحال بالنسبة للربيع حيث تجده رخوا هينا لينا ، وكأنه صار وقت الشدة ربيعا ، فالبيت جمع بين المدح والهجاء في عبارة واحدة وكان الشاعر موفقا حين عمد إلى أسماء الرجال ليبني عليها مدحه وهجاءه .

ومن أمثلة الجناس التام المماثل في الأفعال قول الشاعر :

حَلُّوا عقود اصطباري عندما دخلوا   وفي الخمائل حلوا مثل أقمار

فلفظة : (حلوا) الأولى بمعنى : فكوا ، ولفظة (حلوا) الثانية بمعنى : نزلوا وأقاموا ، ولعلك تدرك رغبة الشاعر في إعادتك مرتين إلى الفعل لتنظر إليه مرة بعد مرة ، لأنك حين تمر بشيء ثم تراه تارة أخرى لا بد أن تعمل ذهنك ، وتقول لقد مر علي هذا الأمر قبلا ، وتراجع عقلك حتى تقف على الأول ، ثم تعقد مقارنة ، ثم تفرق بينهما لتخرج بنتيجة أن هذا غير ذاك ، فترى النفس تسعد بهذه المراحل الفكرية ، لأنك توصلت منها إلى ثمرة بعد جهد لذيذ ، وصبر جميل ، فالجناس محرك عقلي ، قبل أن يكون نغمة صوتية ، فإذا أضفت إلى هذا الحراك العقلي ما فيه من نغم تشتاق إليه النفوس ، وإعادة لما مررت عليه من قبل وجدت أطراف الحسن تنهال عليك من جهات شتى ، ولذلك استعذبه الشعراء والكتاب في الشعر والعناوين ، وغير ذلك حتى وجدته شاخصا في كتاب الله تعالى ، **ومن نماذجه أيضا قول الشاعر :**

بانوا لعيني أقمارا تقلهم   لُدنُ الغصون فلما آنسوا بانوا

هل لاحظت الفعل (بانوا) وكيف تلاعب بالمعنى ، فأعطاك أولا ظهورا ، ووضوحا ، ومشاهدة تسعد القلب ، وتدخل السرور على النفس وهم يتمايلون أمام العيون على الغصون الناعمة فترى العيون شيئا

غير البشر ، إنها أقمار محمولة على الغصون ، وتلك صورة فائقة في الخيال ثم ما لبث الشاعر أن سلب منك هذا المشهد ، وأعادك إلى واقعك الأليم حين غيبهم بعد الأنس بهم ، وطواهم بعد الفرح بمقدمهم ، وأبعدهم عن العين بعد أن ملأوها بهجة وسرورا فقال : فلما آنسوا بانوا ، أي غابوا وابتعدوا عن العين .

❖ **الجناس التام المستوفي :**

أعني الجناس بين اسم وفعل ، أو بين فعل وحرف ، حيث يكون الجناس بين نوعين من الكلام ، **ومن ذلك قول الشاعر :**

وسميته يحيى ليحيى ، فلم يكن إلى رد أمر الله فيه سبيل

تيممتُ فيه الفألَ حين رزقته ولم أدر أنّ الفأل فيه يفيلُ

فالشاعر رزق بمولود فسماه : يحيى ، استبشارا بطول العمر ، لكن شاء الله تعالى أن يقبضه صغيرا ، ولقد قصد بهذه التسمية التفاؤل بطول العمر ، ولكن الفأل يفيل بمعنى : يخطيء كثير ، فلا راد لقضاء الله تعالى ولعلك تدرك هذا المدخل اللطيف في اصطفاء اسم (يحيى) للمولود فالشائع أن لكل إنسان من اسمه نصيب ، فالجناس هنا يمثل ضربا من المفارقة الماتعة التي تجذب الانتباه ، وتؤكد المعاني ، وتحليها ، وتوشيها وتخرجها في صورة هي أزين وأحب إلى النفوس .

ومن النماذج التي بين الحرف والاسم ما رواه البخاري عن
(عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ عَنْ أَبِيهِ ﷺ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ يَعُودُنِي عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ مِنْ وَجَعٍ اشْتَدَّ بِي ، فَقُلْتُ إِنِّي قَدْ بَلَغَ بِي مِنْ الْوَجَعِ وَأَنَا ذُو مَالٍ ، وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا ابْنَةٌ ، أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَيْ مَالِي ؟ قَالَ : لَا ، فَقُلْتُ : بِالشَّطْرِ ؟ فَقَالَ : لَا ، ثُمَّ قَالَ : الثُّلُثُ . وَالثُّلُثُ كَبِيرٌ أَوْ كَثِيرٌ . إِنَّكَ إِنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ ، وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهَّ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا ، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِيِّ امْرَأَتِكَ) (١)، راجع الجملة الأخيرة (تجعل في فيّ امرأتك) وانظر ماذا ترى ؟ إن هناك جناسًا بين الحرف (في) والاسم (فيّ) بمعنى الفم ولعلك تلحظ هذا الأنس والخفاء والتودد في الكلمتين ، مما يشعرك بتتابع الإطعام ، فاصطفاء الكلمتين ليس خبطا ، وإنما في كل منهما معنى الظرفية ، التي تشعر بفعل أمر لا يطلع عليه أحد ، وتلك أمارة حسن المعاشرة ، وطيب الحياة بين الزوجين .

ومن النماذج الدالة أيضا قول أبي العلاء :

لو زارنا طيف ذات الخال أحيانا ... ونحن في حفر الأجداث أحيانا

ولا شك أن أبا العلاء قصد إلى التجنيس ، ولعله أراد أن يؤكد المعنى الفعلي وهو معنى الإحياء ، فأعاده مرتين ، وإن كان في الأولى دل عليه

١- صحيح البخاري باب الطيب للجمعة رقم ١٢٩٥.

بالإيهام ، لكن معنى الإحياء هو الذي كان يسيطر عليه ففي زيارته إحياء له سواء كان في عالم الدنيا أو علم الآخرة ، **ومن النماذج التي بين الفعل والحرف قول الشاعر:**

أنَّ من شوقه فثار الغرام   ودرى الناس أنه مستهام

فـ (أنّ) الأولى فعل بمعنى : توجع ، و(أنّ) الثانية حرف توكيد ناسخ ، والجمع بينهما أحدث هذا الجناس ، الذي يصور رغبة الشاعر في خداع القارئ ، وهذا لطيف حيث صور توجعه ، وأوهمنا أن الناس عرفوا هذا التوجع ، لكن حين تحققوا علموا أنه عاشق ، وأن وجعه السابق وجع عشاق .

❖ **الجناس التام المركب :**

والمركب نوعان ، ملفوف ، ومرفو ، فالملفوف هو ما تركب من كلمتين تامتين ، والمرفو هو ما تركب من كلمة وبعض أخرى ، ومثال الملفوف **قول الشاعر :**

إن كنت تريد بالجفا تهذيبي   فاقطع برضاك ألسنا تهذي بي

فالجناس بين كلمة (تهذيبي) وهي كلمة واحدة ، ثم يقول في آخر البيت (تهذي بي) وهما كلمتان ، والشاعر عمد إلى هذا الجناس ليصف حال الألسنة التي تناولته ، وأن ما يقال في حقه إنما هو من قبيل الهذيان فتفكيره الأول هو وصف ما يقال عنه ، لكنه أخره في البيت ليكون ألصق

بعقل القارئ ، والبيت يكاد يخلو من ماء الشعر ، ورونقه إلا من هذه اللفتة ، لذلك تلحظ فيه الاقتراب من التلفيق اللغوي ، فلا تجد ما يروقك ولا ما يؤنسك ، وتجد النفس تقرأ البيت ولا تهش له ، بل تعجب فقط من الصنعة التي تقترب من التكلف ، لكنك حين تقرأ قول شاعر آخر يذهب في صنعته إلى الجناس تلحظ عبيرا وعبقا لا تجده فيمن سبقه ، **واقرأ في تؤدة قوله :**

لست تاج العارفينا   أنت تاج العار فينا

فالشاعر هنا لمح الكلمة ، وتقلبها ، وروافد الدلالة فيها ، فاستعملها بطريقة يمكن فكها ، وبناؤها من جديد ، ولم يتوان في ذلك ، فهدم الكلمة الأولى ، وأعاد صياغتها وتركيبها وكون منها ما أراده فصارت (العارفينا) إلى (العار – فينا) فأعطت الكلمة أفقا مغايرا ، ومعنى معاكسا للمعنى الأول ، لذلك جاءت من قبيل الهجاء ، وجاء بيته على بساطته جميلا رائقا تلمح فيه نغمة الغضب حيث نفى أولا ما يدعيه المهجو ثم أثبت ما يستحقه ، **وفي قول آخر:**

إذا ملك لم يكن ذا هبة   فدعه فدولته ذاهبة

حيث سار على منوال السابق ، لكنه هنا لم يتوجه بالخطاب إلى المهجو بل إلى من يريد نواله ، حيث نصحه بالبعد عنه ، لأن سمت الملوك العطاء والهبات ، وإلا فملكهم إلى زوال .

فكلما احتاج الجناس إلى فكر وروية ، ثـم أسرع إليـك بـالمعنى عظـم وزاد بهاؤه ، ولقد عـلا هـذا البيـت لمـا فيـه مـن الخـداع اللفظـي في كلمـة (ذاهبة) .

❖ **الجناس التام المرفو :**

في المعجم الوسيط (رفا رفوا تـزوج ورفـا الثـوب ونحـوه مـن كـل منسوج أصلحه وضم بعضه إلى بعض ، ويقال رفا الخرق ، ورفا فلانـا أزال فزعه وسكنه من الرعب) فالكلمـة تعنـي الضـم – ضـم بعـض الحـروف من كلمة إلى كلمة ، لتكوّن كلمة أخرى ، وهذا النوع يمثـل عنايـة الشـعراء والأدباء باللفظ ، وانشغالهم بـالكلمات وحروفهـا وحرصـهم عـلى توافـق الحروف والأصوات ، وهذا بلا شك أراه يبعـد بـالمعنى ، ومنزلتـه وغايتـه فالذي تربينا عليه واستعذبناه هو اقتناص المعنى الجميـل ، والفـوز بـالمعنى العجيب ، فإذا حزته وجدت اللفظ خادما لك ، وطوع أمرك كـما بـين عبـد القاهر – رحمه الله – لكنك في هذا اللون من الجنـاس تجـد غالبيـة الـنماذج تجذبك إلى اللفظ ، واتساقه وائتلافه ، وتماثـل حروفـه ، فـإن حسـن المعنـى كان الحسن كله ، وإن خلا الكلام مـن المعنـى الحسـن نفـرت منـه الطبـاع السوية ، ولفظته النفوس القويمة ، واسمع إلى هذا ، **يقول أحدهم** :

والمكـر مهـما اسـتطعت لا تأتـه ... لتقتنـي السـؤدد والمكرمـة

فقد جانس بين كلمـة (المكـر) ومـا يضـاف إليهـا مـن المـيم والهـاء

في كلمة (مهما) وبين كلمة (المكرمة) المذكورة في آخر البيت ، ولا يخفى عليك ما يتركه ذلك في النفس من امتعاض ، لأنك تدرك انشغال الشاعر بالألفاظ ، ورغبته في توفيقها ، ورصّها على صورة متجانسة ، وهذا مما لايحسن إن ضعف المعنى وتوارى، فإن عمد الشاعر إلى هذا ، واهتم به ثم جاء اللفظ – دون قصد – حاملا هذا الجناس رأيت حسنا يروقك وجمالا يأخذ بعقلك ، **ومن ذلك قول أحدهم** :

لا تعرضن على الرواة قصيدة　　مالم تبالغ قبل في تهذيبها

فمتى عرضت الشعر غير مهذب　　عدّوه منك وساوسًا تهذي بها

فالجناس بين كلمة (تهذيبها) وجملة (تهذي بها) فالجزء الأول مفرد والجزء الآخر مركب من الفعل (تهذي) والجار والمجرور (بها) ،ولهذا **يقول الإمام عبد القاهر:**

(أما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظين إلا إذا كان موقع معنيهما في العقل موقعا حميدا ، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدا أتراك استضعت تجنيس **أبي تمام في قوله** :

ذَهَبَتْ بِمَذْهَبِهِ السَّماحَةُ، فالتَوَتْ　　فيه الظَّنُونُ: أَمَذْهَبٌ أَمْ مُذْهَبُ

واستحسنت تجنيس (الأعرابي وهو يصف سهماً رمى به عيراً فأنفذه: فقال:حتى نجا من جوفه وما نجا(١).

١- يريد أن السهم نجامن جوف العير لسرعته ونفاذه ، وما نجا العير من إصابة السهم فقتل.

وقول الآخر :

ناظراه فيما جنى ناظراه   أو دعاني أمت بما أودعاني

الأمر يرجع إلى اللفظ ؟أم أنك رأيت الفائدة ضعفت عن الأول وقويت في الثاني ؟

ورأيتك لم يزدك (بمذهب أم مذهب) على أن أسمعك حروفا مكررة ، تروم لها فائدة فلا تجدها إلا مجهولة منكرة ، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها . أ هـ

ولقد بالغ أهل الفن في عد أقسام أخرى تحت الجناس التام ، أرى أنها تتداخل وينسي بعضها بعضا ، لذا أقتصر على أهمها ، وعليك أن تتذكر أن ما مضى كان من الجناس التام وما يأتي يكون من الجناس غير التام .

❖ **الجناس غير التام**

وهذا النوع من الجناس هو ما حدث فيه تغاير في شيء من الأمور الأربعة السابقة ، أعني (نوع الحروف ، وترتيبها ، وعددها ، وهيئاتها) ولكل اختلاف اسم يميزه ، **فمنه ما يسمى بـ :**

❖ **الجناس المضارع :**

وهو ما اختلف فيه اللّفظانِ المتشابهان في نوع حرف واحدٍ منهما مع تقاربهما في النطق، في الأول أو الوسط أو الآخر.

مثل: "الخيل" و "الخير". و "دامس" و "طَامِس".

و "البرايا" و "البلايا". و "صالح" و "سَالح" .

ومنه قول الله عزَّ وجلَّ في سورة غافر:

﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾

[سورة غافر:٧٥]

لاحظ الفعلين : "تفرحون" و "تَمْرَحُون" فهما متشابهان في كل شيء عدا حرف واحد هو "الفاء" في اللفظ الأول، و "الميم" في اللفظ الثاني وهما حرفان متقاربان، **ومنه قول الله عزَّ وجلَّ** :

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة القيامة:٢٢-٢٣]

ومنه ما روي عن النبي ﷺ:

"الْخَيْلُ مَعْقُودٌ في نواصِيهَا الْخَيْرُ".

ومنه قول الله عزَّ وجلَّ :

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

[سورة الأنعام:٢٦]

ولعلك تدرك الصلة بين هذه الألفاظ التي تشابهت في كل شيء إلا في حرف واحد ، وحاول أن ترددها لتتعرف على النغمة ، وكيف شتبه وتفترق حتى تقول في نفسك : أهي هي ، أم هي إياها ؟ وكيف يختار السياق الحرف المختلف ، وكأنه هو الحرف الأول ، ولا يبعد عنه إلا قليلا واسمع : (تفرحون – تمرحون) (ناضرة – ناظرة) (الخيل – الخير) (ينهون – ينأون) فكلها حروف اتحدت أو تقاربت مخارجها ، حتى

تشعرك بأنها من بيت واحد ، ومن عائلو واحدة ، وكأن الحرف يقول للآخر (أنا أخوك) فيأنس به، ويشكل معه بذلك نغمة تجذب الأذن وتلفت الأنظار لتتدبر المعاني .

ولا يبعد ذلك عن الشعر ففي قول الشاعر :

إن المكـــــارم في المكـــــاره والمغـــــانم في المغـــــارم

تلحظ (المكارم والمكاره) من بيت واحد ، وعليه فإن كل هذه النماذج تجانست فيها الكلمات إلا في حرف واحد ، فالتشابه بين الجزئين يبدو لكل قارئ ، وهذا أمر قد يحسن إن أضافت النغمة الصوتية شيئا تتلذذ به الآذان وتتقوى به الدلالة ، وقد يقبح إن لم يكن من ورائه إلا ترداد حروف بعينها ، والذي يحكم على ذلك هو الذوق السليم ، لأنك ترى في بعض الأمثلة الريّ والبهاء ، وفي بعضها الآخر الخشونة والجفاء ، فأنت حكم هنا بذوقك ، وما تجده في نفسك من حسن يأخذ بعقلك .

❖ **الجناس المحرف :**

وهو النوع الثاني من الجناس الناقص ، وهو ما اتفق طرفاه في كل شيء إلا في هيئة الحروف ، والذي لا يخفى – كما يقول أستاذنا – إن الحركة تعادل نصف الحرف فإذا ما حدث اختلاف في حركات الحروف كان ذلك ذا أثر بين في تمام المجانسة الصوتية ، **ومن ذلك قوله تعالى :**

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

[سورة الصافات:٧٢-٧٣]

حيث جاء لفظ (المنـذرين) تـارة اسـم فاعـل ، وتـارة أخـرى اسـم مفعول ، فالأولى تعني الرسل ، والأخرى تعنى المرسل إليهم ، والنغمة هنـا تؤكـد عـلى المعنـى الأم وهـو الإنـذار ، فهـذا منـذر ، وهـؤلاء منـذرون والمقصـود إشـاعة هـذه اللفظـة لـتملأ الآذان ، ولتكـون حـاضرة في كـل مناسبة يذكر فيها الرسول ومهمته ، والمرسل إليهم وواجبهم ، فالكلام كله يدور حول الإنذار لذلك كررت ، **ومن أمثلته أيضا ما يلي:**

قول العرب : "جُبَّةُ الْبُرْدِ جُنَّةُ الْبَرْد"

حيـث جمـع بـين نغمتـين متـوافقتين ، الأولى بـين (جبـة وجنـة) والأخرى بين (البَرد والبُرد) والعبارة وإن كان التكلف باديا عليها ، لكـن الصنعة لم تؤثر في جمـال المعنـى فيهـا ، وبخاصـة مـع هـذا الشـعور بتوالـد الألفاظ بعضها من بعض رغم الاخـتلاف الشـديد بينهـا ، لكنهـا توهمـك بولادتها من رحم واحدة ، فالجُبّة جُنّة لم لا وهي التي تقيك بـرودة الطقـس كما تقيك لسعات الشمس ، وكذا (البُرد والبَرد) والعلاقة بيـنهما متلازمـة فلا يكاد يرى الصوف إلا في وقت البرد الشديد ، وأنـا هنـا لا أحسّـن لـك المثال ، ولا أزينه في نظرك ، ولكني ألفت انتباهك إلى عبقرية اللغـة العربيـة وهـي تجمـع الألفـاظ كـما يجتمـع أبنـاء العـلات أبـوهم (ديـنهم) واحـد وأمهاتهم شتى، **وفي قول المعرّي:**

والحُسْـنُ يَظْهَـرُ فِي بَيْتَـيْنِ رَوْنَقُـهُ بَيْتٍ مِنَ الشِّعْرِ أَوْ بَيْتٍ مِنَ الشَّعَر

فبين الشِّعْرِ، والشَّعَر جناسٌ محرّف واستعمال لفظ (البيت) هو محل الجناس ، فالبيت الأول هو المنزل ، والحسن الذي يظهر فيه هو حسن الجميلات ، أما البيت الثاني فهو بيت الشعر ، والحسن الذي يظهر فيه هو حسن المعنى وبهاؤه ، ولقد أحسن الشاعر حين مهد لهذا الجناس بكلمة (بيتين) حيث أدخلت المعنى التالي على النفس دخول المأنوس به ، الموطأ له من قبل .

ومنه قول ابن الفارض:

يا ساكني البَطحاء، هل مِن عَودَة	**أحيا بها يا ساكني البطحاءِ**
إنْ ينقضي صبري فليسَ بمنقضٍ	**وجدي القَديمُ بكُمْ، ولابُرحائي**
واحسْرَتي، ضاعَ الزَّمانُ ولم أفُزْ	**منكمْ أهيلَ مودَّتي بلقاءِ**
ومتى يؤمِّلُ راحةً منْ عمرهُ	**يومانِ يومُ قلىً ويومُ تناءِ**
وحياتكمْ يا أهلَ مكَّةَ وهيَ لي	**قسمٌ لقدْ كلفتْ بكمْ أحشائي**
حبَّيكمُ في النَّاسِ أضحى مذهبي	**وهواكُمُ ديني وعَقْدُ وَلائي**
يا لائِمي في حُبِّ مَنْ أجلِهِ	**قد جَدّ بي وَجدي، وعَزّ عَزائي**
هَلاّ نَهاكَ نُهاكَ عن لَوْمِ امرِىءٍ	**لمْ يلفَ غيرَ منعَّمٍ بشقاءِ**
لو تَدْرِ فيمَ عَذَلْتني لَعَذَرْتَني،	**خفض عليكَ وخلِّني وبلائي**

وهُـمُ بِقلْبـي، إنْ تنـاءَتْ دارُهُـمْ عنِّي وسخطي في الهوى ورضائي

حيَّـا الحيـا تلـكَ المنـازلَ والرُّبـى وسـقى الـوليُّ مـواطنَ الآلاءِ

وراجع قوله – نموذجا :

هَلاَّ نَهَاكَ نُهَاكَ عَنْ لَوْمِ امْرِئٍ لَمْ يُلْفَ غَيْرَ مُنَعَّمٍ بِشَقَاءِ

لتعلم كيف يقرع الشاعر نغمة الجناس لتسمعها عالية ، وإن خالفت حركاتها بعضها بعضا .

ومن ذلك أيضا قول النبي ﷺ :

(اللهم حسن خلُقي كما حسنت خلقي) ، ليس الجمع بين (خُلقي وخَلقي) جمع عشواء ، بل اراد اللفظ أن يشعرك بأن حسن الخُلق من حسن الخَلق ، ولك أن تضع علامات الضبط كما تريد فالمعنى لا يبعد هنا أو هناك ، فالحسن هنا ينعكس على الحسن هناك ، والعكس صحيح ، وكذا القبح هنا يترك آثاره في القبح هناك والعكس صحيح .

ومنه قول الشاعر :

أتصعصعت عبراتُ عينكَ أن دعتْ ورقاءُ حين تصعصعَ الإظلامُ.؟!

لاتَنشِجَنَّ لَهَا فإنَّ بكَاءَها ضَحِكٌ، وإنَّ بُكَاءَكَ استِغْرَامُ

هنَّ الحمامُ فإن كسرتَ عيافةً منْ حائهنَّ فإنَّهنَّ حمامُ

يقول أستاذنا محمود توفيق : يتساءل الشاعر في تعجب بالغ :

أتفرقت دموع عينك بسبب أن دعت حمامة ورقاء حين أقبل الظلام ؟ ورجاه ألا يثير نشيج هذه الحمائم ثم آساه ، بأن نشيج الحمائم ضحك وسرور منها بالحياة ، أما بكاؤك أنت فهو استغرام والتياع ، وتلك مفارقة بالغة في حياة الحمام ، فبكاؤها ضحك ، بل إن اسمها ليحمل المفارقة في صوته فأنت إن فتحت الحاء من اسمها فإن ذلك يستدعي ما تقر به العيون ، وإن كسرت الحاء أدى ذلك إلى ما هو مكروه أبدا ، أدى إلى الحِمام ، وهو الموت ، وتلك مفارقة في نشيجها وفي اسمها فحذار .

❖ **الجناس الناقص :**

وهو ما كان الاختلاف فيه بين عدد الحروف ، حيث يزيد طرف على آخر بحرف أو أكثر ، **فمثال ذلك قوله تعالى :**

﴿**وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠**﴾ [سورة القيامة:٢٩-٣٠]

حيث زادت كلمة (المساق) ميما عن كلمة(الساق) ، و كلمة المساق : مصدر ميمي لـ "ساق"، والمعنى كما يقول ابن عاشور (إن حمل على ظاهره ، فالمعنى التفاف ساقي المحتضر بعد موته إذْ تُلف الأكفان على ساقيه ، ويقرن بينهما في ثوب الكفن ، فكل ساق منها ملتفة صحبة الساق الأخرى ، فالتعريف عوض عن المضاف إليه، وهذا نهاية وصف الحالة التي تهيأ بها لمصيره إلى القبر الذي هو أول مراحل الآخرة.

ويجوز أن يكون ذلـك تمثـيلا فـإن العـرب يسـتعملون السـاق مـثلا في الشدة ، وجد الأمر ، تمثيلا بسـاق السـاعي ، أو النـاهض لعمـل عظـيم يقولون: قامت الحرب على ساق)(١)، المهم هنا هـو هـذا الصـوت المكـرر (ساق – مساق) وراجـع دلالـة السـين وصـوتها المشـعر بالصرـاخ ، ثـم صوت القاف المشعر بالاستقرار في المقر الأخير ، وبينهما هـذه الألـف التـي تدل على علو صوت الصراخ ، وهذا كله يشترك في تصوير هذه الحالة التـي يجر فيها الإنسان ويسحب من الحياة ليلقى به في مقره الأخير ، القـبر الـذي لا فكاك منه إلى يوم الدين ، كل هذا مشهون في هذه النغمة المكررة الحاملـة معنى النحيب .

ومن طريف الجناس الناقص قول الإمام عبد القاهر، في نفـاق كثـير من الناس ، وتكالبهم على الدنيا :

كـــبر عـــلى العلـــم يـــاخليلي ومـــل إلى الجهـــل ميـــل هـــائم

وعـــش حمـــارا تعـــش ســـعيدا فالســـعد في طـــالع البهـــائم

ولعلك تدرك هذا الشبه القوي بين كلمتي (هائم – والبهائم) فأنت تتوهم أن الكلمة الثانيـة هـي هـي الكلمـة الأولى ، وأنهـا مكـررة للتوكيـد ثم ترجع فتجد أن هـذه الكلمـة ليسـت كسـابقتها ، وهنـا تحـدث الموازنـة والمقارنة ، ويعيد العقل النظر إلى الكلمتين مرة بعد مرة مما يحدث ترسيخا

١ـ التحرير والتنوير ٢٩ / ٣٣٣.

للفائدة ، وتوكيدا للمعنى ، فكأن الشاعر ينصب لك شركا ليجعلك تنظر إلى الكلام عدة مرات ، وهذا من أعجب العجب .

❖ **الجناس المقلوب :**

ويقال له أيضا : جناس العكس ، وعرفه ابن حجة الحموي فقال :

هو الذي يشتمل كل واحد من ركنيه على حروف الآخر من غير زيادة ولا نقص ويخالف أحدهما الآخر في الترتيب ، **كقوله تعالى حكاية عن هارون :**

﴿ ..... إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ ﴾

[سورة طه:٩٤]

فالجناس المقلوب جاء في كلمتي(بين و بني) وكذلك لو راجعت كلمات **مثل** : (يعلمون ويعملون) (وقرب وقبر) فكل كلمة تشتمل على حروف الأخرى لكن الترتيب مختلف، وهذه نغمة جاذبة، وفيها من اللطف والندرة ما يستولي على النفوس لهذا الضرب من الأداء اللفظي الماتع ، وتسمع حديث الرسول – ﷺ **وهو يقول :**

" اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا "

تجد الأذن تنتبه ، وتعطي إشارة إلى توافق الكلمتين ، فتعيد النظر إليهما ، فيتضح هذا القلب بين كلمتي " عورة ، وروعة "، فالجناس المقلوب هو ما اختلفت فيه الكلمتان في ترتيب الحروف ، ومن نماذج الشعر **فيه قول العباس بن الأحنف :**

حسـامك فيـه للأحبـاب فـتح ورمحـك فيـه للأعـداء حتـف

فكلمة (فتح) مقلوب حتف ، وهو قلب كلي ، أي : لجميع الحـروف أما قلب بعض حروف الكلمة ، **فمثاله ما سبق من حديث النبي ﷺ** :

(اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا)

وقول بعض الصالحين :" رحم الله امرءا أمسك ما بين فكيه ، وأطلـق ما بين كفيه " وهذا النوع من الجناس لا يخلوا من طرافة النغم الـذي يـردك إلى اللفظ الأول حين تسمع اللفظ الآخر لتقـف وتقـارن ، وتعقـد موازنـة وتفتق هذه الأصداف ؛ لتخرج ما فيها من روائع .

❖ **الملحق بالجناس :**

يلحق بالجناس كل كلمتين أصلهما اللغوي واحـد ، سـواء كانـا مـن مادة واحدة ، أو من مادتين مختلفتين .

فمثال ذلك قول الله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ..... ﴿٤٣﴾ ﴾ [سورة الروم:٤٣]

فلفظ "أَقِم" ولفظ "القيّم" مشـتقان مـن مـادة لغويـة واحـدة وهـي القاف والواو والميم .

ومثال المادتين المختلفتين قوله تعالى :

﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ [سورة الشعراء:١٦٨]

فالفعل "قال" مشتقٌّ من "القول" وكلمة "القالين" جمع "القالي" وهو المبغض والهاجر، من "قَلاَهُ قِلىً" إذا أبغضه وهجره، ولكن جمع بينهما ما يشبه الاشتقاق، فقد اشتركا في القاف والألف واللاّم، وإن كانَا مِنْ مادّتين مختلفتين. وسواء كان هذا أو ذاك فلا تنس أن القضية في الجناس قضية توافق ألفاظ ، وتناغم حروف حتى تحدث نغما في الأذن تستعذبه النفس وتهش له وتبش .

بلاغة الجناس

حسن الجناس لا يرجع إلى مجرد أجراس الحروف ، وإلى ظاهر الوضع اللغوي ، وإلا لما كان هناك جناس مستقبح ، إنما المزية راجعة إلى أمور أخرى ، **أشار إليها الإمام عبد القاهر حيث قال** :

(إذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعراً أو يستجيد نثْراً ثم يجْعَلُ الثناءَ عليه من حيث اللّفظ فيقول : حُلْوٌ رشيق ، وحَسَنٌ أَنيقٌ وعذبٌ سائغٌ ، وخَلُوبٌ رائعٌ ، فاعلم أنه ليس يُنبئك عن أحوالٍ ترجعُ إلى أجْراس الحروف ، وإلى ظاهر الوضعِ اللغويّ ، بل إلى أمرٍ يقع من المرء في فؤاده، وفضلٍ يَقْتدحُه العقلُ من زِناده)([1]).

---

١ ـ أسرار البلاغة ص٤ .

وهذا المزيج الذي يدركه القلب والعقل هو ما وراء الجناس ، وذلك إذا وقعت الألفاظ المتجانسة في نظم الكلام مواقع متمكنة على وفق مقتضيات المعنى ، وترتيب صورته في النفس .

والمزية الأم هي صياغة الكلام صياغة يتواءم فيها كل لفظ مع ما يعن في الخاطر ، ويختلج في الضمير ، فالكلام المرتب في اللفظ هو صورة المعاني المرتبة في النفس ، وبمقدار ما يلاحظ في اللفظ من دقائق أحوال النفس يكون الكلام ممتازا .

فلا تجد تجنيسا مقبولا حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه فالقارئ والسامع حين يقع على الكلمة المجانسة لسابقتها يظن أن الكلام قد رد عليها وأعادها ، وأنه لن يقع منها على جديد فإذا ما فوجئ بها تنشق له عن جديد وقع ذلك في نفسه موقعا حسنا ؛ لأنها كالنعمة التي تأتي المرء دون توقع ، فتنفض عن النفس حالة الرتابة والإلف ، وتحدث نوعا من الإثارة واليقظة والروعة والاستغراب لأن الشيء يوضع موضعا لم يعهد فيه ، مما يشعرك بالخداع المحبوب ، والوهم المرغوب ، وحسن الزيادة في المعنى ووفائها ، ولا معنى هنا لأجراس الحروف وصليلها ، لأن القضية قضية معنى قبل أن تكون قضية لفظ .

أضف إلى ذلك ما يحدثه اللفظان من محاورة ، داخل العبارة ، وكأن كلاً منهما عاشق يناجي خليله من داخل الجملة ، فلا تملك إلا أن تصغي إليهما ، وتفتح لهما أبواب الأذن ليعلنا صلتهما ، واقترابهما ، حيث كانا من الأرواح التي تعارفت داخل الكلام ، فتآلفت ، وحركت خواطر السامعين وأشاعت في العبارة جوا من الطرب لا ينبغي إغفاله عند تحديد المعاني .

ولا أجد إلا أن أتفق مع الإمام في كل شيء، إلا في دور اللفظ والصوت وصليله، فهو باعث للخواطر ومحرك للعواطف، ومشعل للأريحية والطرب.

السجع

توطئة :

يعتبر السجع الفن الأول في اللسان الإنساني ، حيث تميل النفس إلى تكرار اللفظ لتسمع هذا النغم المتكرر ، لأن الفن في أصله نغم ، والنغم في أصله تكرار ، لذلك يغلب على الظن أن السجع من أوائل الفنون التي عرفها اللسان الناطق ، فضلا عن اللسان العربي ، ولقد شاع هذا الفن على ألسنة كل من يريد التأثير في سامعة ، كالسحرة والمشعوذين ، وكذلك رجال الدين الذين يعتمدون على الكلام المنغم في عباراتهم كالكهان ومن **ذلك قول ابن قتيبة في كتاب الأنواء:**

يقول ساجع العرب: (إذا طلع السَّرَطان، استوى الزمان، وخضِرت الأغصان، وتهادت الجيران، فإذا طلع الدبران توقدت الحزان، وكُرهت النيران يبست الغدران ، ورمت بأنفسها حيث شاءت الصبيان) [1] فالقصد إلى الإيقاع ، وتشابه أواخر الجمل ، وكأن اللفظ مختوم كله بخاتم واحد ولقد اعتنت العرب بذلك اللون من الأداء لأنه أقرب إلى الأسماع ، وأيسر في الحفظ حتى آثروه على غيره ، **وقد قيل لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي** :

١- المزهر في علوم اللغة وأنواعها لجلال الدين السيوطي ٢/ ٤٤٦.

لم تؤثر السجع على المنثور، وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن ؟

قال : إن كلامي لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد ، لقل خلافي عليك ، ولكني أريد الغائب والحاضر، والراهن والغابر ، فالحفظ إليه أسرع والآذان لسماعه أنشط ، وهو أحق بالتقييد ، وبقلة التفلت ، وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عُشره ولا ضاع من الموزون عُشره)[1].

وأصل السجع في اللغة : صوت الحمام وهديله ، يقال : سجَعَت الحمامَةُ أو النَّاقةُ سَجْعاً، إذا رَدَّدَتْ صَوْتَها عَلى طريقةٍ واحدة ، وسجَعَ المتكلّم في كلامه، إذا تكلّم بكلامٍ له فواصل كفواصل الشّعر مُقَفّىً غير موزون ، ويُرجع أهل اللغة هذا المصطلح إلى الحروف الثلاثة (السين والجيم والعين) وقالوا إن هذه الحروف الثلاثة المجموعة في كلمة (سجع) تدلُّ على الصوت المتوازن ، ومن ذلك السَّجع في الكلام، وهو أن يُؤتَى بالكلام وله فواصلُ كقوافِي الشِّعر، كقولهم: "مَنْ قَلَّ ذَلّ، ومن أَمِرَ فَلّ"، **وكقولهم:**

---

١ - البيان والتبيين ١ :١٥٣ وانظر العمد ١ / ١.

"لا ماءَكِ أَبقيْتِ، ولا دَرَنَكِ أَنْقَيْت"[1]

وقالوا أيضا: (سجع يسجع سجعا : استوى واستقام ، وأشبه بعضه بعضا ، والسجع الكلام المقفى ، وسجع تسجيعا : تكلم بكلام له فواصل كفواصل الشعر من غير وزن ، وهو من الاستواء والاستقامة والاشتباه كأن كل كلمة تشبه صاحبتها ، **ومنه سجع الحمام سجعا** :

هدل على جهة واحدة ... (٢)، وهذا الكلام يجعلك تقف على خصيصة السجع ، فهو : التوازن ، وهو الاستواء والاستقامة ، وهو الشبه بين الألفاظ ، حتى يكون النطق على جهة واحدة ، أو بطريق واحد من الأداء ، وهذا كله يعني أننا أمام حالة صوتية ، يعمد فيه المبدع إلى الكلمات التي تكون نغما صوتيا واحدا ، إما بوجودها مع أخواتها أو بانفرادها ، وكلما زادت مساحة الصوت المتوافق في الفقرة مع نظيره في الفقرة الأخرى فنحن أمام مساحة صوتية متناغمة ، متوافقة ، يراد من خلالها شد الآذان ، وجذب الانتباه إلى هذا الصوت .

والعربي قديما اعتاد على توفير أكبر قدر ممكن من عوامل بقاء الكلام على طول السنين ، وكانت التوافقات الصوتية من أهم العوامل التي ساعدت على بقاء كلام المتكلمين ، سواء في الشعر ، أوفي الحكمة

١- راجع ابن فارس في المعجم المفهرس (سجع).
٢- لسان العرب لابن منظور (سجع).

والقاعدة التي ينبغي الالتفات إليها أن النغم الصوتي يحفظ الكلام كما يحفظ الملح الطعام. والعربي قديما أيضا اعتاد أن يقف على آخر الجملة بالسكون ، كما أنه اعتاد على أن يشابه بين مقاطع الكلام ، ويختم كل مقطع بكلمة تتفق مع نظيرتها في الحرف ، كما اتفق المقطع مع المقطع في النغم **وراجع مثلا قول قس بن ساعدة الأيادي** :

(أيها الناس ! اجتمعوا فاسمعوا وعوا : من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، .

وهو القائل : في هذه آيات محكمات ، مطر ونبات وآباء وأمهات وذاهب وآت ، ونجوم تمور ، وبحور لا تغور ، وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع ، وليل داج ، وسماء ذات أبراج ، مالي أرى الناس يموتون ولا يرجعون ؟! أرضوا فأقاموا ، أم حبسوا فناموا ؟!

وهو القائل : يا معشر إياد ! أين ثمود وعاد؟ وأين الآباء والأجداد ؟ أين المعروف الذي لم يشكر ؟ والظلم الذي لم ينكر؟)(١).

وانظر إلى واو الجماعة التي ختمت بها الأفعال الثلاثة الأولى (اجتمعوا –اسمعوا – عوا) ، ثم الألف والتاء في الأفعال الثلاثة التالية (مات – فات – آت) تجد أن الحكيم عمد إلى هذه الأفعال واختار ما يتوافق آخره ليضع المعنى في هذه الأوعية المتشابه ، لتظل العقول ذاكرة

١- العقد الفريد لابن عبد ربه ٤ / ٢١٤.

لهـا مستحضرـة إياهـا ، ومـن هـذا المعنـى اللغـوي سـار المعنـى الاصطلاحي للسجع .

السجع في الشعر والنثر . يقول ابن رشيق :

إن السجع يقع في الشعر كما يقع في النثر)([1])لكن الخطيب ومن قبلـه السكاكي لا يرى السجع نغمة في الشعر ، أو مكونًا من مكونـات القصـيدة لأنه – كما يرون – لا يقع إلا في الفاصلة النثرية ، أو الفقرة النثرية ، **وعرفوه فقالوا هو** :

(تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد)

وزادوا أيضا بأنه لا يكون إلا بالحروف المتحـدة، مثـل انتهـاء الفقـرة **بمثل** : (رشيق – عميق – فريق – دقيق) **أما إذا قيل مثلا** :

رشيق – سميك –) فليس من السـجع ، لأن الكـاف والقـاف ليسـا متحدين ، وإن تقاربا ، **ولذلك يقول الخطيب** : **السجع** :

تواطؤ الفاصلتين على حـرف واحـد مـن النثـر ، وهـذا معنـى قـول السكاكي : السجع في النثر كالقوافي في الشعر) ([2])

وبعيدًا عن هذا التحزب الفكري ، وإيمانا بـأن الـنغم لا يحصرـه نـوع من الأجناس الأدبية ، وأنه في الشعر وفي النثر ، بل إنني أراه في الشعر أقوى وأكثر ، لأن الحالة النغمية في الشعر تزداد وتتكاثر عنها في النثر ، ولا وجه

١- العمدة ٢ / ٣٢.

٢٢- الإيضاح ص ٢٢٢.

لحصر السجع في النثر وأنه تعويض عن القوافي ، لأنه مختلف عنها ، فهو مصدر النغم مثله مثل الوزن في الشعر ، وليس مثل القوافي ، ولذلك ترى الإيقاع الكمي والكيفي في الجملتين تقومان مقام الوزن ، ويعدان حالة من حالات السجع الرائعة ، مثل قول شاكر في القوس العذراء (فهذا يؤج وهذا يعج ، وهذا يخور ، وهذا صَهِل)(١)، فالجملتان الأخيرتان لا تقلان في النغم عن الجملتين الأولتين ، أعني موافقة الجملة الثانية للجملة الأولى حيث تنتهي الثانية بحروف مشابهة للأولى صوتا ، ومادة ، أو صوتا فقط مثل التاء والطاء ، والسين والزاي ، ولفظة الفاصلة **تعني** :

الكلمة الأخيرة من الجملة أو العبارة **مثل** : (مات – فات – آت) والسجع في النثر كالقافية في الشعر أعني: ، وإذا كانت القصيدة في الشعر تأخذ بزمام القارئ في قافيتها لا تحيد به عن الطريق حتى ينتهي منها فكذلك السجع يأخذ بزمام القارئ في النثر لا يحيد به عن الطريق المرسوم في آخر الجمل حتى ينتهي منها .

(ويبدو أن السجع كان الصورة الأولى من التعبير الفني ، ومن الطبيعي أن يظهر على أيدي الكهان في المعابد الكثيرة التي انتشرت هنا وهناك إرواءً لعطش الإنسان العربي إلى الاتصال بالسماء ، ونيل الأمان من القوة الرهيبة التي تغير الفصول وتحيي وتميت ، وتضر وتنفع ، من هنا

١القوس العذراء لمحمود شاكر ص ٣٤.

تقرب الكهان إلى عالم الجبروت والملكوت بجملٍ نمقوها إجـلالاً لـه وهيبة وخوفاً وطمعاً كما يلبس الإنسان أحسن ما عنده عند لقـاء السـلطان أو عند زيارة الأخدان ؛ ليعـبر عـن الاحـترام والتقـدير والمحبـة أو المهابـة وما إلى ذلك ، ولذلك يعد السجع من أبرز الـنغمات والإيقاعـات اللفظيـة وأقواها تأثيرًا في السامع ، لأن صوت السجع أعـلى الأصـوات بـين ألـوان البديع ، ونغمته أشهر النغمات ، لذلك آثره الكهـان في التـأثير عـلى النـاس وأكثروا من استعماله ليكون أداة جذب للآذان ، حتى وإن خلا اللفـظ مـن المعاني العالية ، وحين تتنصت إلى الفن الشعبي الذي يدور في عالمنـا العـربي تلحظ أنه قائم كله ، أو جله على هذا النغم العالي المأخوذ من السجع .

ويسمي العلماء الجملة المسـجوعة بالقرينـة أو الفقـرة ، كـما يسـمون الكلمة الأخيرة في القرينـة بالفاصـلة ، ولعـل هـذا الأمـر راجـع إلى كثـرة السجع في النثر ، وإن كان لا يخلو منه الشعر ، إلا أن وروده في النثـر يغلـب وروده في الشعر ، لأن نغمات الشـعر عاليـة ، وليسـت في حاجـة ماسـة إلى جذب الآذان إليها ، فيكفيها الوزن ، لكن النثـر لمـا كانـت نغماتـه أضـعف استجلب إليه السجع لينافس الشعر في النغم .

ذم السجع

تعرض السجع لحملة تشويه من قبل كثير من العلماء ، ورأوا أنه خال من الفائدة وفيه خداع للناس ، ويستعمله الدجالون من أمثال الكهان ولا يليق نسبة هذا اللون من البديع إلى القرآن الكريم ، لأنه يحط من قدره ويوهم السامع بأن ألفاظه طنطنة فارغة ، لذلك لزم التحذير من نسبته إلى القرآن الكريم ومن هؤلاء العلماء القائلين برفضه ، واستبعاده من القرآن الكريم **برهان الدين البقاعي حيث يقول :**

(السجع لا يليق بكلام الله تعالى ، وقد عابه النبي ﷺ ، لأن الساجع يكونُ محطَ نظره الألفاظ ، فيدير المعاني عليها ويتبعها إياها ، فربما عجز اللفظ عن توفية المعنى ؛ وقد روى البخاري في الطب وغيره من صحيحه ومسلم في الديات وأبو داود والنسائي وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قضى في الجنين - يقتل في بطن أمه - بغرة عبد أو وليدة ، **فقال الذي قضى عليه :**

(كيف أغرم من لا شرب ولا أكل ، ولا نطق ولا استهل ، فمثل ذلك بطل) ؛ **فقال النبي ﷺ : "إنما هذا من إخوان الكهان"** من أجل سجعه الذي سجع ، وفي رواية : فقال النبي ﷺ : "سجع كسجع الأعراب" وذلك - والله أعلم - أنه لو كان نظره إلى المعنى وتصحيحه

لأغنى عن هذا السجع أن يقال : كيف أغـرم مـن لا حيـاة لـه ، ولـو قصد السجع ، وتهذيب المعنى لأتى بما يدل على نفي الحياة التي جعلها محط أمره فإن ما أتى به لا يستلزم نفيها ، ولو تقيد بالصحة لاغتنى بنفـي النطـق عن نفي الاستهلال ، فصح بهذا أنه دائر مع تحسين اللفظ صح المعنـى أم لا وينطبع في عقـل عاقـل أن يكـون النبـي ﷺ يـذم السـجع وهـو يـأتي بـه ويقصده في القرآن أو في السنة ، ولو كان ذلك لأسرعوا الرد عليه .

وذكر أصحاب " فتوح البلاد في فتح مكـران " مـن بـلاد فـارس أن الحكم بن عمرو لما فتحها أرسل بالأخماس مع صـحار العبـدي ، فلـما قـدم على عمر رضي الله عنه سأله عن مكران وكـان لا يأتيـه أحـد إلا سـأله عـن الوجه الذي يجيء منه فقال : يا أمير المؤمنين! أرض سهلها جبـل ، وماءهـا وشل وثمرها دقل ، وعدوها بطل ، وخيرها قليل ، وشرها طويل ، والكثير بها قليل ، والقليل بها ضائع ، وما وراءها شر منهـا ؛ فقـال ، أسـجاع أنـت أم مخبر ؟ فقال : لا بل مخبر ، قال : لا والله! لا يغزوها جيش لي ما أطعت.

فقد جعل الفاروق السجع قسيماً للخبر فدل على أن التقيد به عيـب ؛ لإخلاله بالفائدة أو بتمام الفائدة ، وقد نفى سبحانه عن هذا القـرآن المجيـد تصويب النظر إلى السجع كما نفى عنه الشعر **فإنه تعالى قال:**

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

[سورة الحاقة:٤١-٤٢]

فكما أن قول الشاعر: إتيانه بالكلام موزوناً ، **فكذلك قول الكاهن** :

إتيانه بالكلام مسجوعاً ، والقرآن ليس من هذا ولا من هذا، ثم يختم البقاعي كلامه بتحذير شديد اللهجة **يقول فيه** :

(فإياك أن تجنح لهذا القول فتكون قد وقعت في أمر عظيم وأنت لا تشعر) وكأن تنظيم اللفظ على نسق واحد معصية ، بل من الكبائر !!!

وفي الوقت الذي ترى فيه مثل هذا الإنكار للسجع ترى فريقا آخر يرفع من قدر السجع ، ويشجع على المجيء به في الكلام ، ويرد على الفريق الآخر ومن هؤلاء ابن الأثير في المثل السائر **حيث يقول:**

لا أرى لذلك - يعني ذم السجع - وجها سوى عجزهم أن يأتوا به ؛ وإلا فلو كان مذموما لما ورد في القرآن الكريم فإنه قد أتى منه بالكثير حتى إنه ليؤتي بالسورة جميعها مسجوعة ، كسورة الرحمن وسورة القمر وغيرهما وبالجملة فلم تخل منه سورة من السور ، وقد ورد على هذا الأسلوب من كلام النبي شيء كثير أيضا ، فإن قيل إن النبي قال لبعضهم منكرا عليه - وقد كلمه بكلام مسجوع - :(أسجعًا كسجع الكهان) ولولا أن السجع مكروه لما أنكره النبي ﷺ.

فالجواب عن ذلك أنا نقول لو كره النبي السجع مطلقا لقال (أسجعا) ثم سكت وكان المعنى يدل على إنكار هذا الفعل لم كان ، فلما قال (أسجعا كسجع الكهان) صار المعنى معلقا على أمر وهو إنكار الفعل لم كان على هذا الوجه فعلم أنه إنما ذم من السجع ما كان مثل سجع الكهان

لا غير وأنه لم يذم السجع على الإطلاق ، وقد ورد في القـرآن الكـريم وهو قد نطق به في كثير من كلامه حتى إنه غير الكلمة عن وجهها إتباعا لهـا بأخواتها من أجل السجع ، **فقال لابن ابنته عليهما السلام** :

(أعيذه من الهامة والسامة وكل عين لامة)

وإنما أراد ملمة لأن الأصل فيها من (ألم) فهو(ملم) وكذلك قوله :

(ارجعن مأزورات غير مأجورات) وإنـما أراد : " مـوزورات " مـن الوزر فقال : مأزورات لمكان مأجورات ، طلبا للتـوازن والسـجع ، وهـذا مما يدلك على فضيلة السجع .أهـ .

ولقـد وقـف فريـق مـن أهـل العلـم بـين المجيـزين عـلى الإطـلاق والمانعين على الإطلاق ، وقالوا نقول بوجود السجع في القرآن الكريم لكن تأدبا نطلق عليه مصطلح الفاصلة ، حتى لا يـدخل في دائـرة الكراهـة مـن التشبه بسجع الكهان ، وهذا ضرب من التأدب اللفظي الذي يـريح بعـض الناس .

أنواع السجع

أولا: السجع المرصع .

وهو ما كان التناغم فيه عالي الصوت بحيث تتحد فيه الكلمات في الوزن ، وتتشابه فيما بينها بنائيا ، كما تتشابه في القافية ، ومن نماذج هذا التشابه في الوزن والقافية ، **قول الله تعالى في سورة الغاشية :**

﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾ [سورة الغاشية:٢٥-٢٦]

وراجع هذا النغم المربوط بكلمة (ثم) :

إنّ - إِلَيْنَا - إِيَابَهُمْ - ثم:إنَّ - عَلَيْنَا - حِسَابَهُمْ.

وكأن الفقرتين مقطوعتان من قماشة واحدة ، وعلى نسق واحد ليتبين للقارئ أن الثانية جزء من الأولى ، بل هي الأولى فما كان الإياب إلا من أجل الحساب ، وكلاهما موصول بالله تعالى فهو مرجع الإياب والحساب ، والأمر في كليهما محكوم بأداة التوكيد (إن) وتقديم الخبر (إلينا – وعلينا) ودخول العبارة عالم القصر القائم على المبالغة في التوكيد .. القصد أنك لا تشعر بالفرق بين الجملتين، وكأنهما جملة واحدة، فإلى الله وعلى الله الإياب والحساب، وهذه إضافة يرسمها السجع بنغماته على المعنى .

ومن السجع المرصع أيضا قوله تعالى :

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝١٤﴾ [سورة الانفطار:١٣-١٤]

فالنغم الذي في العبارة السابقة يرسم مع التقابل صورة صوتية تبين ملامح العدل في الحساب ، فلكل الجزاء الوفاق ، وساعدت النغمة السجعية على رسم المكانين المتقابلين لتنظر إليهما العين دفعة واحدة وتسمعهما الأذن على (تون)(١)، واحد من الموسيقى ، فتآذر اللونين البديعين (المقابلة والسجع) جعل الميزان متعادلا ، وكأنك ترى وتسمع هذه القسمة العدل (صوتا وصورة) صوتا بالسجع ،وصورة بالمقابلة وهذا باب آخر يحتاج إلى دراسة ، وهو تفاعل الألوان البديعية في توضيح المعنى .

ومنه أيضا قول النبي ﷺ :(الطاعم الشاكر كالصائم الصابر)(٢) وراجع الكلمات في الجملة الأولى ، وما يوازيها في الجملة الثانية ورددها على سمعك لتسمع النغم **وقل** :

(الطاعم – الصائم) (الشاكر الصابر) وانظر بعد ذلك إلى الحرف الأخير من كل كلمة ، وبنائها ، وسمتها ، ورغبة المتكلم في إيصال هذا الصوت العالي ؛ ليصاحب المعنى عند تدبر الدلالة ، فيترسخ مع المراد هذا النغم ، ويوقن القلب أنه لا فرق بين طاعم وصائم فكلاهما واحد ، مادام

١- التون هي المسافة بين درجة السلم الموسيقى والدرجة التى تليها .و من الممكن تسمية التون بالنغمة ونغمات السلم الموسيقي كما يقول أهل هذا الفن هي : (دو – ري – مي – فا – صو – لا – سي – دو)
٢- أخرجه البخاري عن أبي هريرة باب الطاعم الشاكر مثل الصائم الصابر ٥/ ٢٠٧٨.

اتحد الصائم مع الصابر ، بل إنك لا تكاد تشعر بـالفرق بـين الطـاعم والصائم ، ولا بين الصابر والشاكر ، فلقد دخل هذا في ذاك ، وذاك في هـذا وهذا ما فعله السجع حين وحد بين الألفاظ ، ودمجها في إطار واحد وفـرق كبير بين دلالة تمتطي إلى القلب طريقا متعرجـا ، ودلالـة أخـرى تسـبح إلى القلب على نغم متوافق متلاق عذب رقراق .

ثم أنقل لك مـن الشـعر هنـا مـا يمثـل هـذه الحالـة النغميـة ، وهـي من ديوان ابن النبيه حيث يقول من بحر الكامل :

(قس بالسـماء الأرض تعلـم أنهـا　　بكواكب الأزهار أحسن زخـرف)

(أحداق نرجسـها بخـد شـقيقها　　مبهوتـــة لجمالـــه لم تطـــرف)

(والطــل في زهـر الأقـاح كأنــه　　ظلـم ترقـرق في ثنايـا مرشـف)

(راق الزمان وراق كـأس مـدامنا　　ورضاب ساقِينا الأغن الأهيـف)

(فمزجـــت ذاك بهـــذه وشربتهـــا　　ولثمتـــه وضـــممته بتعطـــف)

(وجنيت من وجناته لمـا اسـتحى　　وردا بغـير مراشـفي لم يقطـف)

(ورنـــا إلي بطرفـــه فكـــأنما　　أهدى السقام لمدنف من مـدنف)

(بتنا وقد لـف العنـاق جسـومنا　　في بـــردتين تكـــرم وتعفـــف)

(حتى بدا فلق الصباح كجحفـل　　راياتـه رنـك المليـك الأشرف)

(ملــك بيـــاض يمينـــه لســـميه　　موسى ومنظره البديع ليوسـف)

(تشتام ظاهره العيون وتقتدي منه العقول بسر معجزة خفي)

(ويريك من آرائه وعطائه تحرير نحرير وبذل مجزف)

(وعلى متون الجرد أظلم ظالم وعلى سرير الملك أنصف منصف)

(فحريق جمرة سيفه للمعتدي ورحيق خمرة سيبه للمعتفي)

(يا بدر تزعم أن تقاس بوجهه وعلى جبينك كلفة المتكلف)

وراجع هذا البيت قبل الأخير تجد كلمات كل شطر متماثلة في الوزن النغمي ، وفي الحرف الأخير ، ثم حاول أن تنطق كل لفظتين معا ليتبين لك هذا الصوت المتناغم (فحريق – ورحيق) (جمرة – خمرة) (سيفه – سيبه) (المعتدي – المعتفي) ، ولعلك تلحظ المقابلة في المعنى ، كما تجد المماثلة في الوزن العروضي الباعث على اتحاد النغمة مع تقابل المغزى، ليرسم لك الشاعر مع تناقض الصورتين مشهدا آخر لاتحادهما في الصوت ، وهذا من بديع الكلام ورائعه.وهنا أكرر عليك أن هذا النمط من السجع يوضع في أعلى مراتبه صوتا ونغما ، لوجود التماثل بين الفقرتين ، أو بين الشطرين في الوزن والقافية ، مما يجعل الكلام أشبه بالمقطوعة الموسيقية .

السجع المتوازي .

وفيه تكون الفقرتان متفقتين في الـوزن وفي الحـرف الأخـير ، ولكـن الخلاف في الكلمتين السابقتين عليهما ، **كما في قوله تعالى** :

﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الغاشية:١٤]

فالاتفاق قـائم بـين (مرفوعـة وموضـوعة) والاخـتلاف قـائم بـين (سرر و أكواب)، فانتقل السجع من نغم إلى نغم آخر ، ومن صوت متفـق في الكلـمات كلهـا ، وهـو الكـائن في السـجع المرصـع إلى صـوت متفـق في خواتيمه ، ومختلف فيما قبل الخواتيم ، ولا شـك أن النغمـة هنـا تختلـف بحيث تتنوع في بداية الجملـة ، وتتحـد في ختامهـا لتنقـل إلى السـامع هـذه الفسحة والتنوع بين النغمتـين (سرر) و (أكـواب) فالحـديث عـن الجنـة وكثرة ما فيها من نعم ، وتنوع هذه النعم ، وتعددها ، فهنـاك سرر ، وهنـاك أكواب ، ووظيفة كل منهما تختلف عن الأخرى ، فكان لا بد من التنوع وإن كـان القصـد هـو النعـيم ، وهـذا متحـد في النغمـة الأخيرة(موضـوعة ومرفوعة)وأنا هنا أريدك أن تفتش عما أقول داخل أذنك أولا ، ثـم عقلـك ثانيا ، لعلك تجد ما أجد . ولاحظ مثل ذلك في قول رسول الله ﷺ رحمه الله

(اللهم إني أدرأ بك في نحورهم، وأعوذ بك من شرورهم)

فالاختلاف في كلمتي:(أدرأ ، وأعوذ) لم يثر الأذن للإصغاء للنغم

ثم فاجأها هذا الاتفاق بين (نحورهم وشرورهم) فاستعادت الأذن نشاطها ، وانتبهت إلى هـذا التوافـق ، ولاحـظ مثـل ذلـك في قـول سـيدنا علي رضي الله عنه :

(كَثْرةُ الوِفَاقِ نِفَاقٌ، وَكَثْرَةُ الخِلاَفِ شِقَاقٌ)

فالاتفاق قائم بين (نفاق وشـقاق)، ولكـن قـبلهما اختلفـت كلمتـا (الوفاق والخلاف) فأضيف إلى المعنى المراد صوتا يختم هذا المعنـى بخـاتم النغم الذي يحفظ الدلالة ، فأنا أرى في الـنغم المتوافـق خاتمـا يخـتم الدلالـة بالحفظ ، لأن العرب تحفظ معانيها بالنغم ، لذلك حفظ الكثـير مـن الشـعر وضاع الكثير من النثر ، بسبب دمغ الشعر بـالنغم ، وخلـو أكثـر النثـر منـه فكان السـجع عامـة رافـدا مـن روافـد الحفـظ ، أو مـادة حافظـة تضـاف إلى المعاني لتحميها من النسيان .

السَّجْعُ الْمُطَرَّف.

والتطرف هنا يعني تـأخير النغمـة إلى آخـر الفقـرتين بحيـث تكـون الكلمتان الأخيرتان متفقتـين في الحـرف الأخـير ، مـع اخـتلاف الفقـرتين في الـوزن ، وهـذا يخـالف النـوعين السـابقين ، أعنـي (السـجع المرصـع والسـجع المتـوازي) حيـث تتوافـق الفقرتـان في الـوزن كليـا أو جزئيـا فالتوافق الكلي في السجع المرصع ، والتوافـق الجزئـي في السـجع المتـوازي لكننا هنا لسنا في شأن وزن متوافق ،ولكن في شأن الحرف الأخير من

الفقرتين ، فهو المعول عليه في التوافق النغمي ، وكأنه وكاء المعنى وقفله الذي يختمه ، **ومثال ذلك قوله تعالى : حكايةً عن قول سيدنا نوح لقومه :**

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [سورة نوح:١٣-١٤]

وهنا اقتصر التوافق على الحرف الأخير من الفقرتين :

(وقارا ، وأطوارا) ، واختلف قبلهما كل شيء ، فضاقت النغمة وانحصرت في الحرفين الأخيرين . **ومن السجع المطرّف أيضا قوله تعالى:**

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾﴾ [سورة المدَّثر:٦-٧]

فالراء هنا كانت النغمة الرابطة بين الفقرتين حين تقف على كل جملة بالسكون، كما هو معتاد في التلاوة.

التشطير

وهذا قسم خاص بالشعر ، لأن الشاعر يقسم بيته قسمين ، فيوحد النغم الكلمي بينهما ، لكنه يخالف في الحرف الأخير من كل شطر ، **يقول ابن حجة الحموي :**

(أن يكون لكل نصف من البيت قافيتان مغايرتان لقافيتي النصف الأخير)،وأشهر مثال في هذا هو بيت أبي تمام الكائن في بائيته البديعة **وفيها يقول :**

(لَوْ يعلمُ الكفرُ كمْ منْ أعصرٍ كمنتْ لَهُ العَواقِبُ بَيْنَ السُّمْرِ والقُضُبِ)

(تَدْبيرُ مُعْتَصِمٍ بِاللهِّ مُنْتَقِمٍ للهِ مرتقبٍ في اللهِ مُرتغبِ)

(ومُطعَمِ النَّصرِ لَمْ تَكْهَمْ أَسِنَّتُهُ يوماً ولاَ حُجبتْ عنْ روحِ محتجبِ)

(لَمْ يَغْزُ قَوْماً ، ولَمْ يَنْهَدْ إِلَى بَلَدٍ إلاَّ تقدَّمهُ جيشٌ من الرَّعبِ)

(لوْ لمْ يقدْ جحفلاً ، يومَ الوغى ، لغدا منْ نفسهِ ، وحدها ، في جحفلٍ لجبِ)(١)

وراجع هذا النغم العالي ، الذي لا يقل عن التصريع إلا في مخالفة الحرف الأخير من كل شطر مع ما يوازيه ، وهذا النغم أضفى على البيت قوة ، وصلابة جعلته يفوق نظائره في القصيدة حتى صار مضرب المثل وراجع أيضا تكرار اسم الله تعالى في البيت مع حروف الجر المتنوعة ولا تنسى الوقوف على اسم الفاعل من الرباعي وهو مكرر أربع مرات وكل ذلك يبين لك مدى الصنعة التي أحكمها أبو تمام حتى ملأ البيت بعوامل الخلود للشعر ، من توافق نغمي من الوزن العروضي ، إلى التوافق النغمي من تكرار اسم الله تعالى ،إلى توافق نغمي من تكرار صيغة اسم الفاعل من الفعل الرباعي ، كل هذه التوافقات ، ويبقى اختلاف واحد وهو حرف الميم في الشطر الأول حيث خالف حرف الباء في الشطر الثاني وإن كانا متوافقين مخرجا ، فكلاهما حرف شفوي .

١- خزانة الأدب ٢ / ٢١٤.

السجع بين الطول والقِصَر

ثم إن السجع بعد ذلك ،أو إن شئت قل النغمة بعد ذلك قد تكون قصيرة ، حادة شديدة الوقع على الأذن أو متوسطة الطول ، أو طويلة وأقف معك على كل نغمة ، **لنتعرف على دلالتها العامة :**

أولا:النغمة القصيرة .

وأعرض عليك هنا سورة المرسلات لترهف لها السمع ، وتترك للأذن مجالا يخبرك عن الشعور الذي يصل إلى القلب من هذه الطرقات المتتابعة المتلاحقة القصيرة الشديدة .... **اسمع :**

رَضِيَ عَنْهَا وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ

وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٤١﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٢﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٤٣﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٤﴾ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ﴿٤٧﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٠﴾ [سورة المرسلات:١-٥٠]

يقول الشيخ المطارد حيًا وميتًا- رحمه الله - (هذه السورة حادة الملامح ، عنيفة المشاهد ، شديدة الإيقاع ، كأنها سياط لاذعة من نار . وهي تقف القلب وقفة المحاكمة الرهيبة ، حيث يواجه بسيل من الاستفهامات والاستنكارات والتهديدات ، تنفذ إليه كالسهام المسنونة!

وتعرض السورة من مشاهد الدنيا والآخرة، وحقائق الكون والنفس ومناظر الهول والعذاب ما تعرض ، **وعقب كل معرض ومشهد تلفح القلب المذنب لفحة كأنها من نار :**

{ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ }

ويتكرر هذا التعقيب عشر مرات في السورة . وهو لازمة الإيقاع فيها وهو أنسب تعقيب لملامحها الحادة ، ومشاهدها العنيفة،وإيقاعها الشديد .

وهذه اللازمة تذكرنا باللازمة المكررة في سورة « الرحمن » عقب عرض كل نعمة من نعم الله على العباد :

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة الرحمن:١٣]

كما تذكرنا باللازمة المكررة في سورة القمر عقب كل حلقة من حلقات العذاب :

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة القمر:١٦]

وتكرارها هنا على هذا النحو يعطي السورة سمة خاصة ، وطعماً مميزاً حاداً . .

وتتوالى مقاطع السورة وفواصلها قصيرة سريعة عنيفة ، متعددة القوافي . كل مقطع بقافية، ويعود السياق أحياناً إلى بعض القوافي مرة بعد مرة . ويتلقى الحس هذه المقاطع والفواصل والقوافي بلذعها الخاص وعنفها الخاص . واحدة إثر واحدة . وما يكاد يفيق من إيقاع حتى يعاجله إيقاع آخر ، بنفس العنف وبنفس الشدة .. ومنذ بداية السورة والجو عاصف ثائر بمشهد الرياح أو الملائكة :

﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴾

[سورة المرسلات:١-٥]

وهو افتتاح يلتئم مع جو السورة وظلها تمام الالتئام ، وللقرآن في هذا الباب طريقة خاصة في اختيار إطار للمشاهد في بعض السور من لون هذه المشاهد وقوتها ، وهذا نموذج منها ، **كما اختار إطاراً من:**

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة الضُّحى:٢]

لمشاهد الرعاية والحنان والإيواء في « سورة الضحى » وإطاراً من

العاديات الضابحة الصاخبة المثيرة للغبار لمشاهد بعثرة القبور وتحصيل ما في الصدور في سورة « والعاديات » . . وغيرها كثير .

وكل مقطع من مقاطع السورة العشرة بعد هذا المطلع ، يمثل جولة أو رحلة في عالم ، تتحول السورة معه إلى مساحات عريضة من التأملات والمشاعر والخواطر والتأثرات والاستجابات ،أعرض بكثير جداً من مساحة العبارات والكلمات، وكأنما هذه سهام تشير إلى عوالم شتى !أهـ) (١).

ولن تجد أحدا يسمعك نغم وإيقاع القرآن الكريم مثل الشيخ سيد قطب – رحمه الله – فهو الوحيد – فيمن أعلم – الذي يدخلك على عالم القرآن الكريم من نافذة الصوت والصورة ، وهما أوسع نافذتين للوصول بالمعاني إلى القلوب ، **ولذلك يعقب على إيقاع هذه السورة بقوله** :

(وهكذا يمضي القلب مع سياق السورة السريع ، وكأنه يلهث مع إيقاعها وصورها ومشاهدها ، وفي هذه السورة جدة في مشاهد جهنم ،وجدة في مواجهة المكذبين بهذه المشاهد . كما أن هناك جدة في أسلوب العرض والخطاب كله . ومن ثم تبرز شخصية خاصة للسورة . حادة الملامح . لاذعة المذاق . لاهثة الإيقاع!) (٢)، لاحظ هذه الجملة "لاهثة

١- في ظلال القرآن الكريم ٦/ ٥٨٠.
٢- السابق ٦ / ٥٨١.

الإيقاع "، وكأن السورة تجري بك جريا على خطى منتظمة ، متوافقة فتحدث مع الإسراع نغما يحركك ، ويشدك إليه ويدخلك في عالمه ، وهذا من أمتع ما يكون تأثيرا في النفس البشرية .

ثانيا:النغمة المتوسطة .

ومثالها الشائع قوله تعالى :

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾﴾ [سورة القمر:١-٣]

وهنا تجد النغم يعطيك فرصة للتنفس بين أركانه ، و يمهلك إمهالة بين نغماته ، فتراك تنظر إلى الجملة الأولى ثم لا تلبث أن تأتيك النغمة المتوافقة في السجع لتختم لكما حصلته في معنى الجملة السابقة ، إن الأمر هنا أشبه بالكرةِ بعد الكرة ، وهذا ضرب آخر من التوافق السجعي الذي يجعل لجملة النغم دورا آخر في الدلالة ، إنه جواب للجملة الأولى ، أورد عليها أو توافق آخر بنغم آخر ليكون اللفظ في الجملة الأولى بداية واللفظ الآخر في الجملة الثانية ختام سريع لهذه البداية ، فبمجرد أن تقول " اقتربت الساعة " تأتيك " وانشق القمر " لتكون دليلا على اقترابها حتى لا تبعد بك الظنون عن هذا المعنى الأول ، ثم يقال " وإن يروا آية " فتلحقها أخرى بأنهم " يعرضوا ويقولوا سحر مستمر " وكأن الثانية تسعفك بالذي يترتب

على الجملة الأولى ، وهكذا إذا تتبعت هذه النغمة المتوسطة وجدتها تدور في فلك الأمر وجوابه ، أو البداية والختام السريع لها ، وهذا ضرب آخر من الإيقاع .

ثالثا:النغمة الطويلة :

كما في قوله تعالى :

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾ [سورة الأنفال:٤٣-٤٤]

والأمر هنا مختلف تماما عما سبق لأنك هنا في ساحات تجول فيها وتصول ثم تريد الخروج فتجدك أما بوابة واحدة للخروج ، بوابة متحدة الصوت ، لتشعرك أنك سياق متحد الدلالة ، متفق الغرض ، يوصيك بأن تظل على هذا الدرب ، وراجع هذا في القرآن الكريم كله تجده على هذه الشاكلة ، فالفاصلة واحدة ، والنغمة الخاتمة للآيات نغمة واحدة ، فهي أشبه بالخاتم الذي يختم المعاني ، أو صك الملك الذي يوضع على كل رسالة منه ، وحين يبدع المبدعون من الناس ، ويأتي إبداعهم على هذا الضرب من اليسر والتوافق فإن الأمر يحسن جدا ، **يقول ابن سنان:**

(والسجع محمود إذا وقع سهلاً متيسراً بلا كلفة ولا مشقة، وبحيث يظهر أنه لم يقصد في نفسه ولا أحضره إلا صدق معناه دون موافقة لفظه ولا يكون الكلام الذي قبله إنما يتخيل لأجله ورُدّ ليصير وصلةً إليه، فإنا متى حمدنا هذا الجنس من السجع كنا قد وافقنا دليل من كرهه وعملنا بموجبه، لأنه إنما دل على قبح ما يقع من السجع بتعمل وتكلف.

ونحن لم نستحسن ذلك النوع ووافقنا أيضاً دليل من اختاره لأنه إنما دل به على حسن ما ورد منه في كتاب الله تعالى وكلام النبي ﷺ والفصحاء من العرب. وكان يحسن الكلام ويبين آثار الصناعة ويجرى مجرى القوافي المحمودة، والذي يكون بهذه الصفات هو الذي حمدناه واخترناه وذكرنا أنه يكون سهلاً غير مستكره ولا متكلف.

وقد حكى الجاحظ عن بشر بن المعتمر أنه قال في وصيته في البلاغة إذا لم تجد اللفظة واقعة موقعها، ولا صائرة إلى مستقرها، ولا حالة في مركزها؛ بل وجدتها قلقة في مكانها، نافرة من موضعها؛ فلا تكرهها على القرار في غير موطنها فإنك إذا لم تتعاط قريض الشعر الموزون، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور، لم يعبك بترك ذلك أحد. وإذا أنت تكلفتها ولم تكن حاذقاً فيها عابك من أنت أقل عيباً منه، وأزرى عليك من أنت فوقه)[1].
راجع سر الفصاحة

١- سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص ٣٤١.

التحرز من مصطلح السجع :

يرى بعض أهل العلم أن السجع موجود في القرآن الكريم لكنه يتورع من إطلاق لفظ السجع عليه لورود الذم في سجع الكهان ، وقال آخرون إن سبب تغيير المصطلح (أن السجع هو الذي يقصد في نفسه ثم يحمل المعنى عليه، أما الفواصل فهي التي تتبع المعاني، ولا تكون مقصودة في أنفسها.

قال علي بن عيسى الرماني: إن الفواصل بلاغة، والسجع عيب وعلل ذلك بما ذكرناه من أن السجع تتبعه المعاني والفواصل تتبع المعاني **يقول ابن سنان : وهذا غير صحيح والذي يجب أن يحرر في ذلك أن يقال:** إن الأسجاع حروف متماثلة في مقاطع الفصول ، **أما الفواصل فهي على ضربين:**

- ضرب يكون سجعاً وهو ما تماثلت حروفه في المقاطع .
- وضرب لا يكون سجعاً وهو ما تقابلت حروفه في المقاطع ولم تتماثل ولا يخلو كل واحد من هذين القسمين أعني المتماثل والمتقارب من أن يكون يأتي طوعا سهلا وتابعا للمعاني وبالضد من ذلك؛ حتى يكون متكلفاً يتبعه المعنى، فإن كان من القسم الأول فهو المحمود الدال على الفصاحة وحسن البيان، وإن كان من الثاني فهو مذموم مرفوض)[1].

١- راجع سر الفصاحةلابن سنان الخفاجي ص ١٧٦- بتصرف .

الفصل الثالث
فنون التماثل

توطئة

الجمع بين الأشياء المتناظرة ، أو التي ترتبط برباط ما شيء في سوس العقل ، تراه يصنع ذلك دون مقدمات ، فالفطرة البشرية مجبولة على النظر في المتماثلات ، والبحث عنها ، والتعليل لها ، وحين خلق الله تعالى الخلق جعل من كل شيء زوجين لينبه إلى هذه الحقيقة حقيقة التماثل بين الأشياء **فقال سبحانه :**

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [سورة الذاريات:٤٩]

والزوجين هنا بمعنى جزئين متشابهين في الأصل ومختلفين في السمات والتفاصيل الدقيقة ، وإذا كان هذا في كل شيء ، فهو قائم في الكلام بكل وضوح حتى أنك ترى الطفل الصغير يحاول مماثلة الكبير في كلماته ، فينسج الألفاظ على غرار الألفاظ ، ففي التماثل خفة في النطق وتقريب للمسافات بين الأطراف ، ونظرية النظم عند الإمام عبد القاهر ترسخ فينا هذا المفهوم فتأمر بالجمع بين المتماثلات ، فلا تقل : (زيد شاعر وعمرو كاتب) إلا إذا كان زيد بسبب من عمرو ، فالتماثل : علاقة وطيدة في الكلام تجمع أصحاب الصلات المتشابة .

المهم أن العقل يستحضر المثيل مع المثيل ، والنظير مع النظير ، حتى لكأنك وأنت تنتقل من طرف إلى طرف لا يسترعي انتباهك هذا الانتقال لأن الدماء السارية في سوس الكلام دماء واحدة ، وروح واحدة ، وقديما كان الحسن في أن تقول البيت وأخاه ، ويقبح أن تقول البيت وابن عمه ونحن هنا نحاول أن نكشف ألوان البديع التي تدخل تحت دائرة التماثل .

المشاكلة

المشاكلة : مفاعلة من الشكل ، تقول فلان شكل فلان ، بمعنى مثله وشاكلتُهُ بمعنى صنعت صنيعه ، وتشبهت به ، ويقولون : الطيور على أشكالها تقع ، أي تنزل إلى الأرض حين ترى طيورا مثلها ، ومن نوعها .

والمشاكلة في الاصطلاح :

ذكر الشيء بلفظ غيره ؛ لوقوعه في صحبته ، تحقيقا أو تقديرا بمعنى عند ذكره صراحة أو ضمنا ، **وهذا يقسم المشاكلة قسمين** :

١ – **المشاكلة التحقيقية** : وفيه يذكر اللفظ المشاكِل،والمشاكَل في الجملة .

٢ – **المشاكلة التقديرية**:وفيها يذكر اللفظ المشاكِل صراحة ، أما اللفظ المشاكَل فمقدر ، ومفهوم من السياق ، **ومثال الأول : قول الله تعالى :**

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ .... ﴾ [سورة الشورى:٤٠]

فكلمة سيئة " الثانية يفهم منها العقوبة ، والجزاء ، فليس الرد والعقاب سيئة ، ولكنه ذُكر بلفظ السيئة ليشاكل اللفظ الأول ، وليحذر من يعاقب ألا يزيد ولا يعتدي ، بل يتخوف مما يدفعه إلى العفو .

وفي قوله تعالى :

﴿ ..... فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [سورة البقرة:١٩٤]

تجد جملة " فاعتدوا " : يراد منها رد العدوان ، ورفض الظلم ومجابهة الباطل ، وهذه المعاني كلها وضعت في إطار العدوان ، مشاكلة للفظ العدوان في العبارة الأولى ، فما البلاغة في هذا ؟

إن الآية تهدف – كما أرى – إلى الحيطة والحذر عند الأخذ على يد الظالم وصد عدوانه ، لأن النفوس ساعتها تتشبث بالانتقام ، وروح الانتقام روح في الغالب ظالمة ، قاسية ، مدمرة ، فكان لا بد من زجرها حتى تلتزم العدل في الرد ، ولأجل هذا عبر عن صد العدوان بالعدوان ؛ ليحتاط كل مظلوم ؛ من أن يتحول إلى ظالم ، دون أن يدري .

ولعل بيت عمرو بن كلثوم يوضح هذا المعنى حيث قال :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلين

فهنا روح الانتقام جعلت الرد ليس جهلا ، وإنما ما هو فوق الجهل فالمشاكلة هنا أراد بها الشاعر أنهم يردون الصاع صاعين ، والكيل كيلين

ومن نماذج المشاكلة المشهورة على ألسنة القوم قول الشاعر :

وجماعة قصدوا الصبوح بسحرة وأتى رسولهم إليّ خصوصا

قالوا : اقترح شيئا نجد لك طبخه قلت اطبخوا لي جبة وقميصا

حيث عبر الشاعر عن الخياطة بالطبخ ، لسببين :

الأول: أن السياق سياق رحلة ، وطعام ، وهذا يناسبه الطبخ ، وبخاصة بعد أن سألوه ماذ نعد لك من ألوان الطعام.

والآخر: أنه ينبههم إلى حاجته الماسة إلى الثياب ، وطبخ الثياب أولى بالنسبة له من طبخ الطعام .

ومن النماذج الجيدة في ذلك قول أبي تمام :

من مبلغ أفناء يعرب كلها   أني ابتنيت الدار قبل المنزل

فلفظة " ابتنيت " تعنى : اصطفيت ، واخترت ، ولكنها جاءت في صورة البناء لتناسب وتشاكل بناء المنزل ، وكل ما سبق تلحظ فيه اللفظ المشاكل ، وقد ذكر معه قرينه الذي ناسبه .

النوع الثاني من المشاكلة : المشاكلة التقديرية ، وفيها يقدر اللفظ الذي تبنى عليه المشاكلة ، **وذلك كما في قول الله تعالى :**

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

[سورة البقرة:١٣٨]

وهذه الآية تعيد الناس إلى أفعال النصارى، حين يغمسون أولادهم في ماء يسمونه: ماء المعمودية ، ويطلقون على هذه العملية : عملية التعميد والقصد منه تطهير الإنسان من المعتقدات الأخرى .

فذكر القرآن الكريم أن الصبغة التي صبغ الله بها قلوب المسلمين هي أحسن وأطهر من صبغتهم الحسية التي يغسلون بها الجسد ، فتطهير القلوب أحسن من تطهير الأجساد ، وقال أحد الناس للخليفة **وقد رآه يغرس شجرا حول المسجد :**

إن الولاية لا تدوم لواحد   إن كنت تنكره فأين الأول ؟

واغرس من الفعل الجميل غرائسا   فإذا عزلت فإنها لا تعزل

فهو هنا استخدم الفعل " اغرس " لمصاحبته لفعل الأمير أو الخليفة على سبيل المشاكلة التقديرية ، والناس جميعا يستخدمون هذا النوع من التعبير ، فيعبرون باللفظ الموافق للفعل أو الحال الذي يرونه .

والمشاكلة ضرب من الاستعارة عند بعض العلماء ، وعلاقتها المشابهة بين اللفظ الأول واللفظ الثاني ، وهي عند آخرين تكرار لفظي ، وعند آخرين مجاز مرسل علاقته السببية ، لكن الجميع لم يخرجها من عالم البديع سواء كانت محسنا معنويا ، أو محسنا لفظيا ، وهذا ما أميل إليه .

تشابه الأطراف

هذا اللون من البديع معني بأطراف العبارات والأبيات الشعرية وقبل كل ذلك وبعده أطراف الآيات ، والتشابه هنا يشمل التشابه اللفظي وكذلك التشابه المعنوي ، وإن كانت بدايته خرجت من التشابه المعنوي **حتى أن الخطيب القزويني عرفه في الإيضاح بقوله:**

(هو أن يتمم الكلام بما يناسب أوله في المعنى)

فالمتكلم يراعي في ختام كلامه ما يناسب أوله في المعنى ومثلوا لهذه المناسبة ، **بقول الله تعالى:**

﴿ لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾

[سورة الأنعام:١٠٣]

فالفاصلة في الآية ناسبت المعنى الذي تحدثت عنه الآية في جملتين وتكونت هذه الفاصلة من خبرين الأول هو (اللطيف) واللطف هو الدقة والخفاء عن العيون مما يجعل الشيء لا يرى،**وهذا المعنى يناسب قوله تعالى :**

" لا تدركه الأبصار " أما : " الخبير " فهو العليم بالأمور ظاهرا وباطنا ، وهذا يناسبه جملة : " وهو يدرك الأبصار " وبهذا تشابهت أطراف الآية من حيث المعنى ، وهذا يحتاج إلى فضل تأمل كما ترى .

وأفسح العلماء لهذا الضرب من التناسب الباب فأدخلوه إلى باب التناسب اللفظي ، أو مراعاة النظير، وجعلوا تشابه الأطراف في التناسب

بين الألفاظ ،وهذا أمر لا أتفق فيه معهم ، لأن هـذا اللـون فـن قـائم بذاته لأنك إما أن تردد اللفظ الـذي ختمـت بـه ، بحيـث تبـدأ بـه الفقـرة الجديدة أو تجعل قافية البيت الأول مفتتح البيت الثاني ، وتجعل قافية البيت الثاني أول البيت الثالث فالغاية هنا ربط الأبيات بهذا الربـاط اللفظـي ، أو ربط الجمل بهذا الرباط اللفظي ، فتشـابه الأطـراف في حقيقتـه ربـاط بـين مفاصل الكلام ، بين جمله وتراكيبه ، أو بين الأبيات الشعرية بعضها البعض ، أو بين الآيات القرآنية ، لكن الرباط هنا بالألفاظ المتشابهة ، ومثـال ذلـك في القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿....مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ....﴾

[سورة النور:٣٥]

لاحظ هنا هذا الرباط بـين الجمـل ، وكـأن كـل جملـة آخـذة بحجـز ما بعده ومشدودة إليها بهذا الربط الظاهر الجلي ، وكان من الممكن أن يقـال في غير القرآن الكريم : مثل نوره كمشكاة فيهـا مصـباح في زجاجـة كأنهـا كوكب دري ، لكن الرباط هناك في الآيـة أحكـم وأظهـر، وكـذلك الحـال في كل ما جاء على هذه الشاكلة .

وإليـك بعضـا مـن نـماذج تشـابه أطـراف في المعنـى ، ولا تـنس أن مقصوده أن تختم الفقرة بما يناسـب ابتـداءها في المعنـى ، فيتشـابه الطرفـان في المعنى بحيث تضع في آخر البيت أواخر العبـارة مـا يتوافـق مـع بـدايتها **ومن ذلك قوله تعالى:**

﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ ﴾

[سورة الحج:٦٤]

ففاصلة الآية بدأت بالغني وهي مناسبة جدا لقوله في أول الآية :

له ما في السماوات وما في الأرض ، لأنه جملة تشعر بأن الامتلاك كان عن حاجة ، فقيل " هو الغني " ليبطل هذا المفهوم ويبين أن امتلاكه ليس عن احتياج ، ثم قيل " الحميد " لبيان أن امتلاكه للسماوات والأرض وما فيهن يجود به على خلقه وهذا يستوجب الحمد .

ومن ذلك أيضا بل من خفيّ هذا الضرب كما يقول الخطيب القزويني ما تراه في قوله تعالى:

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾

[سورة المائدة:١١٨]

فإن قوله: {وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ} يوهم أن الفاصلة "الغفور الرحيم" ولكن إذا أُنعم النظر عُلم أنه يجب أن تكون ما عليه التلاوة ؛ لأنه لا يغفر لمن يستحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه؛ فهو العزيز؛ لأن "العزيز" في صفات الله هو الغالب، **من قولهم:**

"عزه يعزه عزا" إذا غلبه، ومنه المثل: "من عَزّ بَزّ" أي: من غلب سلب ، ووجب أن يوصف بالحكيم أيضا ؛ لأن الحكيم من يضع الشيء في محله ، والله تعالى كذلك، إلا أنه قد يخفى وجه الحكمة في بعض أفعاله ؛

فيتوهم الضعفاء أنه خارج عن الحكمة ؛ فكان في الوصف بـ "الحكيم" احتراس حسن، أي: وإن تغفر لهم -مع استحقاقهم العذاب- فلا معترض عليك لأحد في ذلك، والحكمة فيما فعلته) [1].

ومن نماذج تشابه الأطراف في الحديث الشريف ما أخرجه البخاري عن ابي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

(سَتَكُونُ فِتَنٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ الْقَائِمِ وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ الْمَاشِي وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنْ السَّاعِي مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ فَمَنْ وَجَدَ مِنْهَا مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ) [2].

والبناء التركيبي للحديث يصور لك هذا التداخل بين الكلام حتى اختلط الأمر على الناس فهناك قاعد وقائم ، وماشٍ وساعٍ ، ولا تدري من مع من ؟، ومن ضد من ؟ ، ولم كل هذا ؟ وهذا تدرج في ملابسة الفتن وبدأ النبي ﷺ بالقاعد ، والقعود لفظ مذموم إلا هنا ، المهم أن كل جملة ختمت بلفظة بدأت التي تليها باللفظة نفسها **فقيل** :

(القاعد خير من القائم) (القائم خير من الماشي) (الماشي خير من الساعي)، ففي الجملة الأولى موقف دون حركة لأنه قعود وقيام ، ثم حملت الجملة الثانية بدايات الحركة وهي المشي ، ثم ختمت الثالثة بالإسراع في المشي وهو السعي ، ولم يتابع النبي ﷺ السلسلة وكأنه يوحي أن هذه

---

١ - الإيضاح للخطيب وعليه البغية للشيخ الصعيدي ٤ / ٨٥.

٢- صحيح البخاري رقم ٣٦٠١ باب علامات النبوة في الأسلام.

الفئـات الـثلاث داخلـة في دائـرة الإسـلام وعليهـا أن تتراجـع عـن موقفها لكن ما بعدها وهم المحركون والمهرولون فيهـا فلقـد خرجـوا مـن دائرة الإسلام لأنهم أشعلوا فتنة " والفتنة أشد من القتـل " ولـذلك يقـول الطبرى:

إن قال قائل: ما معنى هـذا الحـديث، وهـل المـراد بـه كـل فتنـة بـين المسلمين أو بعض الفتن دون البعض؟ فإن قلت: المعنى بـه كـل فتنـةٍ، فـما أنت قائل فى الفتن التـي مضـت، وقـد علمـت أنـه نهـض فيهـا مـن خيـار المسلمين خلق كثير، وإن قلت المعنـى بـه الـبعض، فأيتهـا المعنيّـة بـه، ومـا الدليل على ذلك؟

قيل: قد اختلف السلف فى ذلك، فقال بعضهم: المراد به جميـع الفـتن وغير جائز للمسلم النهوض في شيء منها، قالوا: وعليه أن يستسـلم للقتـل إن أريدت نفسه ولا يدفع عنها، والفتنة: الاختلاف الذي يكـون بـين أهـل الإسلام ولا إمام لهم مجتمـع عـلى الرضـا بإمامتـه لمـا يسـتنكر مـن سـيرته في رعيته، فافترقت رعيته عليه حتى صار افتراقهم إلى القتـال بـأن رضـيت منهم فرقة إمامًا غيره، وأقامت فرقة على الرضا به، قالوا:

وإذا كان كل واحد من هذين المعنيين، فهي التي أمر النبي ﷺ بكسر السيوف فيها ولزوم البيوت)[1].

١- شرح صحيح البخاري لابن بطال ١٠ / ٢٠.

وحتى لا يأخذنا الحديث عن المقام الذي فيه الكلام أعود بك إلى أنك حين تستعرض اللسان العربي تلحظ أن تشابه الأطراف يقع في القسم اللفظي أكثر من القسم المعنوي ، أو أن ملاحظته هناك أيسر من ملاحظته في القسم المعنوي ؛ لذلك كثر الحديث عن هذا القسم اللفظي وضربوا له الأمثلة النثرية والشعرية ، ومن هذه الأمثلة النثرية قَوْله تَعَالَى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

[سورة آل عمران: ٢٠٠]

ثم بدأت سورة النساء بعدها بقوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [سورة النساء: ١]

فختام سورة آل عمران :

" اتقوا الله " وبداية سورة النساء " اتقوا ربكم ... واتقوا الله " وهذا باب جديد في تشابه الأطراف حيث تعدى البيت والعبارة إلى ميدان السورة ، ليرسم لك ارتباط السور بعضها ببعض كارتباط الآيات والجمل وليعلمك أن المشكاة التي ينبثق منها النور مشكاة واحدة ، **ومن نماذج ذلك في الشعر قول ليلى الأخيليّة تمدح الحجّاج:**

إذا نزل الحجّاج أرضا مريضة   تتبّع أقصى دائها فشفاها

شفاها من الداء العضال الذي بها   غلام إذا هزّ القناة سقاها

سقاها فروّاها بشرب سجالها   دماء رجال يحلبون صراها

ولقد أعجب الحجاج بهذا الوصف وعلق عليه بأنه أصاب حقيقته ولم يعترض إلا على لفظة (غلام) **وقال لها قولي** :

(همام إذا هز القناة سقاها) ثم قال لكَاتبه : اقْطَعْ لسانها ، فجَاء بِالْمُوسَى ، فَقَالَت لَهُ : وَيلك ! إِنَّمَا قَالَ : أجزل لَهَا الْعَطاء ؛ ثمَّ ذهبت إِلَى الْحجَّاج ، فَقَالَت : كَاد وَالله يقطع مقولي.!!!

وليس إعجاب الحجاج بهذه الأبيات – في رأيي إلا لأن ليلى الأخيلية أصرت على هذا الربط الذي يوضح صبر الرجل وعناده وإصراره على تتبع المعارضين له حتى يجتثهم ، لأنهم مرضى ، وتعدى مرضهم حتى أصاب الأرض ، وكان مرضهم من النوع الخبيث ، وهو الداء العضال ، وهو الداء الشديد الذي لا يهتدى لدوائه ولا يعرف علاجه ، وهذا ما صورته ليلى بتكرار " شفاها شفاها – سقاها سقاها " ولاحظ هذا التجرع للدواء فالداء عضال ، والرجل لا يسقي الناس إنما يسقي الأرض وكأن المرض انتقل منهم إلى الأرض فكان عليه الإصرار على تجريعها رغما عنها حتى تشفى ، ولكن أتدري ما نوع الدواء ؟ إنه (دماء الرجال) وما أمرّه من دواء تتجرعه الأرض حتى تشفى!!

وكم هي مصر في حاجة ملحة إلى تخليصها من الداء العضال الذي ألم بها حتى ترك أرضها موبوءة ، وكم كانت ليلى الأخيلية موفقة في ربطها

وجمعها لهذه المعاني حتى أعجب بها الحجاج وأكرمها أيما إكرام وقال لها : (أي النساء أحبّ إليك أنزلك عندها ؟

قالت: ومن نساؤك أيها الأمير؟

قال: أم الجلاس بنت سعيد بن العاص الأموية، وهند بنت أسماء بن خارجة الفزارية، وهند بنت المهلب بن أبي صفرة العتكيّة.

قالت: القيسية أحبّ إليّ. فلما كان من الغد دخلت عليه. قال: يا غلام، أعطها خمسمائة. قالت: أيها الأمير، أحسبها أدما .

قال قائل: إنما أمر لك بشاء.

قالت : الأمير أكرم من ذلك ، فجعلها إبلا على استحياء ، وإنما كان أمر لها بشاء أوّلا)(1).

ومن نماذجه أيضا قول أبي نواس في مدح بني تميم ورفعه لهم فوق الناس حتى جعلهم أفضل بني آدم :

خزيمة خير بني خازم وخازم خير بني دارم

ودارم خير تميم وما مثل تميم في بني آدم

وانظر إلى هذا الخيط الذي ربطك به أبو نواس بحيث لا تنفك منه إلا مع آخر لفظة ، وهذا من عجائب الشعراء لأنه حين بدأ جملته الأولى بكلمة (خزيمة) ختمها بلفظة (خازم) ثم ما تركك بل ظل ممسكا بك في الشطر الثاني فقال (وخازم) فأعاده عليك وقد قرأته من قبل ليضيف

1- العقد الفريدلابن عبد ربه 1/ 273.

إليك معنى آخر وهـو أن خـازم خـير بنـي دارم ، وهنـا قـد تظـن أن الشاعر أنهى مفاضلته ، لكنه يبدأ البيت الثاني بما ختم به البيت الأول لتظـل السلسلة متواصلة ، والانتباه معقودا فيقول (ودارم) وهـذا يشـعرك أنـك بصدد حبات مسبحة لا تنفك حتى تعود إلى آدم أبي البشر ـ وهـذا مـا فعلـه الشاعر حيث ظل يتحدث عن أفضلية هذا النسب وأوصـله إلى آدم وخـتم به .

وللشعر شطحاته التى لا تخلو من طرافة ومما زاد في هذه الطرافة غيرة الشيخ فتح الدين بن سيّد الناس على رسول الله ﷺ ،حيـث رد عـلى هـذا الكلام بنظيره **فقال:**

محمّـــد خـــير بنـــي هاشـــم فمَـــن تمـــيم وبنـــو دارم؟

وهاشـــم خـــير قـــريش ومـــا مثـــل قـــريش في بنـــي آدم!

وليس الربط مقصورا عـلى الكلـمات ، بـل قـد يتجـاوز إلى الحـروف ويتحول الحرف إلى خيط رقيق يعيدك إلى مـا انتهيـت منـه ليشـبك الطـرف بالطرف ، ويربط البيت بالبيت رباطا ظاهرا منظورا ، **ومن ذلك قول صفي الدين الحلي** :

قــالوا ألم تــدر أن الحــب غايتــه سلب الخواطر والألباب قلت : لم

لم أدر قبل هـواهم والهـوى حـرم أن الظبـاء تحـل الصـيد في الحـرم

والبيت الأول ختمه الشاعر بقوله : (لَمْ)، وحذف الجملة التي بعد

حرف الجزم ، فزاد من شوق المتلقي وتلهفه على معرفة هذه الجملة المحذوفة التي ضاق بها البيت ، وإن كان أول الكلام يشير إليها ، إلا أن الشاعر حين بدأ البيت الثاني بالجملة كاملة وقعت موقع الري من الظمآن وصادفت قبولا وطمأنينة هزتها كلمة (لم) في البيت الأول .

وهذا اللون من البديع شأنه شأن كل ألوان البديع يحسن كلما جاء عفو الخاطر ، ويملح حين يخلو من التكلف ، وتتزين به المعاني ، إذا لم يقصد إليه قصدا ، فإذا استحضره المنشئ ، وعمد إليه المتكلم رأيته وقد سمج وغلظ ، وجف منه الماء ووددت أن تنزعه من الكلام انتزاعا حتى يهدأ بال الكلام ، وتسكن نواحيه ، **ومن نماذج هذا العنت قول الشاعر** :

ما أن تريم فؤاده أشجانه	**كثرت بها يوم النوى أحزانه**
أحزانه لما جرت بعظامه	**من حب من شهدت له أجفانه**
أجفانه شهدت له أن الورى	**طرا أذل رقابهم سلطانه**
سلطانه برع الجمال بوجهه	**وروادف خضعت لها أركانه**
أركانه أبدا تميد إذا مشى	**ويكاد تقطر كفه وبنانه**
وبنانه كالخيزران وقده	**قد القضيب زهت به أغصانه**

وراجع نفسك وأنت تتوقع بداية البيت التالي ، وهذا الشعور بالضيق الذي يصاحبك ، مما يعني أن البديع الحق هو ما أتاك على غير ميعـاد ، ومـن طرق باب قلبك دون انتظار ، فيقع موقعه ، ويحسن مسمعه .

التكرار

هذا اللون من أكثر ألوان البديع شيوعا وحضـورا في لسـان العـرب فهو كثير في القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والشعر الجـاهلي ، وغـيره من الكلام العالي ، فالعرب لها سـنن تسـير عليهـا في الكـلام ، ومـن سـنن العرب **كما قال ابن فارس:**

(التكرير والإعادة إرادةَ الإبلاغ بحسب العناية بالأمر)([1]) فالعنايـة بالمراد جعل العربي يبـالغ في إتبـاع الوسـائل الكفيلـة بتوصـيل هـذا المـراد إلى المتلقي ، وكان من أسرع هذه الوسائل ، وأعلاها صوتا التكـرار ، وهـذا دفعه إلى تكـرار اللفظـة الواحـدة مـرة ومـرتين وثلاثـة ، **واسـمع إلى قـول القائل :**

كـــم نعمـــة كانـــت لَـــهُ   كَـــــمْ كَـــــمْ وَكَـــــمْ

١ـ الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥ هـ) ١/ ١٥٨.

ألا ترى أنه أراد منك أن تردد معه (كم كم وكم ؟) وجعلك وأنت تكرر هذا اللفظ تستحضر تلك النعم ، وتعددها ، وتظل كذلك حتى تتحول من ذاكر للنعم إلى منشد لها ، ويرى ابن رشيق أن التكرار منه ما هو حسن ، ومنه ما هو معيب ، وذكر أن الأصل في التكرار أن يكون للفظ وقد يكرر المعنى لكنه قليل في اللسان العربي ، فإذا كرر اللفظ والمعنى **فهو الخذلان بعينه ويقول :** (لا يجب للشاعر أن يكرر اسماً إلا على جهة التشوق والاستعذاب، إذا كان في تغزل أو نسيب..) ،وهذا الكلام محل نظر لأن التكرار من أهم فنون القول ، وله من الميزات ما يعجز غيره عنها **ولقد كتب الدكتور إبراهيم الخولي كتابا سماه :**

التكرار بلاغة ، حرر فيه المصطلح ، وتابع كلام العلماء في بلاغة التكرار ، وأنصف هذا اللون من الكلام ، وحدد له مقاماته ، وسوف أحاول أن أقتبس من كلامه هنا بعضًا مما قال ، لتنظر إلى قيمة هذا الفن من البديع ،**وأنقل لك شيئا من شعر امرئ القيس حيث يقول :**

ألا عِمْ صَبَاحاً أيّهَا الطّلَلُ البَالي — وَهل يَعِمنْ مَن كان في العُصُرِ الخالي

وَهَل يَعِمَنْ إلا سَعِيدٌ مُخَلَّدٌ — قَلِيلُ الهُمومِ ما يَبيتُ بأوْجَالِ

وَهَل يَعِمَنْ مَن كان أحدثُ عَهدِه — ثَلاثِينَ شهراً في ثَلاثَةِ أحوَالِ

دِيارٌ لسَلمَى عَافِيَاتٌ بذِي خَالِ — ألَحّ عَلَيها كُلُّ أسْحَمَ هَطّالِ

وَتحسِبُ سَلمَى لا تَزَالُ تَرى طَلاً — من الوَحشِ أوْ بَيضاً بمَيثاءِ مِحْلالِ

وتحسِبُ سَلمَى لا تـزالُ كَعَهْـدِنَا بوَادي الخُزَامى أوْ عـلى رَسّ أوْعـالِ
لَيَـالِيَ سَـلَمى إذْ تُرِيـكَ مُنْصَّـباً وَجِيداً كَجِيدِ الرِّئمِ ليسَ بمِعطـالِ

والأوجال : الأمور الموجبة للوجل ، وتوقـع المصـائب ، وذو الخـال ووادي الخزامـى ، ورس أوعـال : كلهـا أسـماء أمـاكن ، والأسـحم هو الأسود من السحاب ، والطلا : ولد الظبيـة ، أمـا الميثـاء المحـلال فهـي الأرض السهلة التي كثر نزول الناس بها ، وتريك منصبا يعني : ثغرا متسقًا والمعطال: المجرّد من القلائد.

والشاعر كرر جملة : و(تحسب سلمى لا تزال)، وراجع هذه الجملـة : (وتحسب سلمى لا تزال) وما ورائها مـن أثـر نفسيـ عـلى الشـاعر جعلـه كأنه يصرخ بهذا المعنى ، ويستنجد بمن يصحح لسلمى هذا الحسبان ، لأنه ضاق به ، وأصبح لا يرى له نهاية ، وهذا مـن صرخـات الألم النفسيـ التـي تترك الشاعر يكرر ما يؤلمه لعله يتخلص منه .

والتكرار في اللسان العربي من (الكـر) وهـو الرجـوع والانعطـاف والإعادة، والمكرر من الحـروف : (الـراء) لأنـك إذا وقفـت عليـه رأيـت طرف اللسان يتردد ، ويعود إليه مرات . والتكـرار مصـدر الفعـل الثلاثـي (كرّ) أما التكرير فهو مصدر الفعل الرباعي (كرّر) ، وتنوعـت تعريفـات العلماء للتكرار .فحد التكرار :

إعادة العبارة بنصها في سياق واحد ، لغرض يقتضي إعادتها ، في مقام يلائم هذا الغرض .

واسمع مثلا إلى قول المؤذن: الله أكبر الله أكبر، أو قوله حين يقيم الصلاة: قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة، لأن العرب – كما يقول ابن جني – إذا أرادت المعنى مكنته، واحتاطت له.

ومن أكثر الأمثلة دورانا في باب التكرار من كلام الله تعالى قوله سبحانه : ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة الفجر:٢١]

وقوله : ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة الطارق:١٧]

وقوله : ﴿ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة المؤمنون:٣٦]

وقوله : ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة الواقعة:٢٧]

وقوله : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾ [سورة الشَّرح:٦]

وقوله :

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة التكاثر:٣-٤]

وقوله :

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة القمر:١٦]

القمر ١٦ ، ١٧ ، ٢١ ، ٢٢، ٣٠، ٣٢

في كل ذلك تلحظ أن المكرر يشمل اللفظ الواحد ، والجملة ، وما هو أكثر من جملة ، فما دام السياق واحدا ، والمقام واحدا ، واللفظ المكرر

واحدا فالكلام يدخل في إطار التكرار ، فإذا اختل واحد مما سبق فلا تكرار ، فإذا قلت مثلا : (أطعني ولا تعصني) فلا تكرار لأنه ليس اللفظ الأول هو اللفظ الثاني ، وإن غيرت في الترتيب فقلت : (أطعني اليوم ، اليوم أطعني) فلا تكرار .

فالشرود التي يجب توفرها في التكرار هي :

١- إعادة النص .

٢- وحدة السياق .

٣- وجود الغرض المقتضي .

٤- وجود المقام الملائم .

فإذا توفرت هذه الشروط كانت الصورة صورة تكرار البليغ .

القيمة الفنية للتكرار

يرى الدكتور الخولي أن دائرة التكرار ضيقة وأن كثيرا مما أدخله البلاغيون في ساحة التكرار ليس منه ، وأن التكرار وسيلة بيانية ، وأداة فنية لا يسد غيرها مسدها في موضعها من وسائل البيان ، كما أن له قيمة فنية تكشف عن وظيفته التعبيرية والنفسية ، فالتكرار له أسبابه ودوافعه الكامنة في فطرة النفس ، فالطفل حين يسمع لفظة جديدة يكررها ، كأنه يدرك أن التكرار هو الوسيلة لكي يحفظها ويضيفها إلى ثروته اللغوية التي يحرص على تنميتها وزيادتها ، والمربون والمعلمون يعتمدون هذه الوسيلة

في توصيل المعلومات إلى الطلاب ، وبخاصة الصغار ، وكـذا الـدعاة والوعاظ ، والحكام والقادة يصطنعون ذلك ، ليرسـخوا في أذهـان المتلقـين ما يرونه مهما ، بل إنك حين تتكلم تراك تعيد لفظا أو غيره إذا تبـين لـك أن مرادك لم يستبن للمخاطب ، فالتكرار فـن بلاغـي أصـيل يسـعف المـتكلم في مقامات لا يسعفه فيها غـيره ، ويلبـي أغراضـا لا يحققهـا غـيره ، ويفـي بمقصود المتكلم من الإفادة والإمتاع معا (١).

مقامات التكرار

وأقصد بالمقامات الأغراض التي يحسن فيهـا مجـيء التكـرار ، فحـين يهم البليغ في الكلام لابد أنه يقصد إلى غرض يتحدث فيه ، فلا كلام بـدون غرض سابق إلى الذهن ، وهو الذي يقصده عبد القاهر بقولـه (الأغـراض التي تؤم) وهذه الأغـراض التـي تـؤم حـين تمـلأ الـنفس ، وتـدفع الفكـر إلى النطق يستدعي الفكر الأساليب التي تصلح له ، وعندها يقفـز التكـرار ليكون أول الأساليب التـي تعلـو عنـد المـتكلم ، فيوفيـه حقـه ، ذلـك لأن الغرض يستدعيه ، ولا حظ نفسك وأنت تستحضر هـذه المقامـات الآتيـة لتعلم أن ما أقوله حق ، ولو سئلت لم كررت ؟ لأوفي المعنى حقه

١- التكرار بلاغة للخولي ص ٨٢ – ٩٠ بتصرف شديد .

أولا: مقام اللجوء إلى الله والعياذ به من وسوسة الشياطين :

وراجع في ذلك سورة الناس ، وتكرار لفظة (الناس) في السورة قال تعالى : ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [سورة الناس:١-٦]

يقول الخولي: (سر تكرار لفظ الناس مضافا إليه في المواضع الثلاثة هو الإيحاء بها للجن والإنس من منزلة في هذا العالم حيث خصهم الله بحرية الاختيار ، ولم يبن أمرهم على التسخير الذي يحكم حركة الوجود ... والإيحاء بشدة قرب الناس من خالقهم ، وتقريبه لهم ، كما أنه يعمق في نفوسنا معنى الإلتجاء إلى الله رب العالمين)[١].

ثانيا: مقام التبليغ والإنذار :

ومثال ذلك تكرار جملة : (يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) على ألسنة الرسل (نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب) والتي جاءت في سورة الأعراف ، وهي سورة إنذار ، فالأصل في دعوتهم واحدة ، وهي التوحيد وملخص التوحيد : اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، وهذا الاتحاد في الدعوة أرشد إلى عدة دروس مهمة ، **منها** :

١- التكرار بلاغة للخولي ص ١١١.

وحدة الدين في أصله السماوي المنزل من عند الله تعالى ، وأن ما يرى من اختلافات عند أصحاب الديانات التي تنتمي إلى أصل سماوي إنما هو اختلاقات ، وافتراءات على دين الله ، وهذه نتيجة ضرورية للتسليم بوحدة الأصل ، ومن الدروس أيضا : ضرورة الإيمان بالرسالات كلها وبالرسل كلهم دون تفرقة بينهم ، كما قررته أواخر سورة البقرة ، لأن التكذيب برسالة واحدة ، أو برسول واحد هو تكذيب كل الرسل وبجميع الرسالات (1).

ثالثا: **مقام الدعوة إلى التفكر والاعتبار** .

وراجع قوله تعالى في سورة الشعراء :

(كذبت قوم نوح – كذبت عاد – كذبت ثمود – كذبت قوم لوط – كذب أصحاب الأيكة المرسلين)(2)، فسورة الشعراء تدور حول المكذبين ومصائرهم ، **لذلك بدأت بقوله تعالى:**

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [سورة الشعراء:٣]

لتبين للرسول ﷺ أنه ليس بدعا ، فلقد كذبت رسل من قبله فصبروا ،وسوف يلقى الكاذبون مصائر سابقيهم (فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون) وعلى قريش ومن يكذب برسالة النبي ﷺ أن يعتبروا **ولذلك كررت جملة :**

١- السابق ص ١٢٣.
٢ - آيات ١٠٥-١٢٣- ١٤١- ١٦٠- ١٧٦.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾
[سورة الشعراء:٨-٩]

رابعا: مقام التعليم والتلقين .

فالتكرار من طرق التعليم ، وبخاصة للصغار ، ولقد جاء عند البخاري من حديث أنس رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم (أنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا ؛ حتى تفهم عنه ، وإذا أتى على قوم فسلم عليهم سلم عليهم ثلاثا) يقول الدكتور الخولي : فقوله : (حتى تفهم عنه)أوحت إلينا بالمقامات التي كان يصطنع رسول الله فيها التكرار ، وسيلة تعليمية غايتها إفهام المخاطبين دون لبس أو غموض .

ومن ذلك أيضا حديث :

(رغم أنف ، ثم رغم أنف ، ثم رغم أنف قيل من يا رسول الله ؟ قال : من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة)(١) فهذه كناية عن الذل لمن أساء إلى والديه ، ولم يجعلهما سببا لدخوله الجنة .

١- صحيح مسلم حديث رقم ١٩٧٨.

خامسا: مقام الدعاء والاستغفار .

ولقد كان رسول الله ﷺ يدعو ثلاثا ويستغفر ثلاثا ، لأن في ذلك من الضراعة والخشية والافتقار إلى الله الكثير ، وهو أرجى إلى القبول لأن من أطال قرع الباب أخلق بأن يلج ، ولذلك تسمعه ﷺ يقول :

(ألظّوا بـــــ "يا ذا الجلال والإكرام ") [1] أي ألحوا وأكثروا .

سادسا: مقام الذب عن الحرمات،والدفاع عن الحقوق.

ويقابلنا في هذا المقام حديث النبي ﷺ " إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم عليَّ بن أبي طالب ، فلا آذن لهم ، ثم لا آذن لهم ثم لا آذن لهم ، إلا أن يحب ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم فإنما ابنتي بضعة ، مني يريبني ما رابها ، ويؤذيني ما آذاها"(٢) .

وهشام ابن المغيرة هو والد أبي جهل : الحكم بن هشام ، عدو الله وهو كذلك والد : الحارث بن هشام ، وسلمة بن هشام ، وقد أسلما وحسن إسلامهما ، كما أسلم عكرمة بن أبي جهل وأخته التي أراد سيدنا علي بن أبي طالب الزواج بها .

والجملة المكررة هنا هي قوله (فلا آذن لهم) مع أن هذا ليس بمحرم إنما علل رسول الله ﷺ لعدم الإذن بأن ذلك يؤذي السيدة فاطمة

١- مسند الإمام أحمد ٢٩ / ١٣٨.
٣- صحيح البخاري رقم ٥٢٣٠.

وهي بضعة منه ، مما يعني وصول الأذى إليه ﷺ، كما زاد في رواية أخرى علة ثانية وهي : لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله تحت رجل واحد

فالتكرار في هذا المقام يعني أن عدم الإذن لا مندوحة فيه ، ولا تجوّز ، بل هو حتم لازم ، فلا يجوز لأحد أن يراجع فيه ، أو يفاوض بشأنه ، أو يفتح فيه حوارا ، ففاطمة ليست ككل النساء ، والزواج عليها يؤذيها ، وإيذاؤها إيذاء لأبيها ﷺ، وهذا يستتبع اللعن ، فليحذر كل إنسان من إيذاء نبي الله تعالى إيذاء مباشرا ، أو غير مباشر ، فالتكرار مكن لرفض الإذن في عقول الناس ، ولذلك وضعه الرسول في خطبة ليسمعها كل الناس [1].

١- راجع كتاب الشيخ إبراهيم الخولي : التكرار بلاغة .

الترديد

الترديد لون من ألوان الـروابط اللفظيـة ، تـرى فيـه الكلمـة الواحـد تنعطف يمينا ، فتتصل بمعنى ، ثم تنعطف شمالا فتذكر مرة أخـرى متعلقـة بمعنى آخر ، **يقول ابن رشيق في العمدة في تعريف الترديد :**

(هو أن يأتي الشاعر بلفظة متعلقة بمعنى، ثم يرددهـا بعينهـا متعلقـة بمعنى آخر في البيت نفسه، أو فيقسيم منه)[1].

ومثال ذلك كما وضح قول زهير:

من يلـق يومـاً عـلى علاتـه هرمـاً يلق السـماحة منـه والنـدى خلقـاً

فالفعل المضارع (يلق) اتصل بكلمة (هرما) **ويقصد به** : هـرم ابـن سنان ، ثم اتصل بكلمة (السماحة والمعنى : مـن يلـق هرمـا يلـق السـماحة وهي جملة شرطية اتحد فيها فعل الشرط وجزاؤه ، فلقاء هرم لقاء للسـماحة والجود ، وشـاهدنا هـذه الكلمـة المـرددة (يلـق) وتكرارهـا يحمـل دلالـة تصويبية ، تصحيحية تقول إياك أن تظن أنك حين تلقى هرم ابن سنان أنك التقيت فردا من أفراد الناس ، كلا كلا ، صحح معلومتك وصوب نظرتـك فأنت لم تلـق واحـدا مـن النـاس بـل التقيـت بالسـماحة ، التقيـت بالنـدى

١ـ العمدة لابن رشيق القيرواني ١ / ٣٣٣.

التقيت بـالأخلاق العظيمـة ، إن الكلمـة المـرددة ، تصـحح الكلمـة الأولى وتحذفها وتضع مكانها ما ينبغي أن توقن به .

إن الشاعر يريد أن يصحح التصورات التي تختلط على الناس ، ويريد أيضا أن ينقل إليك أثر هذه اللفظة عليه ، وتوهجها بداخلـه ، مما دفعـه إلى تكرارها بهذا البناء العجيب ، وهو ارتباط اللفظة بأكثر من متعلـق ، وتلـك خصوصية هذا اللون البديعي ، إن الترديد ليس كـالتكرار ، ولـيس كغـيره من ألوان ذكر اللفظة الواحـدة مـرتين ، إنـما الترديـد يعطيـك مـن اللفظـة الواحدة المكررة عائلتين متنوعتين ، وفـرعين منبثقـين مـن الجـذر الواحـد فترى اللفظة الواحدة متجهة في جملة إلى جانب ، ومتجهة في الجملـة الثانيـة إلى جانب آخر ، وهذا فرق مهم بـين الترديـد والتكـرار ، وألـحُّ عـلى هـذا الفارق لأن هذا المعنى غاب عند بعض أهل العلم كابن وكيع ، حيـث قـال :(**الترديد** : هو أن يبتدئ الشاعر بكلمة في البيـت ثـم يعيـدها في عجـزه أو نصفه ثم يردها في النصف الآخر، وهذا إذا نظـم الشـعر عـلى هـذه الصـفة تيسر استخراج قوافيه قبل أن يطرق أسماع مسـتمعيه، وهـذا البـاب واسـع يدل عليه هذا اليسير)[1]، وهذا كلام يكتنفـه الغمـوض ، مـع غفلـة عـن الخيط الذي لمحه ابن رشيق في العمدة ، وهو تعلق اللفظة الأولى بمعنى

١ـ المنصف للسارق والمسروق منه لابن وكيع – الحسن بن على الضبي ت ٢٩٣ هـ .

وتعلق الثانية بمعنى آخر ، ولذلك لم يجد ابن وكيع من شواهد الترديد إلا ما يؤكد كلام ابن رشيق **مثل قول الشاعر**:-

فليتَ بياض السيف يَوْم لقيتني مَكان بياض الشيبِ كان بِمفرقي

حيث قال: (ومجيء البياض مكان البياض من الترديد المليح الذي رجح به لفظه فصار أولى بها قال[1] .

والحسن ليس في مجيء بياض مكان بياض كما زعم، بل في تعلق كل لفظة بمعنى يخالف معنى الأخرى، ويبتعد عنه حتى صار بياض السيف دليل قوة وفتوة، وبياض الشيب دليل ضعف وهوان .

المهم أنه لا بد أن تفرق بين الترديد والتكرار ، لأن التكرار إعادة اللفظة ، دون نظر إلى متعلقات ، **ولذلك قال ابن رشيق : حمل قوم قول امرئ القيس :**

فثوباً لبست وثوباً أجر

على أنه تكرار لا ترديد فيه، وهذا هو الخطأ البين، وأي ترديد يكون أحسن من هذا؟ وقد أفاد الثاني غير إفادة الأول حسب ما شرطوا)[2]

وحين تراجع الشاهد في كتب النحو تجده بالرفع كما ذكره سيبويه .

فأَقْبَلتُ زَحْفاً علَى الرُّكْبَتَيْنِ فثَوْبٌ لبست وثَوْبٌ أَجُرٌ

١- المنصف للسارق والمسروق منه للحسن بن علي الضبي المعروف بابن وكيع ت ٣٩٣هـ.

٢- العمدة ١/ ٣٣٣.

فالثوب الأول غير الثوب الثاني ، لأن النكرة هنا أفادت التنويع فكأنها أشبه بالمعرفة ، فنوع الثوب الملبوس مغاير للثوب المجرور ؛ لذلك صح الابتداء بالنكرة هنا ، وأكد الشاعر على الفارق بين اللفظتين، **ومن أمثلة هذا أيضا قول النَّمِرُ بن تَوْلَبٍ:**

فَيَوْمٌ عَلينا ويوم لنا ويومٌ نُسَاءُ ويومٌ نُسَرْ

فلكل يوم دلالة ومتعلق حتى صار مغايرا لليوم الذي يليه فهو من الترديد وليس من التكرار ، **ومن الترديد أيضا قول الشاعر** :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أسباب السماء بسلم

لاحظ هنا كلمة (أسباب) فهي في الشطرة الأولى متجهة إلى المنايا حيث يَحذرُ الناس أسبابَ الموت ، ويفرون من هذه الأسباب بشتى الوسائل ، ولكن الشاعر يبين أن الإنسان مهما فعل هروبًا من أسباب الموت فلن يفلح لأنها سهام مكتوب عليه عدم الخطأ ، وحتمية الإصابة ، ثم انتقل الشاعر إلى الشطر الثاني وأعاد على الأسماع كلمة (الأسباب) ولكنه وضعها في حاضنة أخرى ، وضعها في حاضنة وسائل الفرار ، أو ما سماه أسباب السماء ، فرأينا الأسباب تارة في عالم المنايا ، وتارة أخرى في عالم السماء ،وهذا يضفي على الصورة تشعيبا تلحظه العيون وتلتذ به الأسماع وتهش له الأفئدة ، واسمع إلى هذه الشكوى الحارة من مجنون ليلى ، وتفرس في كلمة (الابتلاء)**التي لخص بها حاله معها** :

قضـاها لغـيري وابـتلاني بحبهـا فهـلا بشيـء غـير لـيلى ابتلانيـا

والابتلاء هنا ابتلاء حب ، والكلمة في رنينها ألم وعذاب لكنه بـين أن نوع هذا الابتلاء هو (الحب) فقال ابتلاني بحبها ، وحين دعـا الله تعـالى أن يعافيه من هذا الابتلاء لم يطلب ابتلاءً غير الحب لكنه طلب ابتلاء غير لـيلى وهنا المفارقة التي تدل على أن حب غيرها من السهل التغلب عليه وسلوانه والإعراض عنه ، والتعافي منه ، لكن حب ليلى لا معافة منه ، ولا طاقـة فيـه على الصبر، **وقال أبو تمام** :

خفّت دموعك في إثر القطين لدن خفّت من الكثب القضبان والكثب

يقول ابن رشـيق : (الترديـد في (خفّـت) ولـو جعلـت(الكثيـب) ترديداً لجاز)[1] ، لأن كل لفظـة ذكـرت مـرتين ، وارتبطـت بربـاط مختلـف في كل مرة ، **قال أبو العلاء في تعليقه على بيت أبي تمام** :

أصل (الخفوف) من قولهم: خَـفَّ القـوم؛ إذا تحركـوا ، وهـو راجـع إلى الخفة التي هي ضد الثقل، إلا أنهم يفرقون بالمصادر بـين الأفعـال التـي أصلها واحد في الاشتقاق ؛ **فيقولون** : خَفَّ الشيء خِفَّـةً ، إذا كـان خفيـف الزِّنَـة ، وخَـفَّ القـوم خفوفـا إذا ارتحلـوا ، وخـف في حاجتـه ؛ إذا أسرع) وعبارة أبو العلاء : يفرقون بالمصادر بين . ، إشارة إلى أسلوب اللغويين في

١ـ العمدة ١ / ٣٣٣.

شرح معاني الألفاظ ، حيث درجوا على ذكر مصدر الفعل بعد الفعل ليكون هذا وسيلة لتحديد لمعناه ، ورفع الالتباس عنه إذا اشترك معـه فعـل آخر في أصل الاشتقاق ، مثلما أشار أبو العلاء هنا)(١).

فالشرط الذي لا بد منـه في الترديـد أن تكـون اللفظـة الأولى مفيـدة في نظمها معنى مغايرًا لما تفيـده الثانيـة ، وتلـك هـي الفارقـة بـين الترديـد والتكرار ، ففي التكرار لا تغاير بين اللفظتين المكررتين ، **لكن انظر مـثلا إلى قول ابن المعتز :**

لو شئت لا شئت خليت السلو له وكـان لا كـان مـنكم في معافـاتي

تجد فعل المشيئة ، وفعل الكينونة يقترب من حمى التضاد في الشـطرين مما يعنى التغاير في المعنى المنبعث مـن اللفـظ الواحـد بحسـب اعتلاقـه بـما حوله ، **وقال كشاجم :**(٢)

قويت على الهجران حتـى مللتنـي ولكني عن حمل هجـرك أضـعف

لعمرك قـد أحببتـك الحـب كلـه وزدتك حبًا لم يكـن قـط يُعـرف

سقى الله نهر الكرخ ما شاء ديمـةً فـإني بهـا حتـى المـمات مُكلـفُ

١- ديوان أبي تمام بشرح أبي العلاء والخطيب التبريزي ١/ ١٩٩

٢- كشاجم ٣٦٠ هـ - ٩٧٠ م وهو محمود بن الحسين بن السندي بن شاهك أبو الفتح الرملي.شاعر متفنن أديب من كتاب الإنشاء من أهل الرملة بفلسطين فارسي الأصل كان أسلافه الأقربون في العراق.تنقل بن القدس ودمشق وحلب وبغداد وزار مصر أكثر من مرةواستقر بحلب، فكان من شعراء أبي الهيجاء عبد الله والد سيف الدولة بن حمدان ثم ابنه سيف الدولة.لفظ كشاجم منحوت فيما يقال، من علوم كان يتقنها الكاف للكتابة والشين للشعر والألف للإنشاء والجيم للجدل والميم للمنطق.وقيل لأنه كان كاتباً شاعراً أديباً جميلاً مغنياً وتعلم الطب فزيد في لقبة طاء فقيل (طكشاجم) ولم يشتهر به.له (ديوان شعر -ط) و (أدب النديم -ط) و (المصايد والمطارد -ط) (والرسائل) وغيرها.انظر معجم الشعراء العرب ١ / ١٩٠٦

منـــازل لهـــوٍ لا كجــرّ ســـويقةٍ وعرفان لا زالت بها الجن تعـزف

تدور علينا الراح من كـف شـادن له لحظ عينٍ يشتكي السقم مُدنفُ

كأن سُلاف الخمر مـن مـاءِ خـده وعنقودها من شعره الجعد يُقطفُ

أتعذلني في يوسف وهو من تـرى ويوسف أبلاني ويوسف يوسُـف

في البيت الأخير تجد لفظة " يوسف " تجسد لك المعاناة التي تعانيهـا الشـاعرة في حبيبهـا ، ففـي الكلمـة الأولى تعيـدك إلى القصـة المشـهورة في القرآن ، وقول امرأة العزيز حـين رأيـن سـيدنا يوسـف فقطعـن أيـديهن فقالت لهن " فذلكن الذي لمتنني فيه " فهو من الجمال بحيث لا تقـوى أنثـى على لوم أخرى في حبه ، تلك دلالات اللفظة الأولى ، ثم تأتي لفظة يوسـف الثانية لمعنى جديد وهو " ويوسف أبلاني " لتعيدك إلى الأب المكلوم الـذي **تولى عن إخوة يوسف متأسفا قائلا :**

" يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحـزن فهـو كظـيم " ، ثـم تأتي الفظتين الأخيرتـين لتصـور لـك دلالـة ثالثـة ، وهـي مكانـة يوسـف في قلوب الناس من بعد ذلك ، فقالت : " ويوسف يوسف " أي : هـو مـن هو الذي شاع أمره في الناس ، وارتبطت به القلوب المؤمنة الطاهرة ، وصار مثلا للطهر والعفاف ، والصبر على البلاء ، وتحمل الأذى ، ففي كل لفة تجد الكلمة ترفدك بمعنى ليس موجودا في أختها ، وذلك من عطايا هـذا اللـون من التعبير المسمى " الترديد ، ومن روائع أبي الطيب المتنبي في مدح بدر بن

عمار بن إسماعيل ، **في قصيدة بدايتها :**

أحلـــماً نـــرى أم زمانـــاً جديـــدا أم الخلق في شخص حيٍّ أعيـدا؟!

يقول :

أمـــيرٌ أمـــيرٌ عليـــه النـــدى جـــوادٌ بخيـــلٌ بـــأن لا يجـــودا

والمعنى كما يوضحه أبو العلاء المعري[1] **في** : معجز أحمد هـو أن بـدر بن عمار (أمير على النـاس– وهـذه حقيقـة ، والسـخاء أمـير عليـه– وهـذا مجاز – ؛ لأنه يطيع أمره ، فهو أبداً جـواد لا يعـدل عنـه. وهـو بخيـل بـألا يجود: أي بخيل بترك الجـود – وتلـك أيضـا دلالـة مجازيـة ، تحمـل معنـى غاية الجود)[2].

ويعجبني هذا الترديد في الكلمة الواحدة ، لأن الشـاعر حـوّل المعنـى من النقيض إلى النقيض ، فأنت حين تسمع لفظـة (أمـير) تستحضرـ هـذه المكانة السامية ، والمنزلة الرفيعة بين الناس ثم لا تلبث أن يحرك الشـاعر إلى العبودية لهذا الأمير ، فينقلب الحال من السيادة إلى العبودية ، ولكنها

١- هو أبو العلاء أحمد بن سليمان التنوخي المعروفبالمعري، فإنه كان غزير الفضل، وافر الأدب، عالماً باللغة، حسن الشعر، جزل الكلام، وكان ضريراً أعمى، ولم يكن أكمه؛ وصنف تصانيف كثيرة، وأشعاراً جمة؛ كسقط الزند، ولزوم ما لا يلزم، إلى غير ذلك.قال أبو القاسم التنوخي: ورد بغداد، وقرأت عليه شعره.وذكر أنه لما قدم بغداد دخل عليه علي بن عيسى الربعي ليقرأ عليه شيئاً من النحو، قال له الربعي: ليصعد الإصطبل فخرج مغضباً، ولم يعد إليه.ويروى أنه أدخل يوماً إلى مجلس المرتضى، فعثر بإنسان فقال له: من هذا الكلب؟ فقال له: الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً! ويحكى عنه أنه كان برهمياً، وأنه وصف لمريض فروج، فقال: استضعفوك فوصفوك.وأخذ عنه أبو زكرياء يحيى بن علي الخطيب التبريزي.وذكر أن مولد أبي العلاء يوم الجمعة مغيب الشمس لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، وعمي من الجدري، وجدر أول سنة سبع وستين وثلاثمائة فغشى يمنى حدقتيه بياض، وأذهب اليسرى.وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة - أو اثنتي عشرة.ورحل إلى بغداد سنة ثمان وتسعين، ودخلها سنة تسع وتسعين، وأقام بها سنة وتسعة أشهر، ولزم منزله بعد منصرفه من بغداد سنة أربعمائة، وسمى نفسه رهن المحبسين.وكان عمره ستاً وثمانين سنة، لم يأكل اللحم منها خمساً وأربعين سنة.

٢- معجز أحمد لأبي العلاء المعري ١ / ١١٥ بتصرف

عبودية للندى ، ولم يعبر الشاعر عن ذلك إلا بلفظ الإمارة أيضا فقال (أمير عليه الندى) ليدخلك في هذه الحالـة الغائمـة أولا في كونـه : أمـيرا وليس أميرا ، ثم حين يستقر المعنى في قلبك تجدك زدتـه نـبلا ، ورفعـة لأن النـدى حـين يكـون أمـيرا عـلى إنسـان فلـن تجـد منـه إلا العطـاء الغزيـر وما أعظم أن يكون الندى أميرا عليك !!! وقد ذكر ابن رشيق في العمـدة (أن العلماء بالشعر مجمعون على تقديم أبي حية النميري وتسليم فضيلة هذا الباب إليه في **قوله:**

ألا حَيٍّ مِنْ أجلِ الحبيـبِ المغَانِيـا　　　لَبِسْـنَ الـبِلَى مِمّـا لَبِسْـن اللّيالِيـا

إذا مـا تَقَـاضَى المَـرْءَ يـومٌ وليلـةٌ　　　تَقاضـاهُ شَيءٌ لا يَمَـلُّ التَّقاضِـيا

والترديد الذي انفرد فيه بالإحسان عندهم قولـه : " لبسـن الـبلى مما لبسن اللياليا " ، **وكذلك قوله :**

إذا مـا تقـاضى المـرء يـوم وليلـة　　　تقاضـاه شيء لا يمـل التقاضـيا

لأن الهاء كناية عن المرء، وإن اختلـف اللفـظ)(1)، وراجـع في البيـت الأخير مقاضاة اليوم والليلة ، وقد جاء بهما في حالة التنكـير ، ليـذكرك بـأن كل الأيام تقاضيه ، وكل الليالي تقاضيه ، فلا يمر يوم إلا ويقاضيه ، ولا تمر ليلة إلا وكذلك تقاضيه ، ثم أعد الجملة الأخيرة التي جعلت الأيام كلها

١ـ العمدة ١/ ٣٣٥.

يوما واحدا ، والليالي كلها ليلة واحدة ، ولكنهم لا يملوا التقـاضي ، وهذا معنى آخر غير الأول ، ولا شك .

مراعاة النظير

الأسرة الواحدة ، أو الأسرة الدلالية الواحدة ، هـي المعنـى الأنسـب لهذا اللون ، فالمتكلم يجمع في عبارته عن المعنـى كلـمات تعـود في نسـبها إلى عائلة واحدة ، فهي بنت جد واحد ، فلو حدثتك مثلا عن (البيع) **فـذكرت لـك** : (الـربح ، والخسـارة ، والصـفق ، والتجـارة ، والكسـاد ، والبـوار والكيل ، والميزان ... إلخ)، مما يشعرك بأنك تقـف في السـوق ، فهـذا مـن باب مراعاة النظير ، حتى لكأنك تنتظر اللفظة المناسـبة لمـا سـبق في النطـق فتجد الألفاظ يؤنس بعضها بعضا .

وإذا ذكرت لك (العلم) مثلا سمعت معـه : (القلـم ، والقرطـاس والسجلات ، والكتب ، والسطر، والعقل، والدرس ، والفهـم ...) حتـى كأنك في مجلس علم .

ومصطلح : مراعاة النظير يسَـمَّى تـارة «التَّنَاسُـبَ " **وتـارة أخـرى** : " الِائْتِلَافَ " ، وثالثة : " التَّوْفِيقَ " ورابعة : " التَّلْفِيقَ» وكُلُّهَا أَسْـمَاءٌ لِهَـذَا النَّوْعِ مِنَ الْبَدِيع ، في كتب أهل العلم ، والذي ينبغي التأكيد عليه أن الاسم الأشهر هو : **مراعاة النظير** ، وعلينا أن ننسى الأسماء الأخرى ، لأن في هذا

المصطلح المختار إشارة إلى عمل المبدع حين يعمد إلى لفظة ليختارها لتكون مناسبة ومراعية للفظة الأخرى ، وإذا كان هذا الاختلاف في اسم المصطلح فإن هناك اختلافا آخر في طبيعته ، وتنزيله على أرض الواقع ، **فمراعاة النظير في الاصطلاح يعرف بأنه :**

الجمع بين اللفظ وما يناسبه لا بالتضاد .

والتنصيص على اللفظ، لأن هذا اللون جمع بين متناظرات في اللفظ دون فتح الباب لغيره من المتوافقات ، واحتُرس بالقول (لا بالتضاد) لأن الجمع بين المتناظرات بالتضاد يسلمنا إلى لون بديعي آخر وهو الطباق

وأنبه هنا على شيء وجدته في بعض كتب أهل العلم، يقول ابن حجة: (وهو في الاصطلاح : أن يجمع الناظم أو الناثر أمرًا وما يناسبه، مع إلغاء ذكر التضاد ، لتخرج المطابقة ، وسواء كانت المناسبة لفظًا لمعنى أو لفظًا للفظ ، أو معنى لمعنى ، إذ القصد جمع شيء إلى ما يناسبه ، أو ما يلائمه من أحد الوجوه،) أهـ

لاحظ قوله : جمع شيء إلى ما يناسبه، كذا دون تحرير ، وهذا خلل ؛ لأن الكلام العربي كله تناسب ، وتلاؤم ، وإلا كان معدوم القيمة لذلك أعود وأقول : إن الجمع ينبغي أن يقتصر على اللفظ ، وأما فتح الباب للتناسب بين اللفظ والمعنى ، أو بين المعنى والمعنى ، يسلمنا إلى الفوضى وساعتها لن تجد كلاما فصيحا إلا ويدخل تحت مراعاة النظير ، وإلا دلني على كلام فصيح لا يتناسب فيه اللفظ مع المعنى ، ودلني على كلام فصيح

لا تتناسب فيه المعاني بعضها مع بعض ، وعليه ففتح هذا الباب يدخل هذا اللون في دائرة العبث ، وهذا يهدم ميزة هذا اللون البديعي ، الذي يقوم على انتقاء الألفاظ المتناسبة تحت مظلة واحدة ، ويجمعها ميدان واحد ، ولكي **يتضح لك هذا الأمر اسمع إلى قول الله تعالى :**

﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥﴾ [سورة الرحمن:٥]

فالشَّمْسَ، وَالْقَمَرَ مُتَنَاسِبَانِ من حيث ارتباطهما في الذهن العربي بالإنارة لأهل الأرض ، كما يرتبطان في معرفة السنين والحساب ، فالذهن حين يرى اللفظتين في تركيب واحد يأنس بأنسهما ، ويغتبط باجتماعهما ويرى فيهما رحما موصولة ، وجيرة متواصياً بها ، وهذا من جماليات هذا الفن .

وفي شاهد أخر يقول الله تعالى :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝١٠﴾ [سورة الفتح: ١٠]

فالحديث هنا حديث عن مبايعة ، وتعاهد ، وكانت العرب تفعل ذلك ويأخذ بعضهم على يد بعض في المبايعات ، وكان الرسول ﷺ إذا بايع أحدا أخذ على يده بالسلام ، فالصورة مرسومة في العقل العربي بهذه الكيفية ، ولذلك جمع مع هذا اللفظ ألفاظًا أخرى ترسم هذا المشهد فجيء بلفظ "يد الله فوق أيديهم" مراعاة للفظ المبايعة ، وجريانا على سنة العرب في كلامهم ، ليتم التناسق بين(يبايعونك) وصورة وضع اليد

في اليد ، والمعلوم سلفا أن يد الله تعالى ، هي يد الله تعالى من غير تشبيه ولا تجسيم ، ولا تكييف ، فالمقصود من هذه الألفاظ المتوافقة هو التناسق والانسجام العام.

وفي شاهد آخر تسمع قول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [سورة الغاشية:١٧-٢٠]

وراجع صلة القربى بين السماء والجبال والجِمال، حيث يجمعها مشهد "الضخامة" الباعثة على التعجب ، لأن العربي كان لا يرى غيرها في رحلاته الطويلة ، فيظل الأيام والليالي لا تقع عينه إلى على جَمَلِه الذي يتهادى بين السماء والجبال ، ولذلك بدأ بالإبل ، وثنى بالسماء ، ثم الجبال وأخيرا الأرض ، وهذا الترتيب روعي فيه ما يتراءى للعين في الرحلات الطويلة.

إن الكلمات المتناسبة يُقوَّى بعضها بعضا ، ويأخذ بعضها بحجز بعض ، وكأنها اجتمعت على المعنى الواحد لتُمكنه في نفس المتلقي وتحتشد له حتى يقنع به ، ولذلك كان السكاكي فطنا حين عرف هذا اللون بأنه (الجمع بين المتشابهات لَا بِالتَّضَادِّ) فالمتكلم يلحظ وجها من وجوه تشابه الألفاظ فيستعبن به على المعنى .

وقد يكون هذا التشابه واضحا كما مر في قوله تعالى:

﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾﴾ [سورة الرحمن:٥]

وقـد يخفـى حتـى يحتـاج إلى لطـف وخفـض جنـاح للنظـر في وجـه التناسب ، ومن ذلك مثلا قول النبي ﷺ كما جاء عنـد الإمـام مسـلم مـن حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال :

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا، قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَـائِلَاتٌ رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لَا يَـدْخُلْنَ الْجَنَّـةَ، وَلَا يَجِـدْنَ رِيحَهَـا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا»(١)، ولـك أن تبحـث عـن الجـامع بـين هذين الصنفين من المعذبين يوم القيامة ، وبعد بحث و تـأنٍ لا بـد أن تعلـم أن الاستبداد السياسي المتمثل في الذين يعذبون الناس بسياط كأذناب البقـر لا يكـون إلا في صـحبة الفسـاد الأخلاقـي المتمثـل في النسـاء الكاسـيات العاريات ، لذلك جمع بينهما الحـديث تحـت مظلـة واحـدة ، لأنـك لا تجـد أحدهما في بلد إلا وجدت الآخر مصاحبا لـه ، وانظـر حولـك تجـد صـدق كلامي ، وهذا هو الوجـه في جمـع الحـديث بـين هـذين الصـنفين ، مـع أن المعذبين يوم القيامة كثير ولا يقتصر الأمر على هذين الصنفين ، لكن رسول الله ﷺ جمعهما في العذاب لأنهما مجتمعان في الدنيا ، ومتحالفان ، بـل إنـك لا تنظر إلى أحدهما إلا وجدته في صحبة الآخر .

١- صحيح مسلم رقم٢١٢٨ .

وفي نموذج آخر تجد حديث السبعة كما جاء عند البخاري من رواية (أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإِمَامُ العَادِلُ وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ ")[1].

واجهد في معرفة التناسب بين هؤلاء السبعة ، وبعد لأيٍ تعلم أن هؤلاء يجمعهم شيء واحد ، وهو التورع عن معصية الله وقت القدرة عليها وراجع هذا المعنى مع كل واحد تجد مصداق ذلك ، فالإمام ، وما أدراك ما الإمام ؟ قوة وسلطان ، وجند طوع أمره ، لكنه عادل ، وهذا الشاب وتذكر فوران الشباب ، والطاقة التي تحركه إلى كل ما لذ وطاب ، ولكنك تجده نشأ في عبادة الله ، والرجل بما يحمله من معنى الرجولة ، والانشغال بأمور الدنيا والسعي لكفاية الأسرة ، ولكنك تجده دائما في المساجد ، وكأن قلبه معلق بالمساجد ، ثم النموذج الصريح في هذا المعنى وهو الرجل الذي طلبته امرأة ذات منصب وجمال ، فجميع الدوافع المحرضة على الفاحشة موجودة (رجل + امرأة + ذات جمال + ذات منصب) ولكنه تورع عن المعصية واتقى الله تعالى في وقت تزل فيه الأقدام ، ورجلان لم يجمعهما

١- صحيح البخاري رقم ٦٦٠ .

إلا محبة الله تعالى ، وهذا المعنى لا يظهر لك إلا حين تعلم أن الناس في الأعم الأغلب لا تجتمع إلا لمصلحة ، ثم صاحب الصدقة المخفية والخالي عن عيون الناس فيذكر الله فتفيض عيناه .

كلها نماذج كانت مؤهلة في زحمة الدنيا لارتكاب المعصية لكنها اختارت التقوى ، فكوفئت بظل الله تعالى يوم لا ظل إلا ظله .

فإذا ذهبت إلى دوحة الشعر لتنظر إلى هذا اللون البديعي تجد النماذج تنهال عليك ، **ومن ذلك : قَوْل الْبُحْتُرِيَّ يَصِفُ الْإِبِلَ التي أصابها الهزال من طول السفر ، يقول :**

كَالْقِسِيِّ الْمُعَطَّفَاتِ بَلِ الْأَسْهُمِ مَبْرِيَّةٍ بَلِ الْأَوْتَارِ

وهزال الإبل لا يصل إلى هذه الحالة لكنها المبالغة ، فهي تشبه القسي في نحافتها ، ثم أضرب عن هذا التشبيه صفحا ، وقدم ما هو أكثر نحولا فقال بل الأسهم مبرية ، ولاشك أن الأسهم أكثر دقة من القسي ، ثم لم يقف عند هذا ، فأضرب عنه ، ثم شبهها بالأوتار ، وهذا التدني في التشبيه من القوس إلى الأسهم إلى الأوتار ، مبالغة قد تُقبل وقد ترفض ، لكن الجمع بين هذه العائلة الحربية (القوس والسهم والوتر) يحول الصور من مبالغة خيالية إلى مبالغة مقبوله بهذه العائلة اللفظية التي روعي فيها ذكر النظير مع النظير ، **ويقول ابن رشيق في مدح الأمير تميم :**

أصح وَأقوى مَاسَمِعْنَاهُ فِي النَّـدَى مِـنَ الْخَـبَرِ الْمَـأْثُورِ مُنْـذُ قَـدِيمِ
أَحَادِيثُ تَرْوِيهَا السُّيُولُ عَنِ الْحَيَـا عَنِ الْبَحْرِ عَنْ كَـفِّ الْأَمِـيرِ تَمِـيمِ

فالشاعر نقلك من عالم الشعر إلى عالم الحديث الشريف ، وعلم الدراية ، المفعم بالعنعنة ، وسندها مخصوص في رواية الندى ، ولقد روى الناس أسانيد كثيرة في الندى لكن الشاعر اختار أصح الروايات ، وكل ذلك ضرب من المبالغة المحمودة ، و لكنه الشعر وماذا تفعل مع الشعراء المهم أن الرواية الصحيحة في الندى ، أو أصح رواية على حد زعم الشاعر في الندى رواية أصلية قديمة – كذلك – ورواتها يبدءون بالسيول والسيول تروي عن الحيا ، وهو ماء المطر الذي تحيا به الأحياء ، ويروي الحيا عن البحر ، ثم أعلى راو كان كف الأمير تميم ، فالشاعر ناسب بين الصحة والقوة، والسماع والخبر المأثور، والأحاديث والرواية ، ثم بين السيل والحيا، والبحر وكف تميم، مع ما في البيت الثاني من صحة الترتيب في العنعنة ؛ إذ جعل الرواية لصاغر عن كابر كما يقع في سند الأحاديث ؛ فإن السيول أصلها المطر، والمطر أصله البحر على ما يقال؛ ولهذا جعل كف الممدوح أصلا للبحر مبالغة وهذا يشعرك بمدى الفن الشعرى الذي يجعلك تجن به جنونا .

يقول ابن أبي الأصبع في تحرير التحبير(وهـذا أحسـن شـعر سـمعته في المناسبة المعنوية، لأنه ناسب فيـه بـين الصـحة والقـوة والروايـة والخـبر المـأثور، والقـدم مناسـبة معنويـة إذ هـذه الألفـاظ يناسـب بعضـها بعضـاً وكذلك ناسب في البيت الثاني بين الأحاديـث والروايـة والعنعنـة مناسـبة معنوية أيضاً، وأحسن من المناسبة الواقعة في البيت الأول ما وقع في البيـت الثاني من صحة ترتيب العنعنة حيث أتى بها صاغراً عن كـابر، وأخـرا عـن أول، كما يقع سند الأحاديـث، لأن السـيول فـرع، والحيـا أصـله، ولـذلك جعلها تروي عن الحيا إذ هي بمنزلة الولد، وهـو بمنزلـة الوالـد، وكـذلك الحيا فرع، والبحر أصله، ولذلك جعـل الحيـا يـروي عـن البحـر، إذ الحيـا بمثابة الولد والبحر بمثابة الوالـد، ثـم نـزل البحـر بمنزلـة الولـد، وجـود الممدوح بمنزلة الوالد له لقصد المبالغة في المدح، ولذلك جعل البحر راويـاً عن جود الممدوح، وهذا الذي تقتضيه الصـناعة مـن الأدب مـع الممـدوح وحسن المبالغة في وصف جوده) ... وقـد جـاء في كتـاب الكامـل للمـبرد قوله : (حدثت أن الكميت بن زيدٍ أنشـد نصـيباً فاسـتمع لـه، **فكـان فـيما أنشده:**

وقـد رأينـا بهـا حـوراً منعمـة   بيضاً تكامل فيها الدلَّ والشـنبُ(١)

فثنى نصيب خنصره، فقال لـه الكميـت: مـا تصـنع؟ فقـال: أحصي خطأك، تباعدت في قولك: "تكامل فيها الدل والشنب".

هلا قلت كما قال ذو الرمة:

لميـاء في شـفتيها حـوة لعـسٌ   وفي اللثـاث وفي أنيابهـا شـنبُ

ثم أنشده في أخرى:

كـأن الغطـامط مـن جريهـا   أراجيـز أسـلم تهجـو غفـارا

فقال له: نصيب: مـا هجـت أسـلم غفـاراً قـط، فاسـتحيا الكميـت فسكت.

قال أبو العباس: والذي عابه نصيب من قوله:

"تكامل فيها الدل والشنب". قبيح جداً، وذلك أن الكلام لم يجر على نظم، ولا وقع إلى جانب الكلمة ما يشاكلها، وأول ما يحتاج إليه القول أن ينظم على نسق، وأن يوضع على رسم المشاكلة.

١- الشَّنبُ: ماءٌ ورقة يجري على الثغر أو هي رقة الأنياب مع ماءٍ وصَفاء. أو هو برد الأسنان وعذوبة مذاقتها ، روى الرياشي عَن ابْن عَائِشَة أَنه قَالَ سُئِلَ رُؤْبَة عَن الشنب فِي قَول ذِي الرمة [من الْبَسِيط] ... لمياء فِي شفتيها حوة لعس ... وَفِي اللثاث وَفِي أنيابها شنب ...أخذ حَبَّة رمان فَقَالَ هَذَا هُوَ الشنب لم يزدهم.. أما الدل : فهو من دلالُ المرأة إذا تَدَلَّلَتْ على زوْجها تُريه جَراءةً عليه في تَغَنُّجٍ وتَشَكُّلٍ كأنَّها تُخالِفُه وليس بها خِلاف. أما الغنج والشكل فهو تكسر في الكلام يراد به الاستثارة .

وعلق ابن سنان على هذا فقال: (أين الدل من الشنب ؟ إنما يكون الدل مع الغنج ، ونحوه ، والشنب مع اللعس أو ما يجري مجراه من أوصاف الثغر والفم. فكان (الدل والشنب) في قول الكميت عيباً لأنهما لفظتان لا يتناسبان بتقارب معنيهما ولا بتضادهما ، وخبرت أن عمر بن لجإٍ قال لابن عم له: أنا أشعر منك، قال له، وكيف؟ قال: لأني أقول البيت وأخاه، وأنت تقول البيت وابن عمه) .

وراجع مرة ثانية هذه القاعدة النقدية في شأن الألفاظ ووجوب تشاكلها ، وتماثلها ، فلا تباعد في القول ، **وذلك من قوله** :

(تباعدت في قولك) فالكلام كما قال المبرد لم يجر على نظم ، أي على جمع النظير مع النظير ، وتنسيق الكلام ، وتشاكله حتى ترى البيت الشعري أخا للبيت الذي يليه ، وليس ابن عم له ، وما أحسن هذه القرابة في نظم الكلام واصطفائه **وكذلك خطّأ النقاد قول الشاعر** :

وَقَدْحَلِفتُ يَمِيناً مَبْرُورَة لا تَكْذِب
بِرَبِّ زَمْزَم والحَوضُ وَالصَفَا وَالمِحْصَب

لأن ذكر الحوض مع الصفا والمحصب غير مناسب ، وإنما يُذكر الحوض مع الصراط والميزان، فالحسن كامن في أن تضمّ الى ذكر الشيء ما يليق به ويجرى مجراه، أي تجمع الأمور المناسبة ، كما في قول بعضهم في آل النبي - ﷺ :

أنـتم بنـو طـه ونـون والضـحى وبنـو تبـارك في الكتـاب المحكـم

وبنو الأباطح والمشاعر والصـفا والـركن والبيـت العتيـق وزمـزم

فذكر أسماء السور في البيت الأول ، وجميعهـا ملتصـقة برسـول ﷺ وأزعم أن تبارك فيها ليست الملك ، **وإنما الفرقان لقـول الله تعـالى في أولهـا** : تبارك الذي نزل الفرقان على عبده " أما البيت الثاني فجمع فيه بين المشاعر المقدسة في الحج ، وهي الأباطح والصـفا والـركن والبيـت العتيـق وزمـزم **ومثله قول أبي العلاء المعري:**

دع الـيراع لقـوم يفخـرون بهـا وبـالطول الردينيـات فـافتخر

فهن أقلامـك الـلاتي إذا كتبـت مجـدًا أتـت بمـداد مـن دم هـدر

وانظر إلى هذا التناسب بـين الـيراع ، والأقـلام ، والكتابـة ، والمـداد وكيف نقلها الشاعر من عالم الصحائف إلى عالم الصفائح .

ومن مراعاة النظير أن تؤثر كلمة بالتقديم عـلى كلمـة أخـرى ، لأنهـا تناسب ما قبلها ، أو تناسب حال السامع ، وفي باب المبتدأ والخبر نزاع كبـير **في شأن قولك**:(المنطلق زيد ، وزيد المنطلق) ، وأيهـما أولى باللسـان العـربي والقاعدة النحوية تقول :

إنك تبتدئ بالأعرف ، يقول سعد الدين التفتازاني ، (الضابط في هذا التقديم أنه إذا كان للشيء صفتان من صـفات التعريـف، وعـرف السـامع اتصافه بإحداهما دون الأخرى ، فأيهما كان بحيث يعرف السامع اتصاف

الذات به يجب أن تقدم اللفظ الدال عليه وتجعله مبتدأ، وأيهما كان بحيث يجهل اتصاف الذات به يجب أن تؤخر اللفظ الدال عليه وتجعله خبرًا ، فإذا عرف السامع زيدا بعينه واسمه، ولم يعرف اتصافه بأنه أخوه، وأردت أن تعرفه ذلك قلت: زيد أخوك، وإذا عرف أخا له ولم يعرفه على التعيين:

وأردت أن تعينه عنده قلت: أخوك زيد ولا يصح زيد أخوك ولعلك تدرك أن المقدم في المثالين ناسب حال السامع فروعي ذلك في التقديم والتأخير ، **ويتضح ذلك كما يقول الشيخ أبو موسى من قولنا:**

رأيت أسودا غابها الرماح ، ولا يصح : رماحها الغاب، ولهذا قيل في بيت السقط : يخوض بحرا نقعه ماؤه، الأولى: ماؤه نقعه؛ لأن السامع يعرف أن له ماء، وإنما يطلب تعيينه"، وهذا نص جيد جدا، وتأمل فيه مقدار شفافية موقع الكلمة، وكيف ينبعث في نفس السامع حس خافت بالكلمة ، فيوجب هذا الحس تقديمها كما في بيت السقط والمقال الذي قبله.

فترتيب الكلمات في العبارة يتبع أحوال النفس وما يثار فيها، أو ما يمكن أن يثار فيها من معان وصور، فإذا كانت كلمة البحر تثير في النفس الماء لا النقع ، وجب أن تسبق في الترتيب كلمة الماء استجابة لهذه الإثارة التي نهضت بها كلمة أو تركيب سابق، فإذا قلت: نقعه ماؤه كنت قد أخرت في اللفظ ما هو مقدم

في النفس، وتلك مجافاة تنبو بها الكلمات، وهذا مبحث جليل كما ترى، وهو يتجه في بحث بناء الأسلوب إلى أصوله ومنابعه الداخلية ويمكن أن يدخل في إطاره أسلوب مراعاة النظير.

إن الحديث عن مراعاة النظير حديث عن حاجات الكلمات ورغبات الألفاظ التي تأنس بجاراتها ، فللألفاظ حاجات وجارات وعوالم تسعد فيها بجاراتها أو تشقى ، وقليل من يسعد ألفاظه فيختار لها من أهلها ما تانس به .!!

رد العجز على الصدر

من فنون المحسنات اللفظية" رد العجز على الصدر"وهذا اللون سماه ابن المعتز التصدير، والترديد [1] وهذا يعني أن في الأسلوب نغمة مكررة نغمة أريد من السامع أن يسمعها مرتين ، مرة في أول الكلام ، وأخرى في آخره ، فنحن هنا في سبيل النظر إلى مكان اللفظ بداية وختاما ، ورجوع القارئ من ختام العبارة إلى بدايتها ليراجع هذا النغم الذي مرّ عليه من قبل وكأني هنا أعمد إلى مراجعة العبارة مرة أخرى لأنظر إلى هذه النغمة التي

١- يقول ابن رشيق في كتابه العمدة (والتصدير قريب من الترديد، والفرق بينهما أن التصدير مخصوص بالقوافي ترد على الصدور، فلا تجد تصديراً إلا كذلك حيث وقع من كتب المؤلفين، وإن لم يذكروا فيه فرقاً، والترديد يقع في أضعاف البيت).

مرت على أذني ، فإذا بها في بداية العبارة ، فأجمع بينها وبين ما يوافقها في آخر العبارة ، فيحدث الترداد للفظ الواحد .

يقول صاحب الخزانة: هذا النوع الذي هو " رد الأعجاز على الصدور " سماه المتأخرون التصدير، والتصدير هو أخف على المستمع وأليق بالمقام، **ثم مثل بقول القائل :**

ألم أصرح بتصدير المديح لهم ؟ ألم أهدد ؟ ألم أصبر ؟ ألم ألم ؟

ولعلك تلحظ هذه السهولة النازلة بأكناف البيت فإنه سهل المأخذ قريب إلى النفس بحبكه ونظمه وطرافته وعذوبته ، ومرد ذلك راجع إلى التصدير ، والرجوع بالكلام على أوله ، وبخاصة في لفظتي (ألم ألم) .

ورد العجز على الصدر يقع في النظم كما يقع في النثر،وقيل في تعريفُه :

- **في النّثر :**

هو أن يُجعلَ أَحدُ اللّفظينِ، المكررينِ، أو المتجانسينِ، أو الملحَقينِ بهما في أول الفقرةِ، ثم تعادُ في آخرها .

مثل قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ٣٧ ﴾ [سورة الأحزاب:٣٧]

فالخشية واقعة في أول الجملة وفي آخرها ، مما يعني أن الحديث هنا ليس عن نص ، وليس عن آية ، بل عن جملة ، وهذا بُعدٌ جديد في رد العجز على الصدر ، **ومنه قوله سبحانه:**

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة نوح:١٠]

وقولك: (سائلُ اللّئيم يَرجعُ ودَمعه سائلٌ) ، فَسَائلِ الأول: من السؤالِ، وسائلِ الثاني من السَّيلانِ. ويجمعُهما شبهُ اشتقاقٍ، **نحو قوله عز وجل:**

﴿ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ [سورة الشعراء:١٦٨]

فسواء كان اللفظ كلمة ، أو جملة ، أو أكثر من جملة ، المهم أن هناك شيئا يعيدك من آخر العبارة إلى أولها ، هناك رابط ، هناك ترديد في آخر الكلام يلاقي أوله ، **وانظر مثلا إلى قول الله تعالى :** ﴿ **قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾** ﴾ [سورة طه:٦١]

تجد في مقول القول جملة مبدوءة بـ (لا تفتروا) ثم جاء الختام بـ (افترى) فأعيد القارئ بعد ختام الجملة إلى بدايتها ، وقولهم: " القتل انفى للقتل " والعرب لا تعتمد مثلا إلا إذا مثل لها قيمة لفظية بجوار القيمة المعنوية ، وكذا قولهم " الحيلة ترك الحيلة " وكيف أطمعك في بيان كيف تحتال ، ثم أعادك إلى الصواب لأن الأمور تجري بالمقادير ، وقوله ﷺ : " اتركوا الترك ما تركوكم ودعوا الحبشة ما ودعوكم " تجد

هذا الضرب من التناغم الذي تتجاوب فيه أطراف الكلام ، فهناك نغمة تُجاوِب نغمة ، وهناك طرف مشدود إلى طرف آخر ، وما النغم إلا هذا ، ولذلك ما زلت أؤكد على أن جل فنون البديع هي ضرب من النغم الظاهر أو الخفي ، ولذلك علق علم البديع باللغة العربية لأن العربية هي اللغة التي تطربك عند سماعها ، وفصاحتها الكبرى في تنغيماتها ، وكان أفصح ما قالته هو الكلام المنغم ، أعني الشعر ، وليس معنى هذا أن النغم وحده هو المرجع في الحسن ، وإنما الحسن يرجع إلى المعاني التي يحملها رد العجز على الصدر .

ومن أعظم ما تجده من هذا اللون في القرآن الكريم ، قول الله تبارك وتعالى في آخر سورة الرحمن :

﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٧٨﴾ [سورة الرحمن:٧٨]

وتعجب حين تقف أمام لفظة (اسم) وكان من الممكن أن يقال – تبارك ربك – لكنك حين تنظر إلى أول السورة ، تجدها افتتحت بالاسم الكريم: (الرَّحْمَنُ) **وهو اسم من الأسماء الحسنى واختتمت بقوله:**

((تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ)) فكأن المراد بقوله: ((تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ) تبارك هذا الاسم، اسم (الرحمن) المبدوء به السورة؛ لأنه شمل الخلائق كلها.

وفي سورة الحشر بدأت السورة بقوله تعالى :

" {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }

فبدأت بالتسبيح ، **ثم جاء في آخرها قوله تعالى :** { يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } فختمت بالتسبيح ؛ ليتلاقى المطلع والختام على المعنى الواحد ، وهو التسبيح في تناسق لا تخطئه العين ، والتئام لا يبعد عن الناظرين ، وأهل البلاغة حين تناولوا رد العجز على الصدر **قسموه إلى أربعة أنواع :**

النوع الأول:أن يقع اللفظان في الطرف .

❖ **إما متفقان صورة ومعنى كقوله :**

سريع إلى ابن العم يشتم عرضه   وليس إلى داعي الندى بسريع

فالشاعر هنا لا يحدثك عن غضب ، بل عن سرعة الغضب فالسرعة هنا هي محور الكلام ، والعجلة هي المذمومة ، وكأنه يقول إنه أهوج ، حيث يسرع في مقام لا ينبغي فيه التسرع ، في الوقت الذي يترك الإسراع في مقام يتطلب التعجل والإسراع ، لاحظ هذا الرابط (سريع) وهو يرسم لك ابن عمه بعيدا عن لطم الخد ، وبعيدا عن الندى ، إنه سريع هنا وليس سريعا هناك .

وقول آخر :

سكران سكر هوىً وسكر مدامة   أنى يفيق به سكران

وهنا الشاعر ملأ البيت بالنغمة التي يريدك أن تربط بها الكلام وهي نغمة السُكْر ، حيث كررها أربع مرات ، في حالة من حالات الإلحاح الشديد على اللفظة ، لتظل عالقة في الذهن ، وكلها متوافقة في اللفظ والمعنى ، وتلك أعلى درجات التوافق .

❖ **وإما متفقان في الصورةً ومختلفان في المعنى ، وهو أحسن من الأول لأن فيه إضافة جديدة ،وتحريكا للعقول لا يوجد في الصورة الأولى كقول السري الموصلي[1]:**

أَغُرَّتُكَ الشِّهابُ أَمِ النَّهارُ	**وراحتُكَ السَّحابُ أَمِ البِحارُ**
خُلِقْتَ مَنِيَّةً ومُنىً فأضحَتْ	**تَمورُ بك البسيطةُ أو تُمارُ**
تُحَلِّي الدينَ أو تَحمي حِماه	**فأنتَ عليه سُورٌ أو سِوارُ**
سيوفُكَ من شَكاة الثَّغرِ بُرءٌ	**و لكن للعِدا فيها بَوارُ**
و كفَّاكَ الغَمامُ الجَوْدُ يَسْري	**و في أحشائِه ماءٌ ونارُ**
يَسارٌ من سجيَّتِها المَنايا	**و يُمنى من عَطيَّتِها اليَسارُ**

١- والسري هو ابن أحمد الكندي المعروف بالرفاء، قال الثعالبي في حقه: السري، وما أدراك ما السري سري كاسمه، صاحب سر الشعر، الجامع بين نظم عقود الدر والنفث في عقد السحر، ولله دره ما أعذب بحره، وأصفى قطره، وأعجب أمره، وقد أخرجت من شعره ما يكتب على جبهة الدهر، ويعلق في كعبة الظرف، وكتبت من ذلك محاسن وملحاً، وبدائع وطرفاً، كأنها أطواق الحمام، وصدور البزاة البيض وأجنحة الطواويس، وسوالف الغزلان، ونهود العذارى الحسان، وغمزات الحدق الملاح.
بلغني أنه سلم صبياً في الرفائين بالموصل، فكان يرفو ويطرز إلى أن قضى باكورة الشباب وتكسب بالشعرولم يزل السري في ضنك من العيش إلى أن خرج إلى حلب، واتصل بسيف الدولة، واستكثر من المدح له، فطلع سعده بعد الأفوال، وبعد صيته بعد الخمول، وحسن موقع شعره عند الأمراء من بني حمدان ورؤساء الشام والعراق ولما توفي سيف الدولة ورد السري بغداد، ومدح الوزير المهلبي وغيره من الصدور فارتفق بهم، وارتزق منهم، وسار شعره في الآفاق،

عَصَفْتَ بحاتمٍ كَرَماً فأضحَى　　و جُلُّ فَعالِه المشهورِ عارُ
فقد شَهِدَتْ وما حابَتْكِ طيٌّ　　بأنَّ الجُودَ مَعدِنُه نِزارُ
يَحُفُّ الوَفْدَ منك بأَرْيَحيٍّ　　تَحُفُّ به السَّكينَةُ والوَقارُ
حضَرْنا والملوكُ له قِيامٌ　　تَغُضُّ نواظراً فيها انكسارُ
وزُرْنا منه ليثَ الغابِ طَلْقاً　　و لم نَر قبلَه ليثاً يُزارُ

والقصيدة على روعتها تمثل تحفة فنية ، لكنني أنبهك فيها على ما يتصل باللون الذي معنا ، وهو رد الأعجاز على الصدور ، حيث تجد لفظة (اليسار) في البيت السادس جاءت تارة بمعنى اليسر ، وتارة بمعنى اليد اليسرى ، فاختلف المعنى واتفق اللفظ ، فجمع الشاعر بين لونين من البديع ، وهما الجناس ، ورد العجز على الصدر في لوحة واحدة جمع طرفيها بلفظي اليسار ،فجاء البيت حاملا لنغمة عالية تناسب هذا المقام الذي دفع الشاعر إلى التغني بفضائل الممدوح .

وقول الإمام أبي الحسن نصر المرغيناني :

ذوائب سود كالعناقيد أرسلت　　فمن أجلها منا النفوس ذوائب

فالذوائب الأولى بمعنى الضفائر ، والذوائب الأخرى بمعنى الذوب والهيام ، وبدأ بالتي تتسبب في ذوبان القلب ، فذوائب الشعر حين طرحت على الظهر كالعناقيد ذابت من صورتها النفوس ، والشاعر أحكم بيته بهذا

الرباط ، وأعادك إلى الـذوائب الأولى بـذكره الثانيـة ، وتلـك وسـيلة من وسائل الإمساك بالمتلقي حين يراد له العـود إلى الكـلام مـرة بعـد مـرة وللفصحاء طرائق لا حد لها في إيصال المعاني إلى القلوب ، ومـن أجلهـا رد العجز على الصدر، **يقول السري الرفاء في قصيدة يمـدح بهـا أبـا الفـوارس سلامة بن فهد :**

تعنفنـــي إن أطلـــتُ النحيبـــا	**وأســلبتُ للعـــين دمعـــاً ســـكوبا**
وأوْفى المحبـــين في نحبـــهِ	**محـــبٌّ بكـــى يـــومَ بـــينٍ حبيبـــا**
دَعـــا دَمعـــهُ ودعـــتْ دَمعهـــا	**فبَلَّـــلَ منهـــا ومنـــهُ الجيوبـــا**
غـــداة رمتـــهُ بســـهم الجفـــونِ	**ومـــدّتْ إليـــهِ بنانـــاً خضـــيبا**
وعَهْـدي بهـا لا تـديم الصـدودَ	**ولا تَتَجَنَّـــى عـــليّ الـــذنوبا**
ليـــاليَ لا وصـــلُنا خلســـةٌ	**نراقـــب للخـــوف فيهـــا الرَّقيبـــا**
ولا بـــرق لـــذاتنا خُلَّـــبٌ	**إذا مـــا دعونـــا لوصْـــلٍ خَلوبـــا**
وكـــم لي وللبـــين مـــن مَوْقـــفٍ	**يميـــت بلحـــظ العيـــون القلوبـــا**
إذا مـــا انتَضى ـ اللَّحـــظ أسـيافَهُ	**تـــدرعتُ للصـــبرِ بُـــرْداً قشـــيبا**

حتى قال :

كسوْتَ المكـارمَ ثـوبَ الشَّـبابِ	**و قـــد كُـــنَّ أُلبِسْـــنَ فينـــا المَشـــيبا**
ضرائـــبُ أبـــدَعْتَها في السَّـــماحِ	**فلَسْـــنا نـــرى لـــك فيهـــا ضَريبـــا**

تَخلَّصْـتَني مــن يَــدِ النَّائبــاتِ   و أحلَلْتَنــي منــك رَبعــاً خَصــيبا

و مُلِّكْـتَ مَـدحي كـما مُلِّكَـتْ   بنـــو هاشـــمٍ بُرْدَهـــا والقّضـــيبا

و أنَّــى لــواردِ بحــرِ القــريضِ   إذا وردَ المـــــادحون القَليبـــــا

و لسْــتُ كمَــنْ يَســتردُّ المـديحَ   إذا مـــا كســـاه الكـــريمَ المُثِيبـــا

وراجع هذا الشعر الـذي يقطـر رقـة ، ثـم انتقـل إلى بيـت الشـاهد وهو قوله (ضرائب أبدعتها في السماح) والضرائب بمعنـى الطبـاع التـي يطبع عليها الإنسان ، أو الجبلات ، فالممدوح مطبوع عـلى المكـارم ، وهـي فيه مثل الشباب فتوة وقوة ، ويا لـه مـن معنـى أن يكـون السـماح في حالـة الفتـوة ، أمـا الضريـب فهـو النظـير والمماثـل ، والشـاعر يريـد أن يقـول إن الممدوح ابتدع نوعـا في السـماح لـيس لـه فيـه نظـير ، ووضـع اللفظـين المتناغمين في أول البيت وفي آخـره وهمـا متفقـان في الصـورة لأن اللفـظ الأول جمع للفظ الآخر لكنهما مختلفان في المراد والمعنى ، لأن اللفـظ الأول بمعنى الطباع ، والآخر بمعنى المثيل والمشابه .

❖ **وإما أن يكون اللفظان متفقان في المعنـى لا في الصـورة كقـول ابـن الرومي :**

ليــت هنــداً أنْجزتْنــا مــا تَعِــدْ   وشَـــفَتْ أنفُسَـــنا ممّـــا تَجِـــدْ

واســـتبدّتْ مـــرّةً واحـــدةً   إنـــما العـــاجز مـــن لا يَسْـــتَبِدّ

زعموهــــا ســــألتْ جاراتهــــا ذاتَ يــــومٍ وتعـــــرّتْ تَبْـــتَرِد

أَكَـــمَا يَنْعَتُنِـــي تُبْصِرْـــنَنِي عَمْــــرَكُنّ الله أم لا يقتصِــــدْ

فتضــاحَكْن وقــد قُلْــن لهــا حسَــنٌ في كــلِّ عــينٍ مــن تَــوَدّ

حســـداً حُمِّلَنـــه مـــن أجْلِهـــا وقَــديماً كــان في النــاس الحَســد(١)

راجع هـذين الفعلـين (اسـتبدت) (يسـتبد) حيـث الإلحـاح عـلى الاستبداد ، ليس في الحيـاة العامـة ، بـل الاسـتبداد في الحـب ، واللفظـان متفقان في المعنى ، لأنهـما يلخصـان دعـوة الأحبـاب إلى الاسـتبداد في هـذا السياق ، لكنهما مختلفان في الصورة ، فاللفظ الأول صـورة الفعـل المـاضي واللفظ الثاني صورة المضارع المنفي ، وإذا كـان الاسـتبداد مـذموما في كـل شيء ، فإنه هنـا مستحسـن ، حيـث يثـير العواطـف ، وتهـش لـه النفـوس وليس ذلك بمستغرب على ابن الرومي الذي قـال فيـه جريـر : هـذا والله الذي أرادته الشعراء فأخطأته ، وقد سلك في الغزل طريقاً لم يسلكوه .

١- حُكي عن الرشيد أنه بعث ذات ليلة إلى جعفر بن يحيى: إني قد سهرت فوجّه إليّ بعض سمّارك. فوجه إليه بسمير له كوفيّ، فسامره ليلته، فلما أن رجع سأله جعفر عن خبره. فقال: سامرته ليلتي كلها فأنشدته فما رأيته استحلى إلا بيتين من شعر أنشدتهما إياه فإنه أولع بهما وما زال يأمرني بتكريرهما عليه حتى حفظهما. فقال جعفر: وما هما؟ قال:ليت هنداً أنجزتنا ما تعد ... وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرةً واحدةً ... إنما العاجز من لا يستبد
فقال له جعفر: أهلكني والله وأهلكت نفسك! قال: وكيف ذاك؟ قال: إنه كان لا غنى به عني وعن مشورتي ولم يكرر البيتين إلا وقد عزم على ترك مشاورتي والاستبداد بالرأي. فقتله بعد حول. انظر المحاسن والمساوئ لإبراهيم البيهقي ١/ ١٦٥.

النوع الثاني:أن يقع اللفظان في حشو المصراع الأول وعجز الثاني :

وهذا القسم يعد توسعة في أنواع رد العجز على الصدر، أو إن شئت قل : بداية التوسعة ، مما يعني أن تأثير هذا الضرب من الأداء اللغوي أتاح له أن يضم إلى أطرافه أنواعا أخرى من التلاقي بين الكلمات في الفقرة الواحدة أو في بيت الشعر الواحد ، وإذا كانت النغمة السابقة محدودة بين طرفي البيت الشعري فإن النغمة هنا تحركت من الأطراف إلى مواقع أخرى داخل البيت الواحد ، وقد عد ابن رشيق القيرواني هذا الشغف بالترديد أو برد العجز على الصدر من الأمور التي شغف بها المولدون ، وطلبوها في شعرهم دون القدماء ، وأرى أن هذا ليس بمعيب مادام خاليا من التكلف ، وهل هناك أروع من قصيدة ابي تمام التي جمع فيها صنوف الترديد حتى لا تكاد تعدم نوعا من أنواعه فيها ، وها هي فتأملها وراجع ما فيها من رد الأعجاز على الصدور بأصنافه المختلفة ، **يقول** :

خذي عبراتِ عينكِ عنْ زماعي	**وصُوني ما أَزَلْتِ مِن القِناعِ**
أقِلي قَدْ أضَاقَ بُكاكِ ذَرْعِي	**وما ضَاقَتْ بنازِلةٍ ذِرَاعي**
أآلفةَ النحيبِ كم افتراقٍ	**أَظَلَّ فكانَ داعِيةَ اجْتماعِ!**
وليستْ فرحةُ الأوباتِ إلا	**لمَوْقُوفٍ على تَرَحِ الوداعِ**
تَوَجَّعُ أَنْ رَأَتْ جِسْمِي نَحِيفاً	**كأَنَّ المجدَ يدركُ بالصراعِ**

فَتَى النَّكَبَاتِ مَنْ يَأْوِي إذا ما قطفنَ بهِ إلى خلقٍ وساعِ

يُثِيرُ عَجاجَةً في كُل ثَغْرٍ يَهِيمُ بهِ عَدِيٌّ بن الرقَاعِ

أبنَّ معَ السباعِ القفر حتى لخالتهُ السباعُ منَ السباعِ

فَلَب الحُزْمَ إنْ حَاوَلْتَ يَوْماً بأَنْ تستطيعَ غيرَ المستطاعِ

فلَمْ تَرْحَلْ كناجِيَة المَهَارِي ولم تركبْ همومكَ كالزماعِ

بِمَهْدِي بنِ أَصْرَمَ عَادَ عُودي إلى إيراقِهِ وامتَدَّ بَاعِي

أطالَ يدي على الأيام حتى جزيتُ صروفها صاعاً بصاعِ

إِذَا أَكْدَتْ سَوَامُ الشعْرِ أَضْحَتْ عَطَايَاه وهُنَّ لَهَا مَرَاعِي

رياضٌ لا يشذُّ العرفُ عنها ولا تَخْلُو منَ الهِمَم الرتاعِ

سعى فاستنزلَ الشرفَ اقتداراً ولَوْلاَ السَّعْيُ لم تَكُن المَسَاعي

أمهدياً لحييتِ على نوالٍ لقدْ حكتِ الملامَ لغيرِ واعِ

أَرَدْتِ بحَيْثُ لاتُعصَى المعَالي بأَن يُعْصَى النَّدَى وبأَنْ تُطَاعِي

عَميدُ الغَوْثِ إِنْ نُوَبُ اللَّيَالي سطتْ وقريعها عندَ القراعِ

كَثيراً ما تُشوقُه العَوالي وهمتهُ إلى العلقِ المتاعِ

كأَنَّ به غَدَاةَ الروعِ وِرْداً وقَدْ وُصِفَتْ له نَفْسُ الشَّجَاعِ

لَحُسْنُ الموتِ في كَرَمٍ وتَقْوَى أَحَبُّ إليهِ مِنْ حُسْنِ الدفاعِ

ونَغْمَةُ مُعْتَفٍ يَرْجُوه أَحْلى على أُذْنَيْهِ مِنْ نَغَم السَّماعِ

جعَلْـتَ الجُـودَ لأْلاءَ المسَـاعي	وهـلْ شـمسٌ تكـونَ بـلا شـعاعِ
ومـا في الأَرْضِ أعْصَى لامتنـاع	يَسُـوقُ الـذَّمَّ مِـنْ جُـودٍ مُطَـاعِ
ولم يَحفَـظْ مُضَـاعَ المَجْـدِ شيءٌ	مـنَ الأشـياءَ كالمـالِ المضـاعِ
رَعـاكَ اللهُ للمعْـرُوف إني	أراكَ لسرحِ مالـكَ غـيرَ راعـي
فـما في الأرضِ مِـنْ شَرَفٍ يَفـاعٍ	سُـبِقتَ بـهِ ولا خُلُـقٍ يَفـاعِ
لعزمكَ مثلُ عزمِ السيلِ شـدتْ	قُـوَاهُ بالمـذَانِبِ والـتلاعِ
ورأْيُكَ مثْلُ رَأْيِ السَّيْفِ صَـحَّتْ	مَشُـورَةُ حَـدهِ عِنْـدَ المِصَـاعِ
فلـو صَـوَّرْتَ نَفْسَـك لم تَزِدْهـا	عـلى مـا فيـكَ مـن كـرمِ الطبـاعِ

وراجع هذه الصور المرددة في الأبيات لترى الشاعر قد عمد إلى هـذا النوع من النغم ليحمله مراده ، فتارة يضع النغمة في أطراف البيت وتـارات أخرى يحرك الشاعر النغمة من أطراف البيت إلى داخله .

وقد كنت عزمت عـلى إبـراز مـا في القصـيدة مـن رد الأعجـاز عـلى الصدور ، ولكني آثرت أن يكـون لـك فيهـا شـغل ، لتتـدرّب عـلى النظـر في الشعر واستخراج ما فيه وحدك ، لأن في هذا من المتعة ما يفوق كلامي .

النـوع الثالـث:أن يقـع اللفظـان في آخـر المصـراع الأول وعجز الثاني .

كقول أبي تمام من قصيده يمدح بها محمد بن يوسف الطائي :

ومن كان بالبيض الكواعب مغرماً　　فما زلت بالبيض القواضب مغرما

فالرد هنا جاء في آخر كل جملة نغمية ، فجاءت الكلمة الأول في آخر الشطر الأول ، وجاءت الثانية في آخر الشطر الثاني وهذا يعني أن الشاعر يختار مواقع الكلمات ، واختار هذا الموقع لأنه يمثل نهاية الجملة فهو أشبه بالفاصلة القرآنية ، ولهذا من التأثير ما له .

ونظير هذا قول الحريري في إحدى مقاماته المسماة (مقامات الحريري)[1]:

بها ما شِئْتَ مِنْ دِينٍ ودُنْيا	**وجيرانٍ تنافَوْا في المعاني**
فمَشغوفٌ بآياتِ المثاني	**ومفْتونٌ برَنّاتِ المثاني**
ومُضْطَلِعٌ بتلْخيصِ المعاني	**ومُطّلِعٌ إلى تخْليصِ عانِ**
وكمْ مِنْ قارِئٍ فيها وقارٍ	**أضَرّا بالجُفونِ وبالجِفانِ**
وكمْ مِنْ مَعْلَمٍ للعِلْمِ فيها	**ونادٍ للنّدى حُلْوِ المَجاني**
ومَغْنًى لا تزالُ تغَنُّ فيهِ	**أغاريدُ الغَواني والأغاني**
فصِلْ إن شِئتَ فيها مَنْ يُصَلّي	**وإمّا شِئْتَ فادنُ منَ الدِّنانِ**
ودونَكَ صُحبَةَ الأكياسِ فيها	**أوِ الكاساتِ منطَلِقَ العِنانِ**

١- المراد بالمقامة الجلسة التي يملي فيها العالم شيئا من أقوالهو هي من ضرب الأمثال وإبراز الطرق الغريبة والأسرار العجيبة والبديع الذي لم ينسج على منواله ولا خطر بفكر أديب .فالمقامات فن من فنون الكتابة العربية ابتكره بديع الزمان الهمذاني، وهو نوع من القصص القصيرة تحفل بالحركة التمثيلية، ويدور الحوار فيها بين شخصين، ويلتزم مؤلفها بالصنعة الأدبية التي تعتمد على السجع والبديع. ومن هذه المقامات مقامات بديع الزمان الهمذاني، ومقامات الحريري،زمقامات الزمخشري، ومقامات السيوطي ومقامات القرني " .

وراجع النظر في كلمتي(المثاني) وأين وضعت كل منهما ، وكأنهما رباط ، وخاتمة كل شطر ، حتى لكأن الشاعر ، لا يعيد عليك الكلمة بل يعيد عليك الشطر نفسه ، مما يعنى أن للكلمة المكررة مساحة كبيرة في نفسه ومكانة عظيمة في تصوره ، فوضعها حيث هي في النفس والفكر .

النوع الرابع:أن يقع اللفظان في أول المصراع الثاني وعجزه.

نحو قول الشاعر :

رماك زمان السوء من حيث لا ترى فرامي ولم يظفر بها هو راما

فكلمة (رامي) في أول المصراع الثاني أعيدت في نهاية البيت ، وقد بنيتا على الكلمة الأولى في البيت وهي (رماك) فأشعرنا الشاعر بأننا في ساحة تصويب ، وأن الهدف المراد حاضر أمام الجميع ، فهذا يرمي من حيث يرى الهدف ، وهذا يرمي من حيث لا يرى ، والسهام لابد – مع هذا مصيبة ، لأن الكل مجمع على رمية ،فاللون البديعي أشعرنا بهذا الإحساس الأليم .

والمهم : أن تعرف أن في إعادة الألفاظ ، ورد بعضها على بعض شيئا من الحسن ، ولونا من الإبداع لأن المتكلم يكاد يحصر لك المعنى بين هلالين ، ويجمع لك المقصود بين معكوفتين ، ويرغمك – وأنت المخير – أن ترجع إلى كلامه مرة بعد مرة ، وأن تعيد النظر كرة بعد كرة ، وأن تروح وتجيء ، لتنظر وتتبع النظرة ، تلك هي أفعال المتكلم

بالقــارئ ، وتلاعــب النــاظم بالضــيف الهــانئ ، وهــذا مــن أبــدع البــدائع لو فقه أهل اللغة ، إن القضية في رد العجز على الصدر ليست قضــية إعادة لفظ في آخر الكلام كان قد ذكر في أولـه ، إنـما القضــية تكمــن في قدرة المتكلم على الإمساك بالقارئ ، فيسير به حيث أراد ، ويوقفــه حيث أراد ، يسرع به هنا ، ويبطئ به هناك ، وكلـما كنـت مـرغما عـلى العودة كان المتكلم أبلغ وأقدر من غيره .

الإرصاد

الإرصــاد في اللغــة : الانتظــار ، والإعــداد ، والتهيئــة ، والــتربص والترقب ، وهذه المعاني التـي يحملهـا اللفـظ لغويـا تحـث القـارئ عـلى أن يحدس بالقادم من الكلام ، أو بختامه قبل أن يتلفظ به المتكلم ، ففي الكلام تمهيد يجعل المستمع يتوقع لفظة الختام ، فإذا جاءت كما توقعهـا تمكنـت أيـما تمكــن ، **ولــذلك أطلــق عــلى هــذا النــوع مــن البــديع مصــطلح** : التمكــين والتسهيم .

أما تعريفه في الاصطلاح فيقول السعد في المطول :

(أَن يَجْعَل قبل الْعَجز مَا يدل عَلَيْهِ إِذا عُرف الروي)

مثل قَوْله تَعَالَى : ﴿.... **وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴿٤٠﴾﴾ [سورة العنكبوت:٤٠]

فَإِن من عرف أَن حَرْف الروي فِي الفقرات السَّابِقَة كان النُّون يسهل عليه أن يصل إلى كلمة العجز وحده ، لأن الكلام أظهر من أَن يخفى ويكثر الحديث في هذا الفن عند نقاد الشعر ، **يقول ابن الأثير** : حقيقة الإرصاد أن يبني الشاعر البيت من شعره على قافية قد أرصدها له أي: أعدها في نفسه، فإذا أنشد صدر البيت عرف ما يأتي في قافيته. وذلك من محمود الصنعة، فإن خير الكلام ما دل بعضه على بعض، وهذا يعني أن هناك إعداداً من المتكلم، في صنعة الكلام تجعله يختار من الألفاظ والمعاني ما يوصل السامع إلى الختام، **انظر مثلا إلى قول النابغة** :

فداء لامرئ سارت إليه　　بعذرة ربها عمي وخالي

ولو كفي اليمين بغتك خونا　　لأفردت اليمين عن الشمال

إنك بمجرد سماعك (عمي وخالي) ، ثم أتبعتها لفظة (اليمين) في البيت الثاني ، ستدرك من هذه اللحظة أن القافية الثانية هي (الشمال) لأن لفظة (عمي وخالي) أعطتك القافية ، والياء التي بعدها ، ولفظة (اليمين) حددت لك مقابلها وهي (الشمال) ، وهكذا تجد الكلام يأخذ بناصيتك إلى اللفظة المحددة ، فيستوي لديك الكلام بحيث تعرف آخره من أوله ، ولذلك يسمى أيضا التسهيم ، والتسهيم يعني جعل الخطوط متساوية ، فأول الكلام يستوي مع آخره ، أو أنه سمي تسهيما لأن المتكلم يصوب ما قبل عجز الكلام إلى عجزه.

والتسهيم: تصويب إلى الغرض. ومنهم من سماه (الإرصاد) من أرصد له، بمعنى أعد أول الكلام لآخره، أو لأن السامع يرصد ذهنه لعجز الكلام بما دل عليه مما قبله.

وانظر مثلا إلى قول البحتري:

أحلت دمي من غير جرم وحرمت بلا سبب يوم اللقاء كلامي

فليس الذي حللته بمحلل وليس الذي حرمته بحرام

ألا ترى أنك توصلت إلى لفظة (بحرام) قبل أن تسمعها من الشاعر **حين ذكر لك قوله** : في القافية (كلامي) ثم أخذ بيدك حين ذكر لك الحلال في قوله : (فليس الذي حللته بمحلل) ؟

وابن الأثير جعل هذا اللون من فنون علم البيان، في حين أنه في المثل السائر عنده من فنون علم البديع، يقول في الجامع الكبير (هو نوع من أنواع علم البيان ، لطيف المأخذ ، دقيق الصنعة ؛ وذلك أن يبني الشاعر البيت على قافية قد أرصدها له أي : أعدها في نفسه، فإذا أنشد صدر البيت عرف ما يأتي به في قافيته ؛ وذلك من محاسن التأليف ، لأن خير الكلام ما دلَ بعضه على بعض ، والشعراء يفتخرون بالكلام الذي يدل أوله على آخره ، **وفى هذا يقول ابن نباته:**

خذها إذا أنشدت فى القوم من طرب صدورها عرفت منها قوافيها

والسؤال : لماذا ؟ما الذي يريده الشاعر في تعريف المخاطب آخر الكلام قبل أن يصل إليه ؟ و ما وجه الجمال في هذا ؟

الذي أراه أن المبدع يريد إشراك المتلقي في إنتاج الفن الذي يزاوله لأنه بهذا يزيد من حماسته في التلقي ، ويستولي على لبه فلا يزوغ عنه أثناء الإنشاد ، ويجعله متربصا بالكلام جملة بعد جملة ، وهذا غاية المبدع في كل فن ، **أعني**: أن يستولي على عقل المتلقي وأحاسيسه ومشاعره ، كما أن في هذه المشاركة اتحادا بين الطرفين تجعل من النص نتاج أكثر من فكر مما يعطيه زخما يرفع من قدره .

وإحساس المتلقي بأنه قادر على صنع ما يصنعه المبدع يجعله ينظر إلى نفسه على أنه شريك في النص وليس متلقيا فقط ، ولقد ذكر الماوردي والزمخشري أن عبد الله بن سعد بن أبى سرح كان يكتب للنبي ﷺ فأملى **عليه قول الله تعالى** :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة المؤمنون:١٢]

إلى قوله: {خَلْقاً أَخَرَ} فقال ابن أبي السرح: { فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ } تعجباً من تفصيل خلق الإنسان ، فقال النبي ﷺ: (هَكَذَا نَزَلَتْ) فشك وارتد.

فنطق بذلك قبل إملائه، وقال : إن كان محمد نبيا يوحى إليه فأنا نبـيّ يوحى إليّ، فلحق بمكة كافرا، ثم أسلم يوم الفتح[1]

وفي الحديث الشريف يقول النبي ﷺ :

(فما بعد الموت مـن مسـتعتب، ومـا بعـد الـدنيا مـن دار إلا الجنـة أو النار) ، ولا شك أن السامع إذا وقف على قوله: فما بعد الدنيا من دار، فإنه يتحقق لا محالة أن ما بعده «إلا الجنة أو النار» لـما بيـنهما مـن شـدة الملائمـة وعظيم المناسبة، ومن هذا قوله عليه السلام لما سار لفتح خيـبر، فلـما رآهـا قال الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين، فإن السامع إذا وقف على قوله: نزلنا بسـاحة قـوم، عـرف أن مـا بعـده ، فسـاء صباح المنذرين، لأن قوله : (إذا نزلنا بساحة قـوم) فيـه وعيـد عظـيم لهـم بالبوار والإهلاك فهو دال على قوله فساء صـباح المنـذرين، لأنـه لا صـباح أعظم فى البلاء من ذلك اليوم لما اشتمل عليه من القتل والأخـذ ، ولا بـلاء مثل هذا، كما قال العلوي في الطراز ، وشاع في مثل ذلك نماذج كثير تستطيع

١-عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ لَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ أَمَّنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ إلا أَرْبَعَةَ نَفَرٍ وَامْرَأَتَيْنِ وَقَالَ اقْتُلُوهُمْ وَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمْ مُتَعَلِّقِينَ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ عِكْرِمَة بن أبي جهل وَعبد الله بن خطل وَمقيس بن صبابَة وَعبد الله بن سعد بن أبي السَّرْح فَأَما عبد الله بْنُ خَطَلٍ فَأُدْرِكَ وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ فَاسْتَبَقَ إِلَيْهِ سَعِيدُ بْنُ حُرَيْثٍ وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ فَسَبَقَ سَعِيدٌ عَمَّارًا وَكَانَ أَشَبَّ الرَّجُلَيْنِ فَقتلهعن سعد، قال: لما كانَ يوم فتح مكة اختبأ عبدُ اللهِ بن سعْدِ بنِ أبي سَرحٍ عندَ عثمانَ بنِ عفّان، فجاء به حتى أوقفه على النبي - صلَّى الله عليه وسلم -، فقال: يا رسولَ الله - صلَّى الله عليه وسلم - بايع عبد الله، فرفَع رأسَه، فنظر إليه، ثلاثاً، كل ذلك يأبى، فبايعه بعد ثلاثٍ، ثم أقبل على أصحابِه فقال: "أما كان فيكم رجلٌ رشيدٌ، يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعتِه فيقتلَه؟ " فقالوا: ما ندري يا رسول الله ما في نفسك؟ ألَّا أومأتَ إلينا بعينك؟ قال: "إنَّه لا ينبغي لنبيٍّ أن تكونَ له خَائِنةُ الأعينِ".

أن تتدرب على مثلها فتقرأ أول الكلام وتحاول أن تستكمل ما تراه مناسبا وقد تصيب وقد تخطئ ، ولكنك لا بد ستتعلم كيف يهدي لك أول الكلام آخره ، وكيف يرشدك صدر الكلام إلى ختامه وبخاصة إذا عرفت حرف الختام وحركته .

ولقد جاء في معاهد التنصيص ما حكاه عمر بن أبي ربيعَة المَخْزُومِي أنه جلس إِلَى ابْن عَبَّاس رَضِي الله عَنْهُمَا فابتدأ ينشده :

(تشطُّ غَدا دارُ جيرانِنا ...)

فَقَالَ ابْن عَبَّاس رَضِي الله عَنهُ :-

(وللَدارُ بعدَ غدٍ أبعدُ ...)

وَكَانَ كَذَلِك وَلم يسمع غير الشّطْر الأول ، وَكَذَلِكَ يحْكى عَن عدي بن الرّقاع أَنه أنْشد فِي صفة الظبية وَولدهَا:(تُزْجي أغَنَّ كَأَن إبرة روقه ...)وغفل الممدوح عَنهُ فَسكت وَكَانَ جَرِيرًا حَاضرا فَقيل لَهُ مَا ترَاهُ **يَقُول فَقَالَ جرير:**

(قلم أصابَ من الدواة مدادَها ...)

وَأَقْبل عَلَيْهِ الممدوح فَقَالَ كَمَا قَالَ جرير لم يُغَادر حرفا ، وَمِنْه قَول الخنساء:-

(ببيض الصفاح وَسمر الرماح فبالبيض ضربا وبالسمر وخزا)

وَقَول دعبل:-

(وَإِذا عانــــــدنا ذُو قـــــوةٍ   غضـــب الــرّوح عَلَيْـــهِ فعـــرجْ)

(فعــلى أَيْمَاننَــا يجْــرِي النَّــدَى   وعَـــلى أســـيافنا تجْــرِي المهـــج)

وينسب إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام:

ولي فرس بالجهل للجهل ملجم   ولي فـرس بـالحلم للحلـم مسرـج

فمن شـاء تقـويمي فـإني مقـوم   ومــن شــاء تعــويجي فــإني معــوج

وَمن جيد الإرصاد قَول بَعضهم:-

(وَلَو أنني أعطيتُ من دهريَ المنى   وَمَا كل من يُعْطَـى المنـى بمسَـدِّدِ)

وفي الختام أذكرك بأن المتكلم حين ينصب اللفظ في أول الكلام ليعلق الختام به ، إنما يريد أن تشاركه ، وأن تتجاوب معـه ، وأن تظـل عـلى وعـي بما يقول لا تنفك منه ، وتلك أمور يسعى إليها كل متكلم فصيح في الشـعر أو النثر ، وهي من المحاسن التي تعجب لها القلوب ، وتهش لها وتبش .

المجاورة

تتعدد استخدامات هذا المصطلح في البيان العربي، فهو في علم البيـان يدخل في إطار علاقات المجاز المرسل، حيث يطلق عـلى اللفـظ اسـم لفـظ آخر إذا وقع مجاورًا له، أو كان منه بسبب ، مثل أن يسـمى السـحاب سـماء في نحو قولهم :

إذا نــزل الســماء بــأرض قــوم　　　رعينـــاه وإن كـــانوا غضـــابا

فإطلاق لفظ (السماء) على الماء جاء لمجاورة الماء للسـماء حـين يكـون سحابا ، هذا هو الشق المتعلق بعلم البيان ، ويدرس هنـاك عـلى أنـه علاقـة من علاقات المجاز المرسل ، لكن الذي معنا هنا شيء آخر ، ومجاورة أخرى **فالمجاورة هنا تعني :**

تردد لفظتين في البيت، ووقـوع كـل واحـدة مـنهما بجنـب الأخـرى أو قريبا منها ، من غير أن تكون إحداهما لغوا لا يحتاج إليها ، ومثـال ذلـك **قول علقمة الفحل :**

ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمـه　　　أنّـــى توجّـــه والمحـــروم محـــروم

وراجـع هـذين اللفظـين «الغـنم يـوم الغـنم» وأثرهمـا عـلى أذنـك وحلاوتهما في سمعك ، ومن أين جاء هذا الحسـن ؟ لا شـك أنـك سـتجده من هذه الصحبة التي جعلت للمجاورة حلاوة لا تنشأ إلا من استمدادها

من جيرتها ، (فالغنم يوم الغنم) والفوز يوم الفوز والنجاح يوم النجاح والنصر يوم النصر .... إلخ.

ووجه الجمال في هذا الإشارة إلى الزخم الذي دلت عليه المجاورة هذا الزخم جعل الظفر يطيب جدا عند احتشاد الجميع له ، فهو يوم الغنم ولا يغنم يوم الغنم إلا أقوى الناس استعدادا ، وهذا يطرب النفس جدا فليس الظفر هبة ، أو صدفة ، أو عطية دون جهد ،كلا كلا ، إن الجميع هنا مجتمعون للظفر ، والكل مستعد ، ثم كان الظفر لواحد فقط ، !!! أرأيت ماذا فعلت المجاورة في المعنى ؟ !

ثم راجع المثال الآخر وهو أقوى من السابق دلالة وحسنا ، وذلك قوله : « المحروم محروم» وفتش عن وجه البراعة في هذا الحسن الذي يتدفق من المثال : المحروم محروم ، وكأنه يقول لك : إن المحروم ، في هذا اليوم لم يحرم فضائله فقط ، إنما حرم من كل فضل ، ومنع من كل عطاء ، وأصبح حرمانه الخاص في هذا اليوم عنوانا لحرمانه في كل يوم ، حتى صار مشهورا بين الناس بأنه محروم ، فلا يعطى شيئا بعده أبدا ،إن هذه الدلالات لا تجدها إلا في هذه المجاورة التي أعطت المعنى زخما ، وأرفدته اتساعا وصبغته بصبغة أخرى جعلت من النغم المنبعث من الجوار علامة عليه وإذا فتشت وجدت هذا الذي أقول ، وأكثر مما أقول ،وغير ما أقول.

وتتسع مساحة هذه المجاورة لتشمل صورا أخرى للنظم ، لا تقتصر على المبتدأ والخبر ، ولا المضاف والمضاف إليه ، وإنما تشمل الفاعل والمفعول ، **وذلك مثل قول القائل :**

إنما يغفر العظيم العظيم ، ولو أنك حاولت فصل اللفظتين عن بعضهما ، ووضعت بينهما لفظا آخر وجدت الحسن يضيق ، والنغم يخفت فإذا وضعت بينهما أكثر من لفظ وجدته ينمحي ، وجرب هذا حين تقول مثلا : إنما يغفر العظيمُ الذنبَ العظيمَ ، هنا قل الحسن وخفت صوت النغم فإذا قلت : إنما يغفر العظيمُ من الرجال الذنب العظيم) وجدت الحسن المنبعث من المجاورة قد انطفأ ، فالحسن في هذا اللون ينبعث من هذا التجاور ، وكأن اللفظتين يتكاتفان في تعلية صوت المعنى حتى يستقر في أذن وعقل المتلقي ، ثم يتسللان إلى قلبه .

المهم أن علو صوت هذا الحسن ينبعث من شدة التجاور، فحين يشتد التجاور يزداد الحسن ، **ولذلك حين تسمع أبا تمام يقول :**

وما ضيق أقطار البلاد أضافنى إليك ولكن مذهبى فيك مذهبى

وقول أبى الشيص: فأتوك أنقاضا على أنقاض ، **أو قول أبى النجم:** تدنى من الجدول مثل الجدول ، **أو قول الآخر:**

قم فاسقنى من كروم الرند ورد ضحا ماء العناقيد فى ظل العناقيد «٤»

تجد الحسن موجودا لكنه لا يقوى قوة :

(والمحروم محروم) لأن الفاصل بين المتجاورين يضغط على صوت التجاور ويحاول إخفاته ، فإن كان هذا اللفظ قويا أضاعه بالجملة وإن كان ضعيفا شغب على صوت التجاور ، فإن أزيل علا صوت التجاور حتى أطربك ، ولذلك أريدك أن تراجع هذه المعاني في النماذج التالية لتتعرف على أثر اللفظ الفاصل على حسن المجاورة ، اسمع مثلا إلى قول أحدهم ، وقد بعث إلى جارية يقال لها راح براح ، **وانظر إلى الحسن الذي فيه ثم قارنه بقول الشاعر :**

قل لمن تملك القلوب وإن كان قد ملك

قد شربناك فاشربى وبعثنا إليك بك

ثم ضع هذا ، ووازنه بقول الشاعر:

فلونى والمدام ولون ثوبى قريب من قريب من قريب

أو قول آخر :

كأن الكأس فى يده وفيه عقيق فى عقيق فى عقيق

أو قول ثالث :

ألامسها وقد لبست حريرا فأحسبها حريرا فى حرير

فأنسٌ ثم لهوٌ ثم زهرٌ سرور في سرور فى سرور

وقول مسلم:

أتتك المطايا تهتدى بمطيّة عليها فتى كالنّصل بؤنسه النصل

الفصل الرابع
فنون التضاد

توطئة :

الجمال كله تستشعره النفوس في مناسبة الأشياء بعضها لبعض فالنفس حين ترى مشهدا جميلا تراها تعبر عنه بأنه متناسب ، متوافق يتناغم بعضه مع بعض ، في الشكل ، أو الحجم ، أو اللون ، أو المقدار أو غير ذلك ، وقد يظن القارئ أن فنون التضاد بمعزل عن هذا التناسب لأنك في شأن خلاف وتعارض ، وذهاب في غير الاتجاه ، والحق أن الحديث عن فنون التضاد ليس ببعيد عن هذا التناسب ، ولا بغريب عن هذا الجمال ، وإن كان الظاهر أن الطرفين متعاندان ، لأنك حين تضع بجوار الشيء ضدَّه فإنك بالحقيقة تضع بجواره ما يظهر جماله ، وما يبرز حسنه ، وما يوضح قيمته ، فأنت لن تعرف قيمة الشيء إلا باقترانه بمقابله فالتضاد تناسب ، ولكن من جهة الجمع بين الشيء وضده ، في المعنى الواحد ، بحيث تريك الوجهين دفعة واحدة ، وتلقي إليك بالنقيضين معا لتميز بين الحلو والمر ، والبارد والحار ، والخشن والأملس ، والأبيض والأسود ، تريد ألا تترك وسيلة إيضاح إلا وضعتها بين يديك ليتمكن المعنى من قلبك أيما تمكن .

وهـذا المـدخل يجعلنـا نقـف أمـام مصـطلح التضـاد ، ومـا يحملـه من وسائل بيانية ، هي في البديع صورة ، وإن كنت أعـدها مـن عـالم البيـان فالتضاد غاية يرمي إليها المتكلم يستدعي بها الشيء وضده في الكلام ، ترى ذلك على مستوى الكلمة ، والجملة ، والعبارة ، والنص .

وحين يذكر المتكلم الشيء وضده إنـما يسـتحث المخاطـب ليشـاركه في إنتـاج المعنـى ، يسـتفزه ليقـارن ، ويـوازن ، ويتأمـل الفـروق ، ويحـدد المسافات ، ثم في النهاية يختار ما يراه صـالحا لـه ، أو يـتعظ إن كـان الكـلام في عظة ، أو يوجه ويرشد ، أو غير ذلك من السياقات .

إن هذا اللون مـن البيـان يشـعرك بأنـك مشـارك في الـنص ، تختـار وتفضل ، بعد أن ترى الأمور بين يـديك واضـحة جليـة ، وهـذا يعنـي أن التضاد أسلوب متصل بالنفس البشرية اتصالا وثيقا ، فهو لـيس مـن قبيـل الترف ، بل هو تعبير عن النفوس المضطربة القلقة التي تتصارع مـع الواقـع تلك النفوس التي تغلي من فرط ما ترى من تناقضات ، فيظهر على كلامهـا ما يعبر عن هذه التناقضات في صور التضـاد ، إن التضـاد في حقيقتـه تعبـير عن الصرـاع بـين الواقـع الـذي يعيشـه النـاس ، والمرجـو الـذي يتمنونـه والمبدعون حين يعـبرون عـن مكنونـاتهم بهـذه الألـوان إنـما ينفسـون عـن أنفسهم ، ويصورون الفجوة الكبيرة بين الواقع والمـأمول إن فنـون التضـاد مرآة لغليان النفوس بسبب التناقضات التي يحياها النـاس ، وكـم في مصرـ من هذه التناقضات !!!!.

المهم أن هذه التناقضات لها صور وأشكال عند البلاغيين ، وقد ذكر ابن سنان الخفاجي صور التضاد ، والمصطلحات التي ارتضاها البلاغيون فقال (وسمى أصحاب صناعة الشعر ما كان قريباً من التضاد:

" المخالف " ، وقسم بعضهم التضاد فسمى ما كان فيهما لفظتان معناهما ضدان كالسواد والبياض : " المطابق " ، وسمى تقابل المعاني والتوفيق بين بعضها وبعض حتى تأتي في الموافق بما يوافق وفي المخالف بما يخالف على الصحة: " المقابلة " ، وسمى ما كان فيه سلب وإيجاب: بالسلب والإيجاب ولم يجعله من المطابق)[1].

وهذا التقسيم رغم قدمه إلا أنه أقرب الأمور إلى الضبط والإحكام لأن العلماء ذهبوا في تقسيم صور التضاد مذاهب شتى وتعددت بهم الطرق حتى اختلطت على الدارس ،لذلك سأرتضي- لنفسي- تقسيما لا يبعد عن كلام ابن سنان الخفاجي ، ولكن سيضيف إليه ، لأن الأمر أوسع من هذه الدائرة ، ففنون التضاد تشمل صورا أخرى لم ينص عليها ابن سنان وسوف **يتضح ذلك فيما يأتي :**

المستوى الأول:الأضداد

هذا النوع من التضاد يعد اللبنة الأولى ، لأن التضاد فيه يقع بين دلالتي الكلمة الواحدة ، وفي هذا من الطرافة ما تستملحه النفوس ، فقد تجد العربي يستعمل الكلمة في وصفٍ ما ، يضاد واقع الموصوف ، فيقول

١- سر الفصاحة ص ٢٠٠.

على (البيداء) التي يضل فيها السالكون : (مفازة) وهي تيهاء قاحلة مهلكة ، لكنه يطلق عليها (مفازة) تفاؤلا بتجاوزها ، والنجاة منها ويطلق على الليل والنهار (الصريم) لأن كل واحد منهما ينفصل من الآخر فالتضاد هو دلالة اللفظ على معنيين متضادين دلالة مستوية ، وذكر بعض أهل العلم أنه إِذا وقع اللفظ على معنيين متضادّين، فالأَصلُ لمعنًى واحد ثمَّ تداخل الاثنان على جهة الاتساع([١]).

فالوثب – مثلا – هو القفز إلى أعلى ، لكن في لغة قبيلة " حِمْيَر " يقولون للرجل :" ثِب "ويريدون : اجلس (والوِثاب معناه الفِراش بلغة حِمْيَر ، وهم يسمّون الملك إِذَا كَانَ لا يغزو "موثَبان" يريدون أنه يطيل الجلوس ولا يغزو)([٢])، فاستعمال اللفظ في ضد منطوقه لغة فصيحة من لغات العرب .

وزعم بعض أهل العلم أن هذا الاستخدام إنما يكون لنكتة بلاغية (فمن النكات البلاغية أن تعبر عن الشيء السيئ بالعبارة الحسنة ، واثقًا من فهم المخاطب كلامك ؛ كتعبيرك عن الأعمى بالبصير، وعن الأسود بالأبيض. وأكثر ما يكون ذلك على سبيل التفاؤل ، وهو أمر يعود بالدرجة الأولى إلى العقلية الاجتماعية السائدة في بيئة ما ، ونحسب أن أبا حاتم

١- الأضدادلابن الأنباري ص ١٠٤.

٢- الصاحبي لابن فارس ١/ ٢٧ وروي أن زيد بن عبد الله بن دارِم وفد عَلَى بعض ملوك حِمْيَر فألْفاه فِي مُتَصَيَّد لَهُ عَلَى جبل مُشْرِف، فسلم عَلَيْهِ وانتسب له، فقال لَهُ الملك "ثب" أي اجلس، وظن الرجل أنه أمره بالوثوب من الجبل فقال: "لتجدني أَيُّها الملك مِطْواعاً" ثُمَّ وثب من الجبل فهلك، فقال: الملك: مَا شأنه؟ فخبّروه قصته وغلطه فِي الكلمة، فقال: "أما أنه ليست عندنا عربية: من دخل ظَفارِ ١ حَمّر" وظفار المدينة الَّتِي كَانَ بِهَا، وإليها ينسب الجَزْع الظفَّاري. من دَخل ظفار فليتعلم الحميرية.

السجستاني في كتابه عن "الأضداد" لم يكن يقصد غير هذا حين قال:

إنما قيل للعطشان: يا ريان، وللملدوغ: سليم -أي سيسلم- وسيَرْوَى، ونحو ذلك ؛ لأن معنى " فاز " : نجا ، فالمفازة : المنجاة ، **كما قال تعالى:** ﴿.....فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [سورة آل عمران:١٨٨]

أي: بمنجاة ، والأسرار البلاغية لا عَلاقة لها في الواقع بوضع اللغة فهي أمور نسبية تتفاوت طرق التعبير عنها بتفاوت الأشخاص، فلم يكن ضروريًّا أن يكون ما استعمل على سبيل التقابل لغرض ما دالًّا على التضاد الحقيقي الوضعي، ولكن الناس إذا تناسوا علاقة التقابل هذه "تستدعيها الصور والألفاظ والأفكار المتداعية" نقلوا هذه الألفاظ متوهمين فيها التضاد الحقيقي، فاجتمع لديهم من ذلك ما اجتمع مما يسمونه "بالأضداد")(١)، **ويقول ابن الأنباري:** (ويَظُنُّ أَهلُ البِدَع والزَّيْغ والإِزْرَاء بالعرب، أَنَّ ذلك كان منهُمْ لنُقْصان حكمتهم، وقلَّة بلاغتهم وكثرة الالْتباس في محاوراتهم، وعند اتّصال مخاطباتهم، فيَسْأَلُون عن ذلك ويحتجُّون بأنَّ الاسم مُنبِئ عن المعنى الَّذي تحته ودالٌّ عليه، ومُوضِحٌ تأْويلَه، فإِذا اعتورَ اللفظةَ الواحدة معنيان مختلفانِ لم يَعْرِف المخاطَب أَيَّهما أَراد المخاطِب، وبَطَل بذلك معنى تعليق الاسمِ على المسمّي.

١- دراسات في فقه اللغة لصبحي الصالح ١/ ٧٠.

فأُجيبوا عن هذا الَّذي ظنُّوه وسأَلوا عنه بضُروبٍ من الأجوبة:

أَحدُهنّ أَنَّ كلامَ العرب يصحِّح بعضُه بعضاً، ويَرتبِط أَوَّلُه بآخره ولا يُعْرَفُ معنى الخطابِ منه إِلاَّ باستيفائه، واستكمال جميع حروفه، فجاز وقوعُ اللَّفظَةِ على المعنييْن المتضادَّيْن، لأَنَّها يتقدَّمُها ويأْتي بعدَها ما يدلُّ على خصوصيَّةِ أَحد المعنييْن دون الآخر، ولا يُراد بِها في حالِ التكلُّم والإِخبار إِلاَّ معنًى واحد؛ **فمن ذلك قول الشَّاعِر:**

كلُّ شَيْءٍ ما خَلاَ المَوْتَ " جَلَلْ "   والفَتَى يَسْعَى ويُلْهِيه الأَمَلْ

فدلّ ما تقدَّم قبل "جلل " وتأَخَّر بعده على أَنَّ معناه: كلُّ شيءٍ ما خَلا الموت يَسيرٌ؛ ولا يتوهَّم ذو عقل وتمييز أَنَّ " الجَلَلَ " هاهنا معناه عظيم، **وقول الآخر:**

قَوْمِي هُمُ قَتَلوا أُمَيْمَ أَخِي   فإِذا رَمَيْتُ يُصِيبُني سَهْمِي

فَلَئِنْ عَفَوْتُ لأَعْفُوَنْ " جَلَلاً "   ولَئِنْ سَطَوْتُ لأُوهِنَنْ عَظْمِي

فدلَّ الكلامُ على أَنَّهُ أَراد: فلئن عفوتُ لأَعفونَّ عفواً عظيماً، لأنَّ الإِنسان لا يفخر بصفحه عن ذنب حقير يسير؛ فلـمَّا كان اللَّبس في هذين زائلاً عن جميع السامعين لم ينكَرْ وقوعُ الكلمة على معنيين مختلفين في كلامين مختلفَي اللَّفظين)[1].

١- الأضداد لابن الأنباري ص١.

وفي تفسير هذه الظاهرة كلام كثير عند العلماء ، ومن ذلك ما يراه السيوطي في المزهر : أنه (إذا وقع الحرف على معنيين متضادين فمحال أن يكون العربيُّ أوقعَه عليهما بمساواة (منه) بينهما ولكن أحدَ المعنيين لحيٍّ من العرب ، والمعنى الآخر لحيٍّ غيره ثم سَمِع بعضُهم لغة بعض فأخذ هؤلاء عن هؤلاء ، وهؤلاء عن هؤلاء. قالوا: (فالجَوْنُ)الأبيض في لغة حيٍّ من العرب ، والجَوْن الأسود في لغة حي آخر ، ثم أخذ أحدُ الفريقين من الآخر)[1].

والقرآن الكريم استعمل الظن في معنى اليقين ، واستعملت العرب(الصارخ) بمعنى المغيث والمستغيث ، واستعملت " الرجاء والحسبان" ، بمعنى اليقين ، ويستعمل لفظ " القرء " للطهر والحيض وتستعمل لفظ "عسعس " بمعنى أقبل وأدبر، وغير ذلك كثير جمعه ابن الأنباري وغيره في كتبهم .

ويرى غيره أن الكلمة المعبرة عن المعنى وضده سبق استعمالها في الأغلب للدلالة على أحد المعنيين، ثم استعملت للدلالة على المعنى الآخر في عصر تال، وهكذا تصاحب الاستعمالان.

ولم تصطنع كلمة جديدة، أو كلمة سواها ، لأننا نفكر في كل صفة عند النطق مع ما يقابلها ، فعندما أقول "أبيض" فأنا أفكر "غير واع"

١- المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي ١ / ٣١٥.

في "الأسود" "وكأنه تعريف جديد بالمناقض ، لأن كل كلمة تثير في النفس معناها المضاد .

وهذا بخلاف التوجيه، وهو فن من فنون البديع، لكن هناك الدلالة على المعنى وضده كامنة في العبارة، وأنا هنا في شأن اللفظة الواحدة.

المستوى الثاني:" الطباق "

وهذا المستوى خروج من دائرة اللفظ الواحد إلى دائرة أوسع قليلا ولكنها محكومة أيضا ، إنها دائرة الجملة ، **وأعني بالجملة** :

ما يعبر بها عن المعنى التام سواء جاءت طويلة أم قصيرة ، وهذا الضبط " بين لفظتين " يساعد كثيرا على إحكام الأقسام ، لأن مصطلح الطباق شاع ، وأطلق على فنون التضاد كلها ، وأصل الطّباق فى اللغة " فِعَال " من الفعل " طبق " **يقول ابن فارس** :

{ الطَّاءُ وَالْبَاءُ وَالْقَافُ أَصْلٌ صَحِيحٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى وَضْعِ شَيْءٍ مَبْسُوطٍ عَلَى مِثْلِهِ حَتَّى يُغَطِّيَهُ. مِنْ ذَلِكَ الطَّبَقُ. تَقُولُ: أَطْبَقْتُ الشَّيْءَ عَلَى الشَّيْءِ، فَالْأَوَّلُ طَبَقٌ لِلثَّانِي ؛ وَقَدْ تَطَابَقَا. وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُمْ: أَطْبَقَ النَّاسُ عَلَى كَذَا، كَأَنَّ أَقْوَالَهُمْ تَسَاوَتْ حَتَّى لَوْ صُيِّرَ أَحَدُهُمَا طِبْقًا لِلْآخَرِ لَصَلَحَ. وَالطَّبَقُ: الْحَالُ.

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ١٩﴾ [سورة الانشقاق:١٩]

وَقَوْلُهُمْ: " إِحْدَى بَنَاتِ طَبَقٍ " هِيَ الدَّاهِيَةُ، وَسَمِّيَتْ طَبَقًا لِأَنَّهَا تَعُمُّ وَتَشْمَلُ. وَيُقَالُ لِمَا عَلَا الْأَرْضَ حَتَّى غَطَّاهَا: هُوَ طَبَقُ الْأَرْضِ... وَطَابَقْتُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ، إِذَا جَعَلْتَهُمَا عَلَى حَذْوٍ وَاحِدٍ.وسمى العلماء مَا تَضَاعَفَ مِنَ الْكَلَامِ مَرَّتَيْنِ : مُطَابَقًا ، وَذَلِكَ مِثْلُ جَرْجَرَ، وَصَلْصَلَ، وَصَعْصَعَ)(١).

فاللفظة في اللغة تشعرك بأن هناك شيئا وضع على شيء حتى شمله وغطاه ، فهناك ساتر ومستور ، وهناك تساو في الحجم والمقدار ، وهناك تضاد في الوقت نفسه ، وراجع كلمة ابن فارس (وضع شيء مبسوط على مثله حتى يغطيه " مثل الطبق ، فهذه الدلالة ينبغي استحضارها في المعنى الاصطلاحي ، كما ينبغي استحضار المعني الحسي في دلالة الطباق، فالطباق أقرب إلى الأمور الحسية منها إلى المعنوية ، ولذلك قصره على الألفاظ المتضادة أقرب من تعويمه على الجميع .

أما الدلالة الاصطلاحية فلخصها أبو هلال العسكري حيث قال : أجمع الناس أنّ المطابقة فى الكلام هي:

الجمع بين الشيء وضدّه في جزء من أجزاء الكلام

مثل الجمع بين : البياض والسواد، والليل والنهار، والحرّ والبرد ، إلخ.

١- مقاييس اللغة لابن فارس مادة طبق.

وفلسفة الطباق تدور حول توضيح المعاني بمواجهتها بنقيضها ودائما النفوس تعجب وتطرب حين يعرض عليها الشيء وضده، لأنها حينئذ ترى الأمور على أكمل درجات الوضوح، والضد يظهر حسنه الضد.

صور التضاد بين لفظتين

هذا التضاد على أربع صور ، فهو إما أن يكون بين اسمين ، أو بين فعلين ،أو بين حرفين ، أو بين مختلفين ، وهذا الحصر أقرب إلى الضبط وتحديد الأقسام أيسر على القارئ من إدخال بعضها في بعض ، ومادام الحديث في التضاد بين كلمتين فليحدد الكتاب صور هذا التضاد .

الطباق بين اسمين :

قول الله تعالى :﴿ **وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ** .... ﴾ [سورة الكهف:١٨]

ترى الطباق بين: "أَيْقَاظاً" و "رقود" وهما اسمان وكذا بين: "ذاتَ الْيَمِينِ" و "ذاتَ الشِّمَالِ".

وهذا الطباق يعكس الفهم المغلوط ، والظواهر الخاطئة ، حيث ترى واقعا والحق بخلافه ، وتشاهد منظرا والحقيقة تناقضه ، فهذا منظر أناس مستيقظين والحق أنهم نائمون ، فخداع الصورة استلزم وضعها في إطار الطباق ، لأنه الأقدر على حمل هذا التناقض بين الوهم والحقيقة .

ومن التطابق بين الأسماء أيضا قوله تعالى :

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾

[سورة فاطر:١٩-٢٢]

فالعبارة مبنية على جملة " وما يستوي " ومن خلال هذه الجملة تدرك هذا التناقض القائم بين طرفين يقع كل منهما في مواجهة الآخر ، **فهناك** :

(أعمى في مواجهة البصير) (وظلمات في مواجهة النور) (وظل يواجه الحرور) (وأحياء في مواجهة الأموت) وكل هذه المواجهات بين أسماء ، ثم تختم بقوله " إن الله يسمع " لتكون في مواجهة : " ما أنت بمسمع " هذه أربعة نماذج متتابعة ، كل نموذج منها يمثل وحدة مستقلة وإن كان المراد العام أو الغرض الرئيس واحد ، وهو تصوير التضاد بين المؤمن والكافر، أو بين الإيمان والكفر ، كما أن كل نموذج يعد صورة تمثيلية تشبه حالة كل من الإيمان والكفر ، فالإيمان صور بحالة (الإبصار ، والنور والظل ، والحياة) ، أما الكفر فوضع في دائرة تشبيهية تضاد هذا وهي دائرة (العمى ، والظلام ، والحر ، والموت) ، والمقصد الأعلى في هذا التضاد هو الرد على الكافرين ، فالسورة من بدايتها تخاطب هؤلاء المكذبين وتقول " هل من خالق غير الله يرزقكم ؟ لا تغرنكم الحياة الدنيا

ولا يغرنكم بالله الغرور ، إن الشيطان لكم عدو ، أنتم الفقـراء إلى الله .... إن يشأ يذهبكم ، ويأت بخلق جديد .... إلخ.

لأجل كل هذا تلحظ تقديم الأعمى على البصير ، وتقـديم الظلـمات على النور ، وكذلك الظل على الحرور ، ثم ختمت الآية بتقديم الأحياء على الأمـوات ، لـيس لـنقض السياق الـذي أشرت إليـه ولكـن لتبقـى لفظـة " الأموات " التي ختمت بها الآية عالقة في الذهن ، بهذا الحرف المهمـوس " التاء " ومن قبله ألف المد الذي تسـتريح الـنفس بعـد نطقـه عـلى حـرف ساكن ، وكأنها تقيل بعد تعب ، ولذلك يحسـن الوقـف عليهـا لإبـراز هـذا المعنى .

كما أن التضاد هنا فرق الأوصاف ، وجعـل كـل صـفة مـع مطابقهـا فوضع الأعمى مع البصير في إطار واحد ، وكذا الظلمات مع النور ، والظل مع الحرور ، والأحياء مع الأموات ، وهذا يعد من باب تكرار المشهد المـراد توصيله ، مشهد التناقض بين الصورتين ، وكان مـن الممكـن جمـع صـفات الكافرين دفعة ، وجمع صفات المؤمنين كذلك ، لكن المشهد سيكون مخزونـا في صورة واحدة ، والقصد كما قيل تحذير الناس مـن الكفـر ، وهـذا يحتـاج إلى معاودة ، وتكرار المناظر ليتم التأثير ، وبخاصـة أن هنـاك عمـى وظلمـة وهناك فقدان للراحة والهدوء وهو المعبر عنه بالحرور ، فلا ظل ولا طمأنينة ثم في الختام هناك حياة بلا حياة بل هي موات ، والحياة الحقيقية مفقودة .

الذي أريد أن أوصله أن مظاهر الكفر متعددة لذلك كان حتمًا تكرار الصورة العارضة للتناقض بين حياة الكفر وحياة الإيمان ، وهذه قدرة للطباق التي لا تجدها في غيره من ألوان البديع .

وفي قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾ [سورة الرعد:١٢]

(فالخوف والطمع) اسمان متطابقان ناشئان من مصدر واحد وهو البرق ، وكذا تجد الخوف والطمع كامنين في السحاب الثقال ، فمن النفوس نفوس ترى في السحاب الثقال البشرى بالري ، والسرور بالماء ونفوس أخرى تراها خائفة من أن يكون في هذه السحاب الثقال عذاب لا يبقي ولا يذر..

وفي حديث النبي – ﷺ – " فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الهرم ، ومن الحياة قبل الموت فوالذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب ، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار " (١).

فانظر إلى هذه الصورة التي قسمت الأمور قسمين، وكل قسم في مواجهة الآخر : فـ" من نفسه " يعني : يأخذ من راحته و من طمأنينته **وقوله** : " لنفسه " بمعنى : ليدخر لها في الآخرة ، ثم طابق أيضا بين (الدنيا والآخرة) ، (والشباب والهرم) ،(والحياة والموت) ، (والجنة والنار) "

١ ـ مسند الشهاب ١ / ٤٢٥.

وعليك أن تختار قسما واتجاها ، وجانبا ؛ لتكون من أهله .

ومن الشعر الذي ذاع قديما وحديثا قول امرئ القيس :

مكـر مفـر ، مقبـل مـدبر معـا　　　كجلمود صخر ، حطّه السيلُ من علٍ

والشاعر بنى البيت على رؤية العين للصورة المتداخلة لسرعة الفـرس والتي وصلت إلى حد الاتحاد رغـم تناقضـها ، فأنـت تـرى الفـرس مقـبلا في الوقت الذي تراه فيه مدبرا ، وتراه مهاجما كارا عـلى الأعـداء في الوقـت نفسه الذي تراه فيه راجعا فارا منهم ، وهذا إن دل فـإنما يـدل عـلى السرـعة الهائلة التي جعلت العين لا تدري حالته في اللحظة الواحدة ، وهذه صـورة نادرة استطاع الشاعر أن يقبض عليها ويودعها الكلمات، لتظل حبيسة فيهـا إلى يومنا هذا ، نعجب منها ، ونُرِي غيرنا ما فيهـا .وسر الحيـاة في الصـورة يرجع إلى الطباق الذي شكل ملامحهـا، **ومـن نـماذج هـذا قـول السـموءَل بن عادياء :**

سِلِي إِن جهلْتِ النَّاسَ عنا وعنْهُمُ　　　فَلَـيْس سـواءً عـالم وجهُـولُ

فالتضاد بين كلمتي (عالم وجهول) وترى الشاعر يعمد إلى توضـيح منزلته بتوجيهها إلى سؤال الناس ، ثم يجعل الجهل من شيمتها ، في الوقـت الذي ينعم بالعلم كل الناس ، لأن منزلته لا تخفى ، وكأنه حين مهد بجملـة (إن جهلت) أراد أن يفردها من بين الناس جميعا بالجهـل ، والنـاس جميعـا علماء ، ثم زاد في وصفها حين صاغ كلمة (جاهل) على وزن (فعول)

وكأنه يقابل (فاعل بفعول) ، أعني (عـالم وجهـول) حيـث فـروق الصيغة قد تصل إلى حد الطباق .

وفي نموذج آخر تجـد الطبـاق صـار وسـيلة مـن وسـائل التحـريض وبابًا من أبواب التثقيف لدعوة النفـوس إلى الالتـزام بـالأوامر والنـواهي **وتلحظ مثل ذلك في قول الله تعالى :**

﴿ **وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ** .... ﴾ [سورة البقرة:١٧٩]

فهذه العُمْلةُ التي وجهها القصـاص ، وظهرهـا الحيـاة تلخـص لـك الحكمة من التشريع ، والغاية من الحكم ، وهذا الجمـع العجيـب ينبغـي أن تراه هكذا (القصاص حياة) ، كما ينبغي أن تطيل النظر فيه لأنه طباق فريـد ، ولن تجد لمثله نظيرا في اللسان العربي ، بل إنك تستطيع أن تجعله جملة تامـة مكونة من مبتدأ وخبر ، القصاص حياة ، هكذا فقط لتدرك قيمة هذا البيـان المعجز ، لأن الحياة هنا ليست لواحد من المخلوقات ، بل للجميـع ، للبشرـ والحجر والمدر ،والحيوان والنبات ، لأن القصـاص إذا لم يُطبَّـق هلـك كـل هذا ،ولن تجد حياة على الأرض.

ومن هذا النسيج القائم على لون واحد ، ومثال واحد قول ابن عباس " كفى بالسلامة داء " وهنا ترى السلامة لبست ثـوب المـرض ، لأن العبـد إذا أعرض عـن الله تعـالى أعـرض الله عنـه ، فلـم يصـبه في نفسـه أو مالـه أو جسده ، فيظل سليما معافا ، وقد يظن الظان أن ذلـك سـلامة ، ومعافـاة ولكن الحق أن ذلك يبعدك عن أعظم مكفرات الذنوب ، وهو الابتلاء

والمرض ، مما يعني أن الابتلاء تجعلك سليما من الذنوب ، وإن كان الجسد عليلا ، ولا يزال البلاء بالمسلم حتى يلقى الله تعالى وليست عليه خطيئة وبهذا الفهم تكون السلامة الجسدية داء ، بل أعظم داء لأنها تدخلك على الحساب حاملا جميع الذنوب والمعاصي ، وهل بعد ذلك من داء .

ومن النسيج نفسه قول أبي الشغب العبسي :

حلو الشمائل وهو مر باسل يحمي الذمار صبيحة الإرهاق

وراجع اجتماع الحلو والمرّ في الممدوح ، وكيف رُسمت لك الحالتان في ذات واحدة ، فبدأت بالحلو ثم تحسست ما يستتبع هذه الحلاوة من تجرأ الناس عليه ، وسقوط هيبته لديهم ، فعجلت بالصفة الأخرى التي ضبطت المعنى حتى لا ينهار في هوة الظنون الخاطئة .

ولذلك ترى حامل لواء الشعراء يقول :

مكرّ مفرّ مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطّه السّيل من علِ

فلم يقو إلا على شطر بيت ، من هذا النسيج ، الذي يحشد لك الأسماء المتضادة ليرسم لك اللوحة التي تجعل المعنى في أوضح صوره .

الطباق بين فعلين :

إذا كان من سمات الاسم الثبوت، فإن الطباق بين الأسماء يرسم حالة من التضاد الذي لا يتغير.

أما الطباق بين الأفعال فيحمل ملامح أخرى ، ملامح ترى فيها التضاد يزيد وينقص ، ويروح ويأتي ، فهناك حركة داخل التطابق بين الأفعال ، وهذه الحركة تمنح التضاد حيوية ، وتفاعلا تزيد من وضوحه وتأثيره في النفس ، **مثل قوله تعالى:**

﴿ **وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾** ﴾ [سورة النجم:٤٣-٤٤]

وقوله: ﴿ **وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾** ﴾ [سورة النجم:٤٨]

وقد ذكر عبد القاهر هذه الأمثلة وهو يتحدث عن خلو الفعل عن المفعول ، وهو أن لا يكون له مفعول يمكن النص عليه ، وقال إن المعنى في هذه النماذج أن الله تعالى هو الذي منه الإحياءُ والإماتةُ، والإِغناءُ والإقناءُ. وهكذا كلُّ موضعٍ كان القصدُ فيه أن يُثْبتَ المعنى في نفسه فعلاً للشيء، وأن يُخْبر بأنَّ مِن شأنه أن يكون منه، أو لا يكونُ إلاَّ منه، أو لا يكون منه. فإنَّ الفعلَ لا يُعدَّى هناك، لأن تعديته تَنْقُضُ الغرضَ وتُغيِّر المعنى)(١).

ولعلك لاحظت التضاد بين الفعلين ، وحذف المفعول به ، لأن القصد كان إلى تجرد التضاد من كل شائبة ، ليظل قائما بين فعل وفعل دون أن يحضر في الصورة فاعل او مفعول به ، فلا ترى العين إلا الفعلين (أضحك وأبكى) (أمات وأحيا) (أغنى وأقنى) فلا تتعداهما إلى غيرهما

١- دلائل الإعجاز ١٦٨.

لأن من بلاغة المراد حصر التضاد بين اللفظتين فلا ينشغل الذهن بأكثر من أن الله يكون منه هذا وذاك ، الإضحاك والإبكاء ، الإحياء والإماته الإغناء والإقناء، ولقد قلت إن حديثنا هنا عن التضاد بين كلمتين ، فنحن نقتصر على هذه الصورة التي تدخل باب الطباق .

ومن نماذج هذا الطباق بين فعلين أيضا قوله -تبارك وتعالى:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ .... ﴾ [سورة آل عمران:٢٦]

فالانتزاع هو الوجه الأشد في الأخذ ، كما أن الإيتاء هو الوجه الأسهل في الإعطاء ، والعجيب أن الآية صدرت جملة أن الله هو المالك الحقيقي ، مما يعني أن هذا الملك لن يبقى ، لأن مالكه يديره بين الناس ومن هوأن هذا الملك أن مالكه يعطيه تارة لمن يستحق ، ويعطيه تارات لمن لا يستحق دون حساب ، ودون استحقاق ، فلا أحد يملك مقوماته إلا مالكه الحقيقي وهو الله تعالى ، لكن الناس تظن أنها جديرة به كما هو الشأن في عالمنا العربي ، وحين يؤخذ ، فإنه ينتزع كانتزاع الضرس من آخر الفك ، ولعلك تستحضر هذا الانتزاع وما يصاحبه من آلام ، ويا ليتهم يتعظون !!!!

ومنه قول النبي - ﷺ - للأنصار:

((إنكم لتكثرون عند الفزع، وتقلون عند الطمع))

فالتطابق هنا بين الفعلين: تكثرون وتقلون ، فهم قوم تراهم حاضرين يملأون الدنيا عند الحرب والقتال ، تسمع أصواتهم وترى أفعالهم ، فلا يوجد غيرهم ، فهم الكثرة الكاثرة ، هذا عند الفزع ، لكن لهم صفة أخرى تؤكد هذا النبل ، وهذه الشجاعة ، وهي افتقادهم عن توزيع الغنائم ، فلا تكاد ترى منهم أحدا ، حتى لكأنهم غير ساكنين للمدينة ولا تقل إن الفعل (تكثرون) ضد (تقلون) ، وإن كان الظاهر يشهد على ذلك ، لكن النبي ﷺ أكد المعنى الأول معنى الشجاعة والإقدام بشجاعة أخرى وهي محاربتهم لرغباتهم الدنيوية حتى انتصروا عليها فأعرضوا عن التواجد ساعة توزيع الغنائم .

ويقول الحصين بن الحُمام المُرّي:

تأخَّرْتُ أستبقي الحياةَ فلم أجِـدْ	**لنفســي حيـاةً مثـلَ أنْ أتقـدّما**
ولَسْنا على الأعقاب تدمى كلومُنـا	**ولكن عـلى أقـدامنا تقطُـرُ الـدَّما**
وأطرق إطراقَ الشّجاع ولو يَـرى	**مسـاغاً لنابَيـهِ الشـجاعُ لصـمَّما**
لِذي الحلم قبل اليوم ما تُقرَعُ العصا	**ومـا عُلِّـم الإنسـانُ إلاَّ لـيعلما**

فالفعلان (تأخرت و أتقدم) في البيت الأول يصوران لك حالة الصراع بين رغبات النفوس البشرية ، وحتمية الأقدار التي لا مفر منها بين الرؤية السريعة الجاهلة ، والرؤية الحقيقية لمفهوم الحياة الباقية ، إذ ليس استبقاء الحياة ببقاء الحيّ جسدا وحركة ، بل بقاء الحياة الحقيقي هو بقاء

الذكر الحميد ،وليس هناك أنفع من التقدم لإبقاء هذا النوع الحقيقي من الحياة ، ولذلك ترى الشاعر وكأنه عرض على نفسه الأنواع المتعددة من صور البقاء فلم يجد أفضل من التقدم لتبقى حياته ، وإن كان التقدم يورده الموت ، ولكنه موت بطعم الخلود ، **لأنه يبقيها كما قالت الخنساء :**

نُهينُ النفوسَ وهونُ النفو   سِ يومَ الكريهة أبْقى لها

وهذه المعاني تتحرك بداخلك وأنت تراجع تارة بعد تارة هذين الفعلين ، وهما يتجاذبان (تأخرت –أتقدم) .

ومنه أيضا قول عبد الله بن الدمينة :

قفي يا أميم القلب نقضي لبانة   ونشكو الهوى ثم افعلي ما بدى لك

أرى الناس يرجون الربيع وإنما   ربيعي الذي أرجو زمان نوالك

تعاللت كي أشجي وما بك علة   تريدين قتلي قد ظفرت بذلك

لئن ساءني إن نلتني بمساءة   فقد سرني أني خطرت ببالك

أبيني أفي يمنى يديك جعلتني؟   فأفرح أم صيرتني في شمالك؟

فالفعلين (ساءني وسرني) يمثلان حالة الطباق المتحرك بين الأفعال فالطباق في الأفعال يعطيك مع التضاد حركة وحياة ،**ويقول بشار في عمرو بن العلاء:**

ألا أيُّها الحاسِدُ المُبْتَغِى   نجومَ السماءِ بسعيٍ أممْ

سمِعْت بمكرمةِ ابنِ العلاءِ   فأنشأَت تطلبُهَا لَسْتَ ثَمْ

إذا عــرضَ اللهــوُ في صــدرهِ لَهَــا بالعطــاءَ وضرْبِ الــبَهَمْ

يَلَــذُّ العَطَــاءَ وسَــفْكَ الــدماءِ فيَغْــدُو عَــلَى نِعــمِ أو نِقَــمْ

فقُــلْ للخليفــةِ إن جئتــهُ نصــيحاً ولا خــيرَ فِي المــتهمْ

إذَا أيقظتــكَ حــروبُ العــدَى فنبــهْ لهــا عُمَــراً ثُــمَّ نَــمْ

فتــىً لا ينــامُ عَــلَى دِمْنَــةٍ ولا يشــربُ المــاءَ إلا بــدَمْ

والطباق هنا بين (نَبِّه و نَمْ) والخطاب هنا للرسول الـذي سيمضيـ إلى الخليفة ينصحه عند حدوث اعتداء على البلاد ، والنصيحة تكمن في أنـه عليه فقط أن ينبه ويخبر عمر بـن العـلاء، ثـم يـترك الأمـر ، لأنـه سـيتولى معالجته ، وللخليفة ساعتها أن ينام ولا يهتم ،لأن هناك من يولي الأمر حقـه وزيادة ، وما أجمل إتباع الفعل (نبه) بمضاده وهـو (نـمْ) لأن هـذا الفعـل الأخير يدل عـلى حـدوث كـل شيء يسرـ الخليفـة ، ولـيس عليـه أن يتـابع ولا عليه أن يسأل ، فقط نبـه عمـرًا ، ودع الأمـر لـه ولـك أن تنـام بعـدها وإذا كان هذا من عجائب اللغة ، فإن الأعجـب منـه هـذا الطبـاق البـديع (نبه ثمّ نمْ) والتعليل يأتي بعد ذلك ، إنه فتى لا ينام كما ينام الشـباب يحلـم بالحبيب ، أو يسعى إلى اللقاء ، أو يبكي على الأطلال ، كلا كلا ، إنـه الفتـى الـذي يتغـذى ، ويـتروى بـدماء الأعـداء ، فهمـه الأول والأخـير الجهـاد ودحر المعتدين ، وشتان بين فتى ينام على دمنة ، وفتى حياته كلهـا وطعامـه وشرابه مقارعة العدو .

ويقول الفرزدق في هجاء بني كليب :

يستيقظون إلى نهيق حمارهم وتنام أعينهم عن الأوتار

فالحركة المعكوسة هنا حركة الاستيقاظ والنوم ، لكنها حركة تنم عن دناءة ، وخسة ، لأن نومهم نوم عن حقوقهم ، السلبية ، ووترهم الضائع ، وأما استيقاظهم فمرتبط بصوت الحمار ، وهي إشارة إلى ثقل نومهم ، وهذا رمز الغباء ، وكأنه يقول إنهم يتركون المهمات ، ويتنبهون إلى الحقارات ، والذي رسم هذه الصورة هو الطباق بين الأفعال .

الطباق بين حرفين :

يرى بعض العلماء أن الطباق لا يتم بين الحروف ، لأن الحروف لا تحمل معاني ثابتة ، بل تحمل معاني مختلفة يغذيها السياق والمتعلقات ومن هنا ترى التضاد بين معاني الحروف (فاللام) التي تفيد الملكية والاستحواذ ، تضاد الحرف (على) الذي يفيد هنا التحمل والتبعية ، وهذا ليس أصلا في الحرف ، ولكن السياق حمّل الحرف هذه الدلالة ، وكان اختياره دون غيره لما فيه من دلالة حسية لمعنى تحمّل الذنوب ، ورفعها فوق الأكتاف ، فلبعض الحروف معان تضاد بعضها ، مثل التضاد بين (اللام) التي تفيد النفع والامتلاك ، و(على) التي تفيد القهر والاستعلاء ، **وانظر إلى قوله تعالى :**

﴿ ..... لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ..... ﴾ [سورة البقرة:٢٨٦]

تجد أن النفس المكلفة هنا تعمل الخير فيوضع في كفة (لها) وتعمل السوء فيوضع في كفة (عليها) ولا شيء في الدنيا يصنع إلا ويتجه إلى واحدة من الكفتين ، فكل كفة تضاد الأخرى ، والنفس بينهما تعمل لترجح كفة على كفة ، **ولذلك قيل**:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝ ﴾ [سورة الشمس:٩-١٠]

وفي هذا الإطار جاء أيضا قوله تعالى :

﴿ ..... وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ..... ﴾ [سورة البقرة:٢٢٨]

فالجار والمجرور (لهن) يطابق الجار والمجرور (عليهن) والآية تبين لك أن ما تفرضه على الأنثى من واجبات يجب أن تفرضه على نفسك لمصلحتها ، وما تعطيه لنفسك من حقوق يجب أن تعطيه لها ، فلا فرق بينك وبينها في هذا الأمر ، أمر الحقوق والواجبات .

وكان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتمنى أن يخرج من الدنيا لا عليه ولا له، **يقول** : وددت لو أني خرجت منها لا عليّ ولا لي " وفي الشعر العربي **يقول مجنون ليلى حول هذا المعنى**:

أصلي فما أدري إذا ما ذكرتها ... إثنتين صليت الضحى أم ثمانيا

وما بي إشراك ولكن حبها ... كعود الشجى أعيا الطبيب المداويا

خليي لا والله لا أملك الذي ... قضى الله في ليلى ولا ما قضى ليا

قضاها لغـيري وابـتلاني بحبهـا	فهــلا بشيــء غــير لــيلى إبتلانيـا
ولـــو أن واش باليمامـــة داره	وداري بأعلى حضرموت أهتدى ليا
ومـاذا لهـم لأحسـن الله حـالهم	من الحـظ في تفريـق لـيلى حباليـا
على أنني راض بأن أحمل الهوى	وأخلــص منــه لا عــلي ولا ليــا
إذا ما شكوت الحب قالت كذبتني	فما لي أرى منـك العظـام كواسـيا
فلا حب حتى يلصق الجلد بالحشى	وتصـمت حتـى لا تجيـب المناديـا

فالشاعر يريـد أن يـتخلص مـن حبهـا ، دون أن يصـيب منهـا شـيئا أو يصاب هو بشيء بسبب حبها ، هو يريد الخلاص ، وكأن الهـوى لم يكـن ولكن هيهات .

وهكذا يعمل السياق على تحميل الحروف المعاني المتضـادة ، ليشـارك الحرف في ميدان التضاد ، وإن كان في الحقيقة هو أضعف من ذلك .

الطباق بين مختلفين .

أعني أن يكون الطرف الأول اسمًا والآخر فعلاً ، أو العكس ، وهـذا التضاد لا يكون ناصعا كما في المتفقين ، فالتضـاد بـين اسـم واسـم ، أو بـين فعل وفعل يكون أتـم وأعـلى في الوضـوح ، وإبـراز الصـورة مما يـنعكس على وضوح المعنى ، أما الطباق بين مختلفين فإنك تلحظ في صـورة التضـاد خفوتا وجاء مثل ذلك في الموت والحياة في القرآن الكريم ، حيث يلحـظ أن الموت جاء اسما و لكن الحياة كانت فعلا ، ليضاف معنى آخر وهو دلالة

الحركة في الحياة ودلالة السكون والثبوت في الموت ، فإن كان الطباق خافتا فإن السياق استدعى نمطا آخر يحتاجه المقام ، وهو تصوير طبيعة كل لفظ **قال تعالى** : ﴿**أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ** .... ﴾ [سورة الأنعام:١٢٢]

وقوله -عز وجل: -

﴿....**رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى** .... ﴾ [سورة البقرة:٢٦٠]

ولكل مقام مقال ، **وفي قوله سبحانه على لسان سيدنا عيسى:**

﴿ ...**وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ** ... ﴾

[سورة آل عمران:٤٩]

تجد قوله : أحيي الموتى ، يرسم صورةً للتضاد بين الفعل والاسم وهي صورة تتحرك فيها الحياة ، لتبعث النشاط في الأجسام حين تعيد إليها الأرواح ، فالمتحرك هنا هو الحياة ، والثابت هنا هو الموت ، وكأن الإحياء تحريك للسكون ، وبعث للجمود ، ونفث للخمود ، وكل ذلك تضاد بين الاسم والفعل ، **ومنه قول الشاعر:**

وقد كان يدعى لابس الصبر حازما … فأصبح يدعى حازما حين يجزع

حيث جمع بين (الصبر – ويجزع) وهذا ساعد على توضيح الصورة التي رسمت عظم المصيبة التي ألـمّت بهم حتى تركت الصبر جزعا .

ما يلحق بالطباق

إيهام التضاد

بعد أن تعرفت على صور التضاد ، سواء في اللفظة الواحدة ، أو في الجملة ، أو في عدة جمل ، يبقى هنا شيء يوهم القارئ بالتضاد وليس منه ولذلك سماه العلماء بـ " إيهام التضاد " ويقوم على ذكر لفظين يوهم ظاهرهما أنهما متضادان ، لكن المعاني ليست متضادة ، فالتضاد في الألفاظ فقط ، ولقد عرف سعد الدين التفتازاني هذا اللون في المطول **فقال** : (هُوَ الْجمع بَين مَعْنيين غير مُتَقَابلين عبر عَنْهُمَا بلفظين يتقابل مَعْنَاهُمَا الحقيقيان) ولا شك أن الاقتصار على الحقيقة ، ليس صائبا ؛ لأن إيهام التضاد يشمل المعاني الحقيقية والمعاني المجازية.

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾

[سورة الحج:٤]

فالظاهر أن كلمة (يضله) تضاد كلمة (يهديه) ، لكن عند الصبر على الآية ، ومراجعة المعاني تجد الآية توضح أن الشيطان يقوده ، لكن القرآن الكريم عبر بلفظة (يهديه) على سبيل التهكم ، فالهداية هنا ستوصل صاحبها إلى عذاب السعير ، فالتعبير بهذا اللفظ الذي يوهم التضاد ، يشعر بأن الإنسان الضال سَلَسَ للشيطان ، وسلَّم له مقوده ، وانصاع لأوامره

انصياع المهتدي للرسل ، وعليه فليس هناك تضاد حقيقي بين (يضله ويهديه) لأن الهداية ليست على الحقيقة .

فالجمع بين معنيين غير متقابلين، والتعبير عنهما بلفظين متقابلين هو المعروف بإيهام التضاد **ومن ذلك أيضا قوله تعالى في سورة الغاشية:**

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الغاشية:١٤]

فهناك بَيْنَ (مَرْفُوعَةٌ ومَوْضُوعَةٌ) في اللفظ ، إِيهَامُ التضاد لِأَنَّ الرفع يضاد الوضع ، لكنك حين تنظر تجد أن معنى (مَوْضُوعَة) **ليس معناها** :

مخفوضة ، بل المعنى أنها لا يُذهب بها ، ولا تؤخذ منهم حتى وإن شبعوا ورووا ، فالآنية ثابتة دائمة ، وهذه كناية عن دوام اللذة ، وبقاء النعيم ، **ومن الشعر قول دعبل الخزاعي:**

لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

والشاعر يعني بالرجل : نفسه ، ويعني بالضحك : الظهور ، لأن (ضحك) بمعنى ظهر، أما لفظة (بكى) فهي على معناها الحقيقي واللفظان متضادان في الظاهر لكن المعاني كما رأيت غير متضادة

ومثل قول مسلم بن الوليد:

مستعبر يبكي على دُمنة ورأسه يضحك فيها المشيب

ومنه أيضا قول أبي تمام :

(وتَنَظَّرِي خَبَبَ الركاب ينُّصـها مُحْيـي القـريض إِلَى مميـت المَـال)

فالكلمتين (محيي ومميـت) في الظـاهر متضـادين ، لكـن في الحقيقـة هو يتحدث عن إحياء الشعر ، أي الذي يجيد الشعر ، ومميت المال أي الـذي ينفقه كرما وجودا ، والكلام من قبيل الكناية عن صفتين ،ولا تضـاد هنـاك ولذلك يسمى إيهام التضاد لأنه عبر عن المعاني بألفاظ متضادة فقـط ، دون تضاد المعاني ، وأنت تعلم أن حقيقة التضاد تقوم على تضاد المعاني ، ولـيس تضاد الألفاظ .

وَمِنْه قَول الشَّاعِر:

يُبْدِي وِشاحاً أبيضـاً مـن سَـيْفه والجـوُّ قـد لـبس الـرِّدَاء الأغـبرا

فالشاعر استخدم كلمتي (أبيض و أغبر) وهما في الظـاهر متضـادان لكنه أراد أن يعبر عن بخل الوزير الشديد ، حيث يلـبس اللبـاس الأبـيض الناصع ، ولا يغبره بإعداد الطعام لضيفانه ، في الوقـت الـذي ضـاقت فيـه الحياة على الناس ، وكنى عن ذلك بأن الجو قد لبس الرداء الأغبر .

طباق التدبيج

الطباق في أصله تناقض بين طرفين ، وتقابل بين اتجاهين ، لكن البلاغيين فتحوا الأبواب أمام الاختلاف ليدخل دائرة الطباق ، مما ترتب عليه اعتبار الاختلاف بين الألوان نوعا من الطباق ، وأطلقوا عليه طباق التدبيج ، أي : التزيين ، لأن أصل التدبيج : النقش والتزيين .

وعرفوه بأنه : أَنْ يَذْكُرَ الْمُتَكَلِّمَ أَلْوَانًا يَقْصِدُ التَّوْرِيَةَ وَالْكِنَايَةَ، **ومن ذلك قوله تعالى:** ﴿.... **وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ** ﴿٢٧﴾﴾ [سورة فاطر:٢٧]

فالمراد هو أن هناك من الجبال جبالا واضحة الطرق ، فالجادة البيضاء هي الطريق التي كثر السالكون لها ، فصارت واضحة المعالم ظاهرة السبل وأقل منها وضوحا الجبال الحمراء ، ثم أقل الجبال وضوحا في طرقها الجبال السوداء ، وهذه الألوان لا تقصد لذاتها ، بل للتعبير عن وضوح الطرق فيها أو عدم وضوحها ، ولا مانع من قصد الألوان الحقيقية ، فهنا من الجبال بيضاء اللون ، وهناك الحمراء والسوداء ، والقصد إلى أن الجمع بين هذه الأوان في سياق واحد يدخله تحت مصطلح طباق التدبيج .

ومنه قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

[سورة آل عمران:١٠٦-١٠٧]

ولا يعني البياض هنا البياض المعروف ، لكنه يعني البشر ، والفرح والسرور ، والتهلل ، كما كان النبي ﷺ إذا فرح تهلل وجهه ، والعكس في السواد ، لا يقصد به السواد المعروف ، لأن هناك من البشر من هم سود البشرة على الحقيقة ، لكن المراد هنا الفزع والكآبة ، **كما قيل** :

عليها غبرة ، والجمع بين الوجوه البيض ، والوجوه السود في السياق الواحد هنا يعد من فنون التدبيج ، الذي يدخل المعاني على النفوس دخول المأنوس بها لأن النفوس تعرف من الطفولة البياض ، وتربطه بالفرح ، كما تعرف السواد وتربطه بالحزن والغم ، فلما أريد التعبير عن حالتي الفرح والحزن جيء بالبياض والسواد ليقوما بهذا التعبير ، مما يجعل النفوس تأنس بالمراد ،وتقره عندها .

ومن نماذج ذلك في الشعر ما تناوله الشعراء في وصف أيام الحرب بالألوان ، ووصف لباس المحاربين قبل وبعد المعركة ، ووصف الرايات ... إلخ ، **ومن ذلك قول عمرو بن أم كلثوم:**

(بأَنَّا نوردُ الراياتِ بيضًا ونصدرهن حمرا قد روينَا)

وجمال هذا النوع من الطباق يبرز في مجيء الألوان على طبيعتها دون تكلف ، فالألوان إذا جاءت في سياقها تضفي على الصورة وضوحا وجمالا وزينة ودلالا . أما إذا خالطتها الصنعة المتكلفة خبا ضوؤها ، وقل ماؤها ووجدت النفس عنها نابية ، **ومن ذلك قول الشاعر:**

سود الوقائع حمر البيض في حرب   خضر المرابع بيض الفعل والشيم

وقول آخر :

وقد نُثرت أيدي الجنوب مطارفَ على   الجو دكنًا والحواشي على الأرض

يطرزها قوس السحاب بأحمر   على أخضر في أصفر إثر مبيض

ومنه قول آخر:

والأرض قد برزت لنا في أخضرـ   في أصفر في أبيض في أحمر

وقول ثالث :

من ملك الصفر احمر   لونه واخضر عيشه

وقول رابع :

قول نعم أحسن من حمر   النعم تحمل بيض النعم

فالشاعر ، أو الناثر في فن التدبيج يذكر الألوان ، ويقصد من ورائها الكناية ، أو التورية عن دلالات أخر ، تحمل المدح أو الهجاء ، أو غير ذلك من المعاني ، وكل ذلك يحسن مادام الأمر جاء عفوا دون عمد ، أو قصد

لكن إذا تدخل التكلف في الأمر وجدت الحسن قد انقلب إلى قبح ، وراجع معي ما سيأتي لتقف على ما أقول، **قال أحدهم** : (وصل كتاب فاستلمته استلام الحجر الأسود، وتمتعت منه بالعيش الأخضر، وجمعت يدي على الياقوت الأحمر والباز الأبيض وملك بني الأصفر.) وانظر ماذا ترى في نفسك بعد هذا العنت ، والإعنات ، والكلمات التي تشبه الصاعقات ولك أن تقول أكثر من ذلك ، فللسماجة أقوام عرفوا بها ، وللتنطع أناس اشتهروا به ، ولا يبعد هذا القائل عنهم ، وأختم لك بقول الحريري **والذي يضرب به المثل في التكلف المقيت** :

فمذ ازور المحبوب الأصفر ... وأغبر العيش الأخضر

اسود يومي الأبيض ... وابيض فَودي الأسود

حتى رثا لي العدو الأزرق ... فيا حبذا الموت الأحمر

فكل ذلك خارج عن البلاغة المحببة ، والنماذج المقربة التي تصلح بها النفوس ، وتتلقاها بالقبول .

طباق الإيجاب والسلب

حين تسمع قوله تعالى:

﴿ ....**كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ** .... ﴾ [سورة الرعد:١٧]

فإنك تجد كلمتي (الحق والباطل) متطابقتين ، وقد وضعتا في الصورة متلاصقتين ليتبين الحق من الباطل ، ولتكون الصورة صارخة في الوضوح ، فلا عذر بعدها لأحد ، فقد تبين الرشد من الغي ، والكلام لا نفي فيه ، ولا شبه نفي ، لكنك حين تأتي بجملة مثبتة ، ثم تعاود وتنفيها فإن هذا يقال له طباق السلب ، **ولكي يتضح لك الكلام اسمع إلى قوله تعالى :** ﴿**وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾**﴾ [سورة الروم:٦-٧]

أثبتت لهم العلم في البداية ، ثم عاودت ونفته بعد ذلك ، في عبارة واحدة ، ووجه ذلك بيان أن العلم الذي يظنونه إنما هو أمور خادعة ظاهرها شيء وباطنها شيء آخر ، أما العلم الحقيقي ، فهو العلم الذي يتعرف على حقائق الأمور ،وينفذ إلى خباياها ، ويتوصل من خلالها إلى النجاة في العاقبة .

وانظر إلى قوله تعالى :﴿....**فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ** .... ﴾ [سورة المائدة:٤٤]

حيث نفيت الخشية ، ثم أثبتت في عبارة واحدة ، وهذا هو طباق السلب ، الذي يحرك المعاني ويضعها في بؤرة الاهتمام ، حيث ترى النفوس شيئا يُثبّت ويُنفى في جملة واحدة مما يزيدها شوقا إلى معرفته ، فيتأكد المعنى حينئذ ، ويرسخ في ذهن السامع .

ومن كلام العلماء لطلابهم :

(" كونوا للعلم رعاة ولا تكونوا له رواة " [١]، وهم يقصدون أن المتعلم يرعى العلم بالعمل ، وأن يكون قدوة لغيره ، أما الذين يخالف كلامهم أفعالهم ، فليسوا علماء بل هم رواة للعلم ، ولن يكون العالم عالما إلا إذا عمل بما علم .

والذي يعنينا هنا جملتي: (كونوا – ولا تكونوا) حيث أثبت الكون في بداية الكلام ثم نفاه ، وهذه صورة الإيجاب والنفي في الطباق .

وفي الشعر يقول السموأل :[٢]

---

١ - اخرجه السيوطي في الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير حرف الكاف ٢/ ٣١٤ ونسبه إلى الرسول الكريمصلى الله عليه وسلم ، وهو حديث موضوع كما قال الألباني – رحمه الله – في تخريجه لأحادثفيض القدر شرح الجامع الصغير

٢- السموأل بن عادياء من أهل تيماء وَهُوَ الذى كَانَ امْرُؤ الْقَيْس استودعه سلاحة فَسَار إِلَيْهِ الْحَارِث بن أَبى شمر الغسانى فَطَلَبه فأغلق الْحصن دونه
فَأخذ ابْنا لَهُ خَارِجا من الْقصر وَقَالَ إِمَّا أَن تُؤَدّى إِلَى السِّلَاح وَإِمَّا أَن أَقتلهُ قالَ اقتله فَلَنْ أؤديها ، ووفى فَضرب بِهِ الْأَعْشَى الْمثل فَقَالَ
(كن كالسموأل إِذْ طَاف الْهمام بِهِ ... فى جحفل كسواد اللَّيْل جرار)
(بالأبلق الْفَرد من تيماء منزله ... حصن حُصَيْن وجار غير غدار)
(إِذْ سامه خطتى خسف فَقَالَ لَهُ ... قل مَا تشَاء فإنى سامع حَار)
(فَقَالَ ثكل وغدر أَنْت بَينهمَا ... فاختر وَمَا فيهمَا حَظّ لمختار)
(فَشك غير طَوِيل ثمَّ قَالَ لَهُ ... اقْتُل أسيرك إنى مَانع جارى)

ونحكر إن شئنا على الناس قولهم   ولا ينكرون القول حين نقول

ودع عنك البيت ، وراجع فقط قوله " ننكر ولا ينكرون " لتعلم أن الشاعر يعطي لنفسه الحق في إنكار كلام الناس، ويسلب ذلك منهم ، وهذا مما كان أهل الجاهلية يتفاخرون به .

وعلى شاكلة النفي والإثبات قول أحدهم :

يفيض لي من حيث لا أعلم النوى   ويسري إلي الشوق من حيث أعلم

وقول آخر :

خُلِقوا وما خلقوا لمكرمة   فكأنهم خلقوا وما خلقوا

رزقوا وما رزقوا سماح يد   فكأنهم رزقوا وما رزقوا

وهذا يصور أقواما لا طائل من ورائهم ، ولا فائدة من وجودهم – كما يرى – فهم في نظره يعيشون دون فائدة ، ثم هم أغنياء وعندهم من المال الكثير ، فلقد أفاض الله عليهم المال لكنهم لم يرزقوا الجود والكرم فكأنهم رزقوا المال ولم يرزقوا الكرم ، فالشاعر ربط بين الخلقين ، وبين الرزقين برباط التضاد ، فهم خلقوا وما خلقوا ، ورزقوا وما رزقوا .

ولكي أختصر لك الكلام فاعلم أن طباق السلب: هو ما اختلف فيه اللفظان ايجابا وسلبا، بحيث يجمع بين فعلين من مصدر واحد - أحدهما مثبت ، والآخر منفي - **نحو قوله تعالى:**

﴿ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [سورة النساء:١٠٨]

ففي الفعلين مفارقة ، بجوار طباق الإيجاب والسلب ،تلك المفارقة أنهم يستخفون ممن لا يستحق الاختفاء منه ، وهم الناس ، لأن الناس لا يملكون لهم نفعا ولا ضرا ، في الوقت الذي يجاهرون الله بأفعالهم وهو المستحق للحياء منه سبحانه .

وقد يكون الإيجاب والسلب شاخصا في صورة الأمر والنهي ، نحو قوله تعالى : ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة الأعراف:٣]

ونحو: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [سورة المائدة:٤٤]

ولا يزعجك أن يتقدم الأمر ، مثل(اتبعوا ولا تتبعوا) أو يتقدم النهي مثل: (لا تخشوا الناس واخشون) لكن الذي ينبغي التنبيه عليه أن صورة الأمر والنهي قامت مقام الإيجاب والسلب ، وسدت مسدهما ولخصت المراد في صورتين متقابلتين ، صورة النفي والإثبات ، وحين

يجتمع على الشيء الواحد معنيان ، فالقصد إلى توكيده وتثبيته لا يدانيه شك .

الطباق بين الحقيقة والمجاز

الطباق الحقيقي هو أن تأتي بألفاظ حقيقية كالجمع بين اسمين حقيقيين مثل قوله تعالى :

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ....﴾ [سورة الكهف:١٨]

أو بين فعلين كذلك نحو قوله تعالى:

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ .... ﴾

[سورة آل عمران:٢٦]

والطباق المجازي أن تكون الألفاظ مجازية على غير الحقيقة، **وانظر إلى قول القائل :**

إن هذا الربيع شيء عجيب   تضحك الأرض من بكاء السماء

فالضحك والبكاء في البيت من الطباق المجازي ، فهو ما كان فيه الطرفان مجازيين ، وعمد الشاعر إلى هذا التصوير ليبين وجه العجب في الربيع ، فهناك ضحك وبكاء ، والضحك سببه البكاء ، وهذا مستغرب أن يضحك مخلوق من بكاء مخلوق آخر ، فإذا علمت أن الضاحك يصيبه

دموع الباكي، وأن هذه الدموع هي سر الضـحك بـإخراج الزهـور ، كان العجب أشد ، **ومن ذلك أيضا قول الشاعر** :

حلـو الشـمائل، وهـو مـر باسـل   يحمـي الـذمار صـبيحة الإرهـاق

فاللفظان (حلو – و مر) مستعملان استعمالا مجازيا ، وبيـنهما طبـاق لا يخفى ، والشاعر أراد من ورائهما إيصال المعنـى إلى أحاسـيس السـامعين وليس إلى عقـولهم ، بـل إلى أول الأحاسـيس عمـلا لـدى الإنسـان وهـي حاسة الـذوق ، **وراجـع معـي قولـه تعـالى** :﴿**أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ** ....﴾ [سورة الأنعام:١٢٢]

فالموت والحياة – هنا – ليسا عـلى سـبيل الحقيقـة ، لأن المـراد : الضـلال والهداية ، والمعنى أو من كان ضالا فهديناه ، فالصورة صورة استعارة تصريحية .

ومن هذه النماذج قول الله تعـالى :﴿**وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٥**﴾ [سورة النحل:٦٥]

فالطبـاق بـين إحيـاء الأرض مـن جهـة ، وموتهـا مـن جهـة أخـرى فالموت والحياة للأرض ليس على سبيل الحقيقة ، وإنما المراد أنزل من السماء ماء فأنبتت الأرض بعد جفافها ويبسها ، فصُوِّر الإنبـات بصـورة الإحيـاء وصُوِّر الجفاف بصـورة المـوت ، وتبـدُّل الحـال ، وهـذا هـو الـذي بعـث في الصورة حركة ، جعلت من ينظر إلى الآية كأنما يرى عالما يتبدل، ومظاهر أرضية تتحول من موت وجفـاف إلى اخضرـار وحيـاة ، وقـد تـرى طرفـا واحدا حقيقيا والآخر مجازيا ، **وذلك كما في قول الشاعر** :

لا تعجبي ياسلم من رجل　　ضحك المشيب برأسه فبكى

لاحِظ الفعلين (ضحك وبكى) وراجعهما ، تجد الضحك فيه ضحكا مجازيا ، والبكاء فيه بكاء حقيقيا ، فالشاعر أراد من ضحك الشيب : انتشاره في رأسه ، حتى عم عليه جوانبه ، وأراد من بكائه : نفس البكاء على شبابه الذي ولى ، فالعبارة جمعت بين الضحك المجازي والبكاء الحقيقي ، لترتسم الصورة بكل ما فيها من تناقضات لفظية وتصويرية .

الطباق بين الظهور والخفاء

ظهور التضاد بين الألفاظ يكون بارزا في كثير من الأحيان ، وقد يدق ويلطف حتى يخفى على العين العجلى ، وكثير مما سبق كان من الطباق الظاهر الجلي ، لكن النمط الآخر ، **تجده مثلا في قول الله تعالى** : ﴿**مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارًا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ٢٥**﴾

[سورة نوح:٢٥]

والخفاء هنا سببه أن دخول النار ليس مضادا للإغراق ، لأن مضاد الإغراق هو الإحراق ، وهذا يعني أن الآية لم تذكر الضد صراحة ، وإنما ذكرت ما يؤدي إليه ، وهو إدخال النار ، وهذا جعل الذهن يذهب إلى مرحلة أخرى من المعنى حتى يصل إلى التضاد ، ومن هنا كان الخفاء

وهو خفاء بليغ لأنه يحرك الذهن ، ويثير النفس ، **ومن نماذج هذا الخفاء أيضا قوله تعالى:**

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ ......﴾ [سورة الفتح:٢٩]

فالشدة لا تضاد الرحمة، ولكن الرحمة تقتضي اللين، الذي هو نقيض الشدة .

وكذلك قوله تعالى : ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الروم:٢٣]

فالنوم لا يتناقض مع الابتغاء من فضل الله، لكن الأخير يتطلب الاستيقاظ، وهو ضد النوم ، **قال ابن المعتز في كتابه البديع (من أملح الطباق وأخفاه قوله تعالى :**

﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ ....﴾ [سورة البقرة:١٧٩]

لأن معنى القصاص القتل ، فصار القتل سبب الحياة .

ومن الطباق الخفي ما ذكره ابن أبي الإصبع في قوله تعالى:

﴿....إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

[سورة يس:١٦]

إذ معناه: ربنا يعلم إنا لصادقون، فالرد جاء على التكذيب بجملة ليس فيها ذكر الصدق صراحة ، بل ضمنا ، لأنهم لو آمنوا وصدقوا

بالرسالة فهم بالتبع مؤمنون بصدقهم ، ولذلك لم يقولوا إنا لصادقون بل قالوا : إنا لمرسلون ، فالرسالة والصدق لا ينفصلان .

ومن النماذج التي يزيد خفاؤها ، قول أسامة بن جندل مفتخرا :

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع　　　كان الصراخ له قرع الظنابيب

والصارخ هو المستغيث الذي يطلب النجدة ، والصراخ له يعني نجدته ، وإغاثته ، والقرع : الضرب ، أما الظنابيب : فهي جمع ظنبوب وهو ظاهر ساق الفرس ، والعرب تقرعه يعني تستحث الفرس على الإسراع فتزجره بالعصا ، وهذا يعني أنهم يهبون لنجدته ، وراجع الطباق بين صارخ ، والصراخ له ، وهو غامض خفي ، لا يتبينه كل ناظر .

والذي أريد التنبيه عليه هنا أن التضاد إذا كان مباشرا بين لفظين فلا غموض ولا إبهام ، أما إذا ذكر لفظ يدل على معنى يضاد اللفظ الآخر فهنا الغموض الذي يجعلك تنتقل من لفظ إلى لفظ حتى تصل إلى الصورة التقابلية ، وهذا مما تتشوق إليه النفس ، وتهش له ، لأنه يحركها وينفض عنها روح الأخذ المريح .

المستوى الثالث: التضاد بين أكثر من كلمتين "المقابلة"

حين تتسع رقعة التضاد ، ويمتد النظر في جوانب الصورة ليلحظ أكثر من عنصر يتحول الطباق إلى مقابلة ، وكأن كل لفظة تقابل مضادها

في الجانب الآخر ، وهنا تزداد حركة الفكر مع حركة العين ، لترتسم لوحة التضاد في رقعة أكبر حجما من رقعة الطباق ، **ومن نماذج المقابلة قول النابغة الجعدي:**

فتى تم فيه ما يسر صديقه　　　على أن فيه ما يسوء الأعادية

فعناصر التضاد هنا تلحظها بين (يسر ويسوء) و(صديقه والأعادي) والعربي قديما كان يبني الكلام كما يبني الدار التي يسكنها فيضع اللبنة في المكان وهو يعلم أن هناك على الجانب الآخر ستوضع اللبنة التي تناسبها ، **يقول الإمام عبد القاهر:**

(واعلمْ أنَّ ممَّا هو أَصلٌ في أنَ يدِقَّ النظرُ، ويَغْمُضَ المَسْلكُ في توخِّي المعاني التي عرفتَ: أنْ تتَّحِدَ أجزاءُ الكلامِ ويَدخلَ بعضُها في بعضٍ، ويشتدَّ ارتباطُ ثانٍ منها بأول، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضَعَها في النفس وضعًا واحداً، وأن يكونَ حالُكَ فيها حالَ الباني يَضعُ بيمينه ههنا في حالِ ما يَضَعُ بيَسارِه هناك. نَعم، وفي حالِ ما يُبْصر مكانَ ثالثٍ ورابعٍ يَضعُهما بَعْدَ الأَوَّلَيْن. وليس لِما شأْنُهُ أن يجيءَ على هذا الوصفِ حَدٌّ يَحْصرُه، وقانونٌ يُحيطُ به، فإنه يجيءُ على وجوهٍ شتَّى، وأنحاءَ مختلفةٍ)(١).

وأنا أريد منك أن تقرأ المقابلة على هذا النحو، وأن تنظر في الألفاظ

١- دلائل الإعجاز ت شاكر ص ٩٣.

المتقابلة، وكيف بنيت في أماكنها ؟ ومتى يجمعها المبدع حتى تكاد تلتصق ؟، ومتى يفرق بينها حتى تجهدك في تجميعها ؟

ووجه الجمال يكمن في ذلك التلاؤم الذي يحدثه الاختلاف بين العناصر ، وترتيب هذا الاختلاف ، حتى تستشعر قصد المتكلم إلى وضع المجموعات الكلامية في حالة صراع ، ورسم مشهد الألفاظ في حالة صفوف متعاندة ، وهذا يرغمك على النظر ، والوقوف لمعرفة الجانب الفائز أو الطائفة التي تعلو إن المقابلة ما هي إلا حركة بناء جديدة للطباق ، لكنها أوسع وأرحب ، حركة بناء ارتأى فيها المبدع عناصر التضاد وقد تكاثرت عليه ، فقام بجمعها ، وترتيبها ، وإحكامها ، بل وهندستها على الوجه الذي يصور المعنى في أوضح صورة ، وأتم بيان ، **وانظر مثلا إلى عمرو بن معدي كرب الزبيدي:**

ويبقى بعد حلم القوم حلمي   ويفنى قبل زاد القوم زادي

وكيف بدأ بالفعل (يبقى) في أول الشطر ، وأتبعه بالظرف (بعد) ثم انتقل في بداية الشطر الثاني فبدأه بالفعل (يفنى) الذي يقابل الفعل (يبقى) وأتبعه أيضا بالظرف (قبل) الذي يقابل الظرف (بعد) فتجدك أمام حالة بناء هندسية ،(يبقى بعد) (يفنى قبل) ، بل إنك تجد البناء يشتد ويتماسك بختام كل شطر (حلم القوم حلمي) (وزاد القوم زادي) وهذا من عبقرية المقابلة أنها تعطيك مع التضاد هندسة في البناء اللغوي ، فترى

التماسك الذاتي بين الكلام ، وهو أقوى من أي رابط آخر ، وراجع البيت مرة بعد مرة ،وكرر على سمعك قوله :(يبقى بعد)(يفنى قبل)-- (حلم القوم حلمي) (زاد القوم زادي) لتدرك أن من أهم مميزات المقابلة هندسة الكلام ، وحسن انتظامه .وحين تراجع تعريف المقابلة في كتب أهل العلم تراهم ملتفتين إلى هذه الخصوصية **فيقولون المقابلة** :

أن يُذكر لفظان فأكثر ثم أضدادها على الترتيب

لاحظ هذا الضوء الكاشف عن طبيعة المقابلة في قوله :

(على الترتيب) فالعلماء يوجهون إلى خصيصة المقابلة التي لا ينبغي إغفالها وهي انتظام البناء فيها ، ومراعاة وضع الألفاظ تجاه بعضها البعض بحيث يمثل هذا الانتظام حالة بنائية ذات شكل متوافق متناغم منسجم والسكاكي رحمه الله حين تحدث عن المقابلة ذكر ذلك في خواصها .

وقال:(ومن خواص المقابلة أنه إذا شرط في الأول أمر شرط في الثاني ضده) فالقصد إلى البناء المحكم، وترتيب الكلام أثناء التضاد ، تلك هي الميزة التي تعلو بها المقابلة على غيرها . والذي يبني بناءا إما أن يقتصر فيه على حاجاته ، أو يوسعه حتى يفيض على غيره ، ومن نعم الله على العباد سعة الدار ، وهذا الكلام يتناسب مع صور المقابلة التي تراها تارة بين أمرين اثنين ، وقد تتسع حتى تشمل مقابلة ستة أمور بستة أخرى ، وإليك التفصيل .

الصورة الأولى: مقابلة اثنين باثنين .

تبدأ صور المقابلة باثنين من الألفاظ ضد اثنين كقوله تعالى:

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

[سورة التوبة:٨١-٨٢]

فالضحك في مقابلة البكاء ، والكثرة في مقابلة القلة ، والترتيب قائم في العبارة ،حيث جمع الضحك والقلة في جانب ، والبكاء والكثرة في الجانب المقابل ،وكأنه يعرض لهم ما ينبغي أن يختاروه ، أو أنه يعرض لهم حالهم في الدنيا والآخرة ، فحالهم في الدنيا ضحك قليل ، لكن حالهم في الآخرة بكاء كثير ، وفي ذلك من التبكيت ، والتنفير ما فيه .

وطبيعة الترتيب قد تكون بجمع الطرف الأول كله أولا ، ثم مجيء المضاد له آخرا ، وقد تأخذ شكلا هندسيا آخر ، **كما في قوله تعالى** :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

[سورة الأعراف:١٥٧]

فالمقابلة هنا أخذت شكلا آخر ، وكان من الممكن أن يقال (يأمرهم بالمعروف ويحل لهم الطيبات وينهاهم عن المنكر ويحرم عليهم الخبائث) ولو قيل هكذا لخَفَتَ وهج المقابلة ، لأن النهي عن المنكر عقب الأمر بالمعروف أعطاه من الصلابة والقوة ما لا تجده في تأخيره ، وكذلك الفصل بين(يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث) بجملة :(ينهاهم عن المنكر) فصل بغريب ، مما يترتب عليه انقطاع الصلة بين الجملتين المتقابلتين وعليه فإن هندسة الكلام على النحو الذي جاء عليه تعطي للمعاني الوهج والوضوح الذي يكمن في المقابلة البديعة.

ومنه أيضا قول الله تعالى :

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [سورة الأنعام:١٢٥]

فالآية هنا ترسم صورة لشخصين ، ومعالم كل شخص ظاهرة واضحة فالأول صورته سعيدة منشرح الصدر ، والآخر صورته عجيبة حيث لا ترى منه إلا صدرا قد ضاق ، وإحساسا يملؤه بعدم الراحة حتى ليكاد من ضيقه لا يتنفس من قله الراحة ، وهي صورة معبرة عن خلجات النفس ، وبواطن الحس ، وساعدت في تشخيص هذه الصورة معالم المقابلة .

ومن روائع البيان النبوي في المقابلة بين اثنين ما رواه عقبة بن عامر أن رسول الله – ﷺ قال :

" من تأنى أصاب أو كاد ، ومن عجل أخطأ أو كاد "(١)، حيث قابل بين طرفين ، ففي الجهة الأولى : تأنٍ وإصابة للغرض ، وفي الجهة المقابلة : عجلة وخطأ في الغرض ، وكل من الجهتين إن لم تحقق غرضها المنوط بها فإنها تقترب منه .

وفي بيانه أيضا يقول :

" إن لله عبادا جعلهم مفاتيح للخير مغاليق للشر "(٢)، وكأن الحديث يرشدك إلى أن تنظر إليهم ، وقد جمعوا صفات عظيمة ، فهم عند الخير مفاتيح ، وهم عند الشر مغاليق ، فأكرم بهؤلاء الذين يجلبون المصالح ويسعون في تحقيقها ، ويدفعون المضار عن الناس ويجتهدون في دحرها

ومن نماذج الشعر قول النابغة الجعدي :

فتى تم فيه ما يسر صديقه ... على أن فيه ما يسوء الأعاديا

فتناقض الصورة تجتمع في هذا الفتى ، بحيث ترى فيه وحده التناقض اللافت ، ترى فيه صفات تسر الصديق ،وهي هي التي تسوء الأعادي ، ولقد أراد الشاعر تركيز الضوء على الفتى فجمع فيه الأضواء الكاشفة للنقيضين ، **ويبرز هذا المعنى في قول شاعر آخر:**

١- المعجم الكبير ١٧ / ٣١٠.
٢ - حلية الأولياء ٣/ ٢٢٣.

فـوا عجبـا كيـف اتفقنـا فناصـح وفيّ ، ومطـوي عـلى الغـلّ غـادر

فهناك رباط يربط المتناقضات ، يربط بـين الناصـح الـوفي ، والغـادر المطوي على الغل ، ومن هنا كان العجب ، فالشـاعر يريـد أن يرينـا صـورة عجيبة ، ليست صورة اجتماع فقط ، ولكنها صورة اتفاق أيضا !!!!

الصورة الثانية: مقابلة ثلاثة بثلاثة .

رقعة البناء هنا أوسع وأرحب لأنك تجـد هـذا الجمـع يـروق ويحلـو ويعلو مرتبة فوق مرتبة ، وبخاصـة حـين تلحـظ عينـك هـذا التقابـل بـين فريقين ، وكل فريق يضم في جعبته ثلاثة أشكال تضاد مـا يقابلهـا في الجهـة المضادة ، وتزداد الصورة اتساعا فترى المتقابلات قـد زادوا واحـدا ، وكـأن أمارات الاختلاف قد زادت رقعتها ، فترى جانبا يحمل ثلاث عناصر يقابل جانبا آخر يحمل ثلاث عناصر أخرى ، **ومن أمثلة ذلك قول الله تعالى** :

﴿....**وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ** ....﴾ [سورة الأعراف:١٥٧]

فالمقابلة بين إحـلال الطيبـات للمـؤمنين ، وتحـريم الخبائـث علـيهم وذلك حتى تكتمل الصورة ، فما دام هناك تحليل ، فلابد من معرفة التحريم وحين تعرف المحلل ، فلا بـد مـن إدراك المحـرم ، ثـم لا بـد أن تـدرك مـا هو لك ، وما هو عليك ، تلك أجزاء الصـورة التـي ترسـمها الآيـة ، لتبـين اكتمال التشريع في هذا الجانب المهم .

ومـن كـلام الإمـام عـلي – رضي الله عنه – " إن الحـق ثقيـل وبيء وإن الباطـل خفيـف مـريء "فثقـل الحـق ومرارتـه يستشـعرها الطغـاة

الظالمون في الوقت الذي يحسون بخفة الباطل وحلاوته .

وفي الشعر يقول أبو دلامة :

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

ولعله يريد ان يريك نموذجين من نماذج الحياة التي يراها ، نموذج الرجل الذي اجتمع له الدين والدنيا ، فكان من أحسن الناس ، ونموذج الرجل الذي اجتمع له الكفر والإفلاس ، فكان من أقبح الناس ، فلما رأى الشاعر النموذجين صاغهما لك في هذه الصور البديعة التي جعلتنا نرى ما يرى .

الصورة الثالثة: مقابلة أربعة بأربعة .

تزداد الصورة سعة ، وتتشعب مناطق التضاد فترى أربعة أطراف تقابل أربعة أخرى ، ومن **ذلك قوله تعالى في سورة الليل:**

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الليل:٥-١٠]

هنا أربعة أطراف في جهة ، وأربعة في الجهة الأخرى ، ويمسك بالأطراف الثمانية أسلوب واحد ، يريك المعطي التقي ، المصدق بالدين وعاقبة أمره يسرى ، وعلى الجهة الأخرى ترى البخيل المتكبر المكذب بالدين وعاقبة أمره ، ولا تكتفي الآيات بإلقاء الضوء على من كان عاقبة أمره عسرى ، بل تشدك معها لتريك أفعاله يوم القيامة ، ومحاولاته في الدفع

بماله ليحجزه عن النار ، لكن المال لا يغنيه ، ولا يحجز عنه شيئا ، إن المقابلة هنا تضبط الأطراف الثمانية في إطار واحد ، لا لشيء إلا لترى الكل دفعة واحدة ، وتعقل الجميع وهم مرتبطون ببعضهم ، حتى تميل النفس إلى جانب ، وتنفر من الجانب الآخر ، وهذه مهمة الطباق والمقابلة ، أن ترى النقيضين ، وقد اجتمعا أمام عينيك ، وتشاهد المتعاكسين وقد شخصا أمام ناظريك ، وعليك أن تختار ساعتها ، إلى أيهما تميل ، وفي أي جانب تدخل ؟ فاللهم أرنا الحق حقا وارزقنا إتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ولاتكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك .

يقول سيد قطب – رحمه الله – :(والناس في هذه الأرض تختلف طبائعهم، وتختلف مشاربهم وتختلف تصوراتهم، وتختلف اهتماماتهم، حتى لكأن كل واحد منهم عالم خاص يعيش في كوكب خاص، هذه حقيقة ، ولكن هناك حقيقة أخرى حقيقة إجمالية تضم أشتات البشر جميعا، **وتضم هذه العوالم المتباينة كلها.**

- تضمها في حزمتين اثنتين.
- وفي صفين متقابلين.
- تحت رايتين عامتين: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [سورة الليل:٥-٦]
- و ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ [سورة الليل:٩]

من أعطى نفسه وماله. واتقى غضب الله وعذابه. وصدق بهذه العقيدة التي إذا قيل «الحسنى» كانت اسما لها وعلما عليها. ومن بخل بنفسه وماله. واستغنى عن الله وهداه. وكذب بهذه الحسنى.... هذان هما الصفان اللذان يلتقي فيهما شتات النفوس، وشتات السعي، وشتات المناهج، وشتات الغايات.

ولكل منهما في هذه الحياة طريق.. ولكل منهما في طريقه توفيق! «فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَاتَّقى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنى.. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى» ..والذي يعطي ويتقي ويصدق بالحسنى يكون قد بذل أقصى ما في وسعه ليزكي نفسه ويهديها. عندئذ يستحق عون الله وتوفيقه الذي أوجبه- سبحانه- على نفسه بإرادته ومشيئته. والذي بدونه لا يكون شيء، ولا يقدر الإنسان على شيء. ومن يسره الله لليسرى فقد وصل.. وصل في يسر وفي رفق وفي هوادة.. وصل وهو بعد في هذه الأرض.

وعاش في يسر. يفيض اليسر من نفسه على كل ما حوله وعلى كل من حوله. اليسر في خطوه. واليسر في طريقه. واليسر في تناوله للأمور كلها. والتوفيق الهادئ المطمئن في كلياتها وجزئياتها. وهي درجة تتضمن كل شيء في طياتها. **حيث تسلك صاحبها مع رسول الله- ﷺ - في وعد ربه له:**

«وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى » ..«وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنى. وَكَذَّبَ بِالْحُسْنى.. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى. وَما يُغْنِي عَنْهُ مالُهُ إِذا تَرَدَّى.» والذي يبخل بنفسه

وماله، ويستغني عن ربه وهداه، ويكذب بدعوته ودينه.. يبلغ أقصى ما يبلغه إنسان بنفسه من تعريضها للفساد. ويستحق أن يعسر الله عليه كل شيء، فييسره للعسرى! ويوفقه إلى كل وعورة! ويحرمه كل تيسير! ويجعل في كل خطوة من خطاه مشقة وحرجا، ينحرف به عن طريق الرشاد. ويصعد به في طريق الشقاوة. وإن حسب أنه سائر في طريق الفلاح. وإنما هو يعثر فيتقي العثار بعثرة أخرى تبعده عن طريق الله، وتنأى به عن رضاه.. فإذا تردى وسقط في نهاية العثرات والانحرافات لم يغن عنه ماله الذي بخل به، والذي استغنى به كذلك عن الله وهداه.. «وَما يُغْنِي عَنْهُ مالُهُ إِذا تَرَدَّى» .. والتيسير للشر والمعصية من التيسير للعسرى، وإن أفلح صاحبها في هذه الأرض ونجا.. وهل أعسر من جهنم؟ وإنها لهي العسرى!.هكذا ينتهي المقطع الأول في السورة. وقد تبين طريقان ونهجان للجموع البشرية في كل زمان ومكان.وقد تبين أنهما حزبان ورايتان مهما تنوعت وتعددت الأشكال والألوان. وأن كل إنسان يفعل بنفسه ما يختار لها! فييسر الله له طريقه: إما إلى اليسرى وإما الى العسرى)(١)، فاللهم يسر لنا طريقا إلى اليسرى ، وليس بعد هذه السطور التي تتغذى من عطاءات السماء كلام يقال في المقابلة في هذه الصورة . ومن كلام أبي بكر رضي الله عنه

١ـ الظلال ٦/ ٣٩٢٢.

في وصيته : "هذا ما أوصى به أبو بكر عند آخر عهده بالـدنيا خارجـا منها وأول عهده بالآخرة داخلا فيها " .

لعلك لاحظت كلام الصديق أبي بكـر وهـو يصـور إحساسـه بـدنو أجله ، وانتهاء رحلته ، من خـلال انتقالـه مـن عـالم ينـاقض العـالم الآخـر فصاغ عبارته صياغة تحمل هذه المقابلـة بـين العـالمين – عـالم الـدنيا وعـالم الآخرة – فقابل بين آخـر العهـد وأول العهـد ، وبـين الخـروج مـن الـدنيا والدخول إلى الآخرة ، فسياق العبارة ومقامها وضـعها في أسـلوب يرشـح بالتقابل ، ويقطر بالتضاد بين عالمين ، عالم الدنيا وعالم الآخرة ، **ومن الشعر قول جرير :**

وباســط خــير فــيكم بيمينــه وقــابض شر عــنكم بشــماليا

وقول البحتري

يا أمة كان قـبح الجـور يسـخطها دهرا فأصبح حسن العدل يرضـيها

وقول ابن حجة الحموي :

قابلتهم بالرضا والسلم منشرـحا ولّوا غضـابا فـوا حـربي لغـيظهم

كل هذه النماذج تبين أثر المقابلة في تكـوين المعنـى ، وبنائـه ، وإبـرازه في صورة أبهى ، وأنصع ، وتضيف إليه توكيدا يحمله النظر في الشيء وضده ومراجعة الأمر وعكسه ، وتلك سمات المقابلة وخصائصها .

الصورة الرابعة: مقابلة خمسة بخمسة .

ولعلك تدرك حجم الصورة هنا ، وسعة مساحتها ، حتى لكأنك تحاول جاهدا الإمساك بأطرافها لبعد المساحة المتناقضة ، وهذا مقصود في النماذج العالية ، حين يراد منك أن تشخص ببصرك لترنو إلى الأفق الذي يقف على قمته رأسان في المعنى ، يعاكس كل رأس الرأس الأخرى **ولكي يتضح لك ما أقول انظر إلى قول المتنبي :**

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأنثني وبياض الصبح يغري بي

حيث ترى حالتين نفسيتين يعيشهما الشاعر ، تجسد كل حالة مشاعر متباينة للحالة الأخرى ، وكثرة العناصر المتناقضة هنا إنما هي تجسيد للنوازع المتنافرة التي يعالجها الشاعر ويتلظى بها في حالتيه ، حالة الزيارة وما فيها من طمأنينة ، وشفاعة من سواد الليل ، وحالة الرجوع وما فيها من ترقب وخوف الرصد ، وفضيحة الكشف ، ومن هنا ندرك كيف بُني المعنى على أساس الحالة النفسية للشاعر ، وكيف ساهم التقابل في تكوين التركيب ، حتى لكأنك لا تستطيع التعبير عن هاتين الحالتين إلا بالطريقة التي سلكها الشاعر ، **وجرب مثل ذلك في قول الشعراء :**

بواطئ فوق خد الصبح مشتهر وطائر تحت ذيل الليل مكتتم

وقول صفي الدين الحلي :

كان الرضا بدنوِّي من خواطرهم فصار سخطي لبعدي عن جوارهم

حيث علق ابن حجة الحموي على البيتين فقال :

قابلوا (واطئا بطائر) لأن الواطئ هـو المـاشي عـلى الأرض والطـائر السائر في الهواء (وفوق بتحت) (وخد بذيل) لما بينهما مـن معنـى العلـو والسفل (والصبح بالليل) (ومشتهر بمكتتم) وانظر لفظـة (مشـتهر مـع مكتتم) وهي القافيـة التـي لا يمكـن أمكـن منهـا ، ولفظـة (خـواطرهم) ومقابلتها (بجوارهم) في بيت صفي الدين وما بينهما مـن المباينـة غـير أن ثقل قولهم (بواطئ) يشق حمله على لطيف الذوق }(١).

الصورة الخامسة: مقابلة ستة بستة .

وهنا ترى الأمر قد بلغ المدى في المقابلة ، حيـث تجـد تركيبـا واحـدًا جمع الشاعر فيه كل طاقته الشعرية ليحملـه كـل طاقتـه الانفعاليـة ، وهـذه الطاقة الانفعالية تحتاج منك إلى إمعان، **وحاول هذا في قول الشاعر**:

عـلى رأس عبـد تـاجُ عـزٍ يزينـهُ وفي رجـل حـرٍ قيـدُ ذلٍ يشـينهُ

حيث يصور الشاعر تغير الأحوال في دنيا الناس حيث يصـير العبيـد سادة ، والسادة عبيدا ، وحين تنقلب الأمـور ، فيـتكلم الرويبضـة في شـأن العامة ، وتسمع مـن البغـيّ نصـائح في العفـة والطهـارة ، وتـرى السـارق يعلمك معنى الأمانة ، حين يُخَوَّن الأمين ويؤتمن الخـائن، في هـذه الأحـوال ترى الدنيا وقد انقلب حالها ، ووضعت الأمور في غير موضعها ، ولا يعـبر عـن هـذه الحالـة إلا المقابلـة التـي تريـك الأمـور المتعاكسـة ، ، المتنـافرة

١ ـ خزانة الأدب لابن حجة الحموي ١ / ١٣٢.

وقد جمعت أمامك . فالشـاعر ينظـر حولـه فـيرى العبيـد قـد لبسـوا تيجان العز وتزينوا بزينة الأحرار ، وفي المقابل يرى الأحرار وقـد غيبـوا في بواطن السجون ، وقيـدوا بقيـود الـذل والهـوان ، وألصـقت بهـم الـتهم ، وأسندت إليهم المخازي ، ولا شك أن هـذه الحالـة لا يمكـن لأسـلوب أن يجسدها كما جسدتها المقابلة .

الفصل الخامس
فنون الخيال

التجريد

من فنون الخيال فن التجريد ، لأن المتكلم يتصور فيه عالما آخر يخاطب فيه شخصا غير الشخص ، ونفسا غير النفس ، أو يتحدث عن نفسه في صورة أخرى ، وهذا فن بديع قال عنه ابن جني في الخصائص[1] :

---

١ - كتاب الخصائص من أجل تآليف ابن جني، البالغة (٦٧) كتاباً، والتي عناها في بائيته بقوله:
تناقلها الرواة لها ... على الأجفان من حدب
فيرتع في أزاهرها ... ملوك العجم والعرب
فإن أصبح بلا نسب ... فعلمي في الورى نسبي.
وهو (كتاب في أصول النحو على مذهب أصول الكلام والفقه) . وقد بناه على (١٦٢) باباً، وأهداه لبهاء الدولة البويهي، الذي ولي السلطنة سنة ٣٧٩ إلى ٤٠٣هـ وذلك بعد وفاة أستاذه أبي علي الفارسي (ت٣٧٧هـ) . وحشر فيه الكثير من القراءات الشاذة التي أودعها في كتابه (المحتَسَب) . واحتذى في مباحثه النحوية منهج الحنفية في أصول الفقه. وكان حنفي المذهب، معتزلي العقيدة، بصرياً في مذهبه النحوي. ومن نوادره في كتابه: الباب ١٤٥ في القول على فوائت الكتاب لسيبويه، والباب ١٥١ فيما يؤمنه علم العربية من الاعتقادات الدينية، والباب ١٥٨ في سقطات العلماء. طبع الكتاب لأول مرة في مصر سنة (١٣٣١هـ ١٩١٣م) (جزء منه) ، ثم طبع كاملاً بتحقيق الأستاذ محمد على النجار، في ثلاثة أجزاء ما بين ١٩٥٢ و١٩٥٥م، مع مقدمة جليلة، أبان فيها عن أثر الكتاب في أعمال النحويين من بعده، وعقد (ص٣١) فصلاً نبه فيه إلى كثرة النصوص التي نقلها عنه ابن سيده بلا عزو، حتى إنه استعار عبارته ذاتها في وصف حاله فقال: (فوجدت الدواعي والخوالج قوية التجاذب ... إلخ) . وفي عام ١٩٩٧م أصدر معهد المخطوطات العربية في القاهرة (الفهارس المفصلة لابن جني) وكان الحلقة الأولى ضمن سلسلة (كشافات تراثية) صنعه د. عبد الفتاح السيد سليم. ويضم (١٦) فهرساً، منها: (٩١) مسألة في أصول اللغة، و (٥٥) مسألة في العلل النحوية. و (٨١) مسألة في اللغات. وفهرس الآيات المحتج بها في الخصائص وهي (٣٢٦) أية. وفهرس الكتب المذكورة في الكتاب، وهي (٣١) كتاباً. وفيه (ص٢١٧) نقوله عن العلماء، في (٣٩٨) مسألة، منها (٨٠) مسألة عن أبي علي الفارسي و (٦٨) عن سيبويه و (٣٦) عن الأخفش و (٢٥) عن الأصمعي و (٢١) عن المازني و (١٩) عن أبي زيد و (١٨) عن الفراء و (١٦) عن المبرد و (١٥) عن الخليل بن أحمد و (١٢) عن السراج و (١٢) عن ثعلب و (٩) عن الكسائي و (٨) عن يونس و (٧) عن أبي عمرو ابن العلاء و (٧) عن الزجاج و (٥) عن أبي عبيدة و (٥) عن أبي حاتم و (٣) عن كل من ابن الأعرابي وقطرب والجرمي و (٢) عن كل من الجاحظ وهشام وابن حبيب و (مسألة واحدة) عن كل من خلف وابن دريد والنوشجاني وأبي عمرو الشيباني وأبي الخطاب وأحمد بن إبراهيم. و (٤) مسائل عن مجاهيل.
وجاء في الموسوعة العربية العالمية ما يلي:
الخصائص كتاب يبحث في خصائص اللّغة العربية، ألّفه العلامة اللغوي الشهير أبو الفتح عثمان بن جنِّي الشهير بابن جنِّي المتوفى سنة ٣٩٢ هـ، ١٠٠١م. اشتمل الكتاب على أبواب تخرج عن هذا النطاق، كبحثه

(اعلم أن هذا فصل من فصول العربية طريف حسن، ورأيت أبا علي -رحمه الله- به غريًا معنيًا[1] ، ولم "يفرد له"بابًا، لكنه وسمه في بعض ألفاظه بهذه السمة، فاستقريتها منه وأنقت لها.

ومعناه أن : "العرب قد تعتقد" أن في الشيء من نفسه معنى آخر كأنه حقيقته ومحصوله. وقد يجري ذلك إلى ألفاظها لما عقدت عليه معانيها. وذلك نحو قولهم: لئن لقيت زيدًا لتلقين منه الأسد، ولئن سألته لتسألن منه البحر. فظاهر هذا أن فيه من نفسه أسدًا وبحرًا، وهو عينه هو الأسد والبحر "لا أن" هناك شيئًا منفصلًا عنه وممتازًا منه. وعلى هذا يخاطب الإنسان منهم نفسه، حتى كأنها تقابله أو تخاطبه) أهـ .

وكلام ابن جني عن شيخه أبي علي الفارسي يوضح أن التجريد خصيصة من خصائص البيان الإنساني ، وشيء في سوس القريحة العربية تلجأ العرب إليه من أجل المبالغة في المعنى ، **ولذلك قيل في تعريفه** :

(أن ينتزع من أمر ذي صفة أمرا آخر مثله فيها مبالغة، وذلك لكمال تلك الصفة في الأمر الآخر) .

في الفرق بين الكلام والقول، وبحثه في أصل اللغة: إلهام هي أم اصطلاح؟ وغيرها. وبقية مباحثه تختص باللّغة العربية: فلسفتها، ومشكلاتها. إذ يقول مؤلفه: ,وليكون هذا الكتاب ذاهبًا في جهات النظر ؛ إذ ليس غرضنا فيه الرفع والنصب والجرّ والجزم؛ لأن هذا أمر فُرغ منه في أكثر الكتب المصنَّفة فيه. وإنما هذا الكتاب مبنيّ على إثارة معادن المعاني، وتقرير حال الأوضاع والمبادئ، وكيف سرت أحكامها في الأحناء والحواشي·. فالكتاب في مجمله في قضايا اللغة العربية ومشكلاتها، وإن ذكرت بعض تفصيلات نحوها وصرفها للانطلاق منها إلى تلك القضايا والمشكلات. والكتاب يقع في ثلاثة مجلدات تضم ١٦٢ بابًا، تبدأ بباب القول على الفصل بين الكلام والقول، وتنتهي بباب في المستحيل وصحة قياس الفروع على فساد الأصول.

١ - يعني : مولعا به معنيا بتفاصيله .

وراجع هذا التعريف ، وكرره على لسانك ، وتخيل أنك تخاطب شخصا آخر وأنت تخاطب نفسك ، أو تتحدث عن شخص آخر وأنت تتحدث عن نفسك[1]، وتذكر قول قطري بن الفجاءة الذي حفظناه صغارا وهو يؤدب نفسه ويزجرها ، ويعظها ، وكأنها شخص آخر أمامه يقول :

(أَقُول لَهَا وَقد طارت شعاعا ... من الْأَبْطَال وَيحك لن تراعي)
(فَإنَّك لَو سَأَلت بَقَاء يَوْم ... على الْأَجَل الَّذِي لَك لن تطاعي)
(فصبرا فِي مجَال الْمَوْت صبرا ... فَمَا نيل الخلود بمستطاع)
(وَلَا ثوب الْبَقَاء بِثَوْب عز ... فيطوى عَن أخي الخنع اليراع)
(سَبِيل الْمَوْت غَايَة كل حَيّ ... فداعيه لأهل الأَرْض دَاعِي)

---

١ - من أجمل ما قرأت في هذا مقالة للشيخ محمود شاكر في كتاب جمهرة مقالاته ، يقول فيها : (يخيل إليَّ أن بين قلمي والليل صبابةً أو هوى قديمًا. فطالما رأيتني أعقد الرأي والعزمَ نهارًا على شيء أجعل الكتابة له قيدًا إذا جَنَّ الليلُ، فما أكاد أحملُ القلم وأبدأ حتى أرى القلم ينقض عليَّ رأيي وعزمي ويمضي إلى حيث شاء كما شاء، فما يُبقى من آية النهار المبصرة شيئًا إلا طمسَهُ أو أزاله أو نكَّر من معارفه، وما أظنّ إلا أن كل كاتب قد ابتُلِيَ من قلمه بمثل الذي ابتُليتُ به أو بشيء يقاربه. ومن أعسر شيء ألقاه من القلم أنى ربما بدأتُ الكتابة، فإذا هو مِطواعٌ حثيث لا يتوقف، وإذا كلمةٌ مرسلة إليه ليقيدها، فإذا هو كالفرس الحرون قد ركب رأسه وأبى إباءً، فلا أزال أترفقُ به واستحثُّه وأديره بين أناملي لِيَلِينَ ما استعصى من طباعه، ولكنه يأبى إلا لجاجة وعنادًا، ثم ينزع إلى وجه غير الذي أردتُ، وإذا أنا مضطر أن أعود من حيث بدأ هو لا من حيث أردتُ أنا أن أبدأ، وعندئذ يمضي على هواه وعلى ما خيّلتْ. فقد عرفت ذلك من عاداته قديمًا، فما يكاد يفعل ذلك حتى أثوبَ إلى ورقة أخرى فأبدأ الكتابة من حيث أراد، وأمري لله. أفتراني أخطئ إذا أنا زعمت أن لقلم الكاتب شخصية مستقلة بل منفصلة تكاد أحيانًا تغلب حامله على رأيه وعلى تقديره وعلى عزائمه؟ أم الإنسان المفكر صاحب العقل شيء آخر غير إنسان الكاتب حامل القلم؟ فهو حين يفكر يُعطى أفكاره الحرية والسَّعة والحماسة ما يجعلها أقدر على التصرف في وجوه الرأي وشعابه ونواحيه، فإذا حمل القلم ليملى عليه بعض أفكاره، واستقل قلمه بالفكرة بعد الفكرة يزنها ويقدرها على قدر عقله لا على عقل حامله، فربما عرض له أن ينبذ منها أو يتنقَّصها أو يتجافي عن طريقها فيسدَّ عليها المسالك ويضرب عليها بالأسداد، ثم يشرع إلى وجه غير الذي يُرَاد له؟ أم الإنسان إذا فكر ثم أراد أن يكتب وحمل القلم صار هو نفسه شخصا آخر غير الإنسان المفكر بغير قلم.

(وَمــن لَا يعتــبط يســأم ويهــرم وتســلمه الْمنــون إِلَى انْقِطَــاع)
(وَمَــا للمــرء خــير فِي حَيَــاة إِذا مَــا عــد مــن سـقط الْمَتَــاع)

فقوله(لها) يعني النفس التي بين جنبيه ، فهو يخاطب نفسه ، ويجرد من نفسه شخصا آخر ويحدثه ويعاتبه ويؤنبه ، وكلمة (الشعاع) يريد : المتفرق أي طارت مثل الشعاع المتفرق في كل اتجاه ، وفرّت خوفا من القتل حين رأت الرقاب تتطاير بفعل السيوف ، فهربت وفرت من ساحة المعركة وقوله : (لن تراعى) : أي لا تخافي ، من الروع بمعنى الخوف الشديد وكأنه يذكر نفسه بأنها لن يصيبها شيء تكرهه ، ويشجعها على خوض غمار المعركة بعدما استشعرت الفزع ، لأن الأجل مقدر، وقوله : (أخي الخنع) أي : الذليل ، واليراع : العود الفارغ من الداخل ، والقصبة التي يصفرون فيها لفراغها من الداخل ، ويقصد الرجل الذي لا قلب له يتحمل لأواء الحروب ، لأنه جبان.

والشاعر هنا يشجع نفسه ويحفزها على الصبر ويبين لها أن أحداً لا يخلد في الدنيا، ولا بد من الموت وأن البقاء لم يكتب لأحد ، ولا بد من موت كل إنسان ، وليس البقاء عزا حتى يلهث خلفه الذليل الجبان.

قال العلماء: سمى هذا النوع تجريداً لأن العرب تعتقد أن في الإنسان معنى كامناً فيه كأنه حقيقته، فتخرج ذلك المعنى إلى ألفاظها مجرداً عن الإنسان، كأنه غيره، وفائدة هذا النوع أن يثبت الإنسان لنفسه مالا يتصور التصريح بثبوته له .

المهم أن تعلم أن التجريد يعني أن تقتطع من النفس نفسا أخرى وتحدثها أو تتحدث عنها ، والتجريد يأتي على صور متعددة وأقسام متنوعة **ومنها ما يأتي :**

١ - التجريد بلفظ "من"

فعند المبالغة في الصفة تقول : «لي من فلان صديق حميم» تريد أن الصداقة ومتطلباتها بلغت عنده الغاية حتى صح أن تستخلص منه صديقا آخر ، أو شخصا آخر مثله في الصداقة ، لأنها فاضت عنده وزادت حتى ملأت ذاته وفاضت على شخص آخر مثله ، فبدلا من أن تقول : هو صديقي الحميم ، تقول : لي منه صديق حميم .

٢ - التجريد بلفظ"الباء"

فعند المبالغة يمكنك أن تقول : «لئن رأيت فلانا لترين به الأسد ولئن سألته لتسألن به البحر ».

وهذا القول يقال في مقام المبالغة في وصف «فلان» بالشجاعة أو بالكرم، حيث انتزع وجرد منه أسد وبحر في الشجاعة والجود .ويلحق بهذا الضرب المبالغة بالباء التي تعني معنى (مع) أو ما يطلق عليه (باء المعية) وهي التي تدخل على المنتزع ، **كما في قول الشاعر :**

وشوهاء تعدو بي إلى صارخ الوغى ... بمستلئم مثل الفنيق المرحل

والشوهاء هي الفرس القبيحة المنظر لسعة أشداقها ، وتعدو بي أي : تسرع بي إلى الصارخ الذي ينادي للحرب ، وقوله : بمستلئم هو محل

الشاهد ، فالمستلئم هو لابس لأمة الحرب، أي: عدة الحرب وسلاحها ويقصد نفسه ، إذ هو المستلئم ، فهو حين قال : تعدو بي ، أشعرك بأن المستلئم شخص آخر ، لكنه أراد أنها تعدو به حين يكون لابس لأمة الحرب مثل الفحل المكرم عند أهله الذي وضع عليه رحله ، وأرسل في رحلته .

والحديث حديث تجريد الشاعر من نفسه شخصا آخر وتحدث عنه بأن الفرس تعدو بهذا الشخص إلى ساحات الوغى ، وهي الساحات التي اعتاد أن يرسل إليها ؛ لإغاثة الملهوف ، ونصرة المظلوم ، والعجيب في هذا الشاهد هو هذا الخداع الذي صنعه الشاعر حيث خدع القارئ أولا بأن الفرس تعدو به ، أولا ثم حين استقر هذا المعنى جاء بلفظ (المستلئم) التي أشعرك بأنه شخص آخر ، وتلك مبالغة فوق المبالغة ، فالتجريد في نفسه مبالغة ، وخداع الشاعر للقارئ حتى يؤكد عليه بأن المستلئم شخص آخر مبالغة أخرى .

٣ - التجريد بدخول لفظة "في" على المنتزع منه:

نحو قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة فُصِّلَت:٢٨]

فأصل المعنى : لهم النار ، وعبر عن النار بأنها دار الخلد ، ثم تحول

التعبير من قول : (لهم دار الخلد) إلى : (لهم فيها دار الخلد) ، وكأن دار الخلد شيء مغاير للنار أعدت في جهنم لأجل الكفار تهويلاً لأمرها ومبالغةً لاتصافها بالشدة ، ولك أن تقول إن المعنى أن لهم في جهنم خلودا لا ينقضي أبدا .

٤ – **التجريد بدون حروف وسيطة**:

كقول قتادة بن مسلمة الحنفي:

(لم ألق قبلهم فوارس مثلهم	**أحمى وَهن هوازم وهزيم)**
(لما التقى الصفان وَاخْتلف القنا	**وَالْخَيْل فِي نقع العجاج أزوم)**
(فِي النَّقْع ساهمة الْوُجُوه عوابس	**وبهن من دعس الرماح كلوم)**
(يممت كبشهم بطعنة فيصل	**فهوى لحر الْوَجْه وَهُوَ دميم)**
(وَمَعِي أسود من حنيفَة فِي الوغى	**للبيض فَوق رُؤْسهمْ تسويم)**
(قوم إِذا لبسوا الْحَدِيد كَأَنَّهُمْ	**فِي الْبيض وَالْحلق الدلاص نُجُوم)**
(فلئن بقيت لأرحلن بغزوة	**تحوي الْغَنَائِم أَو يَمُوت كريم)**

فالغزوة التي يغزوها إما أن يعود منها بالغنائم ، أو يعود منها بالموت وهما الحسنيان التي وعد بهما كل مجاهد ، لكن الشاعر حين عبر عن الشهادة قال : (أو يموت كريم) ويعني : أو أموت ، فهو بين مفازتين ، بين الغنائم أو الموت ، وعبر عن نفسه بقوله: "أو يموت كريم" على طريقة التجريد ليثني على نفسه بصفة الكريم، **ومنه قول المتنبي يمدح فاتكا الإخشيدي بمصر:**

لا خيــل عنــدك تهــديها ولا مــال فليسعد النطق إن لم تسـعد الحـال

واجز الأمـير الـذي نعـماه فاجئـة بغير قـول ونعمـى القـوم أقـوال

وكان فاتك الأخشيدي قد أعطى المتنبي نفقة وكسوة ، فقال فيه هـذه القصيدة الرائعة ، والشاعر هنا بدأ القصـيدة بمخاطبـة نفسـه قـائلا: لـيس عندك من الخيل والمال ما تهديه إلى الممـدوح جـزاء لـه عـلى إحسـانه إليـك فليسعدك ويعنـك النطـق، أي فامدحـه بالشـعر، وجـازه بالثنـاء عليـه، إن لم تعنك الحال على مجازاته بالمال أو الخيل .

ومثله قول الأعشى:

ودع هريـرة إن الركـب مرتحـل وهـل تطيـق وداعـا أيهـا الرجـل

٥- التجريد بطريق الكناية :

ومعلـوم أن الكنايـة صـورة بيانيـة تكـون عـن صـفة ، أو موصـوف أو نسبة ، وحين أقول مثلا : أنا لا اشرب كأسا بكف من يبخل ، فلا أعنـي رجلا آخر يسقيني ، بل أعني أنني كريم ، **وهذا ما فعله الأعشى حين قال :**

يـا خـير مـن يركـب المطـي ولا يشرـب كأسـا بكـف مـن بخـلا

أي أنه كريم جواد فكفه كف الكريم ، فقد انتزع من الممدوح جـوادا يشرب هو الكأس بكفه عن طريق الكناية، لأنه إذا نفى عنه الشرـب بكـف البخيل فقد أثبت له الشرب بكف كريم، ومعلـوم أنـه يشرـب بكفـه، فهـو ذلك الكريم.

المبالغة

هذا اللون من البديع أصل من أصول الكلام في اللسان العربي حتى إنهم يزاولونه في الكلمة والكلام فالعرب تهتم بالمبالغة ، وتلتمس من أجلها كل طريق ، **ومن أهم الطرق التي يلتمسونها للمبالغة** :

- يزيدون في حروف الكلمة الواحدة ، وحين يزيدون إما أن يزيدوا حرفا من الكلمة ، أو من خارجها ، فيقولون: "حلا الشيء" فإذا أرادوا المبالغة في معناها قالوا: "احْلَّوْلَى" ، وكذلك زادوا الميم في أواخر الأسماء للمبالغة كما زيدت في زُرقم وشدقم ، ويزيدون التاء في الآخر كما في علامّة ، ونسابّة .
- يضعون صيغا للمبالغة مثل (فعيل – وفعول – فعّال – وفعِل – ومفعال) .
- يستخدمون تعبيرات خاصة للمبالغة مثل : لا أبا لك ، أو لا أَب لك: حيث قالوه وأرادوا المبالغة في المدح ، لأن من يقال في شأنه مثل ذلك اعتمد في حياته على جهده الخاص ، وليس على آبائه ، وكذلك يقولون : لله أبوك وهم يريدون المبالغة في تعظيمه . ويقولون : (فلَان نَسِيج وَحده) وكأنه لا مثيل له ، وَذَلِكَ لأَن الثَّوْب اذا كَانَ نفيسا لا تجد له نظيرا ، ولا ينسج على منواله غَيره .

- وتراهم ينسبون الشيء إلى نفسه للمبالغة **فيقولون** : (شعر شاعر ويوم أيوم ،) وكل ذلك للمبالغة .
- ويضعون الأساليب البلاغية مثل التشبيه والاستعارة ، والكناية كذلك للمبالغة .

وعليه فالمبالغة سنة من سنن العربية في كلامها، ولذلك لا تكاد ترى أديبا يقول الشعر أو النثر إلا وهو يعتمد على هذا اللون من الفن، فن المبالغات.

ومصطلح المبالغة سمع أولا من قدامة بن جعفر ، **حيث قال** : (ومن أنواع نعوت المعاني " المبالغة ".

وهي أن يذكر الشاعر حالاً من الأحوال في شعر لو وقف عليها لأجزأه ذلك في الغرض الذي قصده، فلا يقف حتى يزيد في معنى ما ذكره من تلك الحال ما يكون أبلغ فيما قصد له، **وذلك مثل قول عمير بن الأيهم التغلبي:**

ونكرمُ جارنَا ما دامَ فينَا ونتبعهُ الكرامةَ حيثُ مالا

في حين سماه عبد الله بن المعتز (الإفراط في الصفة) والإفراط في الصفة شرح لمصطلح المبالغة ، ومنهم من سماه التبليغ ، ولكن الذي شاع وانتشر بين الناس هو مصطلح : " المبالغة " ، لخفته في الذكر وعلى اللسان وكأن الناس رغبوا في تسمية قدامة لخفتها.

تعريف المبالغة في اللغة :

الباء واللام والغين أصول تدل على الوصول والانتهاء ، فالمبالغة في اللّغة: الاجتهاد في الشيء إلى حدّ الاستقصاء والوصول به إلى غايته أو تجاوز هذه النهاية ، ولذلك قيل إن المبالغة تأتي بمعنى المغالاة، وهي الزيادة بالشيء عن حدّه الذي هو له في الحقيقة، فيقال : بالغَ في الأمر مُبالغةً وبلاغاً، إذا اجتهد فيه واستقصى، وإذا غالى فيه أيضاً.

تعريفها في الاصطلاح :

هي أن يدّعي المتكلّم لوصفٍ ما أنَّه بلغ في الشدّة أو الضعف حدّاً مستبعداً أو مستحيلاً.

والناس في المبالغة مختلفون ، لأنهم قاسوا الفن الأدبي بمقاييس غير التي يقاس بها ، فحكموا القواعد الفقهية في القواعد الأدبية ، وهذا أمر لا ينبغي ، لأن لكل مجال قواعده التي يقاس بها ، ويحكم له أو عليه **ولذلك أستعرض هنا سريعا هذه الآراء :**

الفريق الأول :

جعلوا المبالغة ضربًا من الكذب المحمود ، لأن الفن الشعري قائم على المبالغات ، وأعذب الشعر أكذبه. فهي في البيان محمودة عندهم وعنصر من عناصر الجودة في الكلام ، **ونسبوا إلى النابغة الذبياني قوله :**

أشعر الناس من استجيد كذبه، وضُحك من رديئه ، ولذلك طالب النابغة حسان ابن ثابت بالمبالغة في الشعر وقال له : قللت جفانك ، وقلت

يلمعن بالدجى ، ولو قلت : يلمعن بالضحى لكان أولى .

وكل تعليقات النابغة على حسان بن ثابت كانت من قبيل عزوفه عن المبالغة ، في الوقت الذي كانت المبالغة محمودة لأن المقام مقام فخر فالمبالغة في مثل هذه المقامات محمودة في الفن الأدبي وبخاصة في الشعر

يقول الشيخ أبو موسى:

(الشعر أول ما يطرق نفسك يطرقها بالكذب (التخييل) وهذا الكذب جعله الشاعر يغزو قلبك وعقلك رغم أنفك، والشاعر عنده القدرة على أن يكسب الكذب شيئا من الحق، حتى ليخيل إليك أنه الحق وهذا أول ضابط ذكره عبد القاهر في المعاني التخييلية ، المعاني التخييلية تحتاج من الشاعر إلى جهد أكبر مما تحتاجه المعاني العقلية؛ لأن الشاعر في التخييلية لا يستطيع أن يقنع بباطلها إلا إذا كان قادرا على أن يلبس الباطل ثوب الحق، أما العقلية فلا تحتاج إلى جهد كبير لكي يوصلها الشاعر إلى أقاصي نفسك؛ لأنها شريفة في ذاتها)(١).

ولم يعب النبي على هذا فلقد جاء في شرح شواهد المغني لجلال الدين السيوطي أن النابغة الجعدي أدرك الاسلام فاسلم، ووفد على النبي ﷺ فقال: أتيت النبي ﷺ **وأنشدته قولي :**

١- من محاضرة الشيخ في الجامع الأزهر بتاريخ ٢٠ / ٧ ٢٠١٦.

وإنّا لقوم ما تعوّد خيلنا ... إذا ما التقينا أن تحيد وتنفرا

وننكر يوم الرّوع لو أنّ خيلنا ... من الطّعن حتّى نحسب الجون أشقرا

وليس بمعروف لنا أن نردّها ... صحاحا ولا مستنكرا أن تعقّرا

بلغنا السّماء مجدنا وجدودنا ... وإنّا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فقال النبي ﷺ: الى أين؟ قلت: الى الجنة. فقال: نعم، ان شاء الله. قال: فلما أنشدته:

ولا خير في حلم إذا لم يكن له ... بوادر تحمي صفوه أن يكدّرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن له ... أريب إذا ما أورد الأمر أصدرا

فقال النبي ﷺ: لا يفضض الله فاك. فكان من أحسن الناس ثغرا وكان اذا سقطت له سنّ نبتت له)(١).

ولعلك تلحظ مقدار المبالغة ، في قوله : (بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا) حتى عقب النبي ﷺ بالاستفهام ، إلى أين ؟

الفريق الثاني:الرافضون للمبالغات

وهذا الفريق يعيب المبالغة وينكرها، ويراها عيباً وهجنة في الكلام لأنها كذب وتلبيس ، ولا يمكن أن يكون هذا من باب الفصاحة والبلاغة لأن الفصاحة بيان ، وخير بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته (صدق) والعرب إنما حسن كلامها بسبب سهولة البيان ، والأساليب الحسنة

١ـ شرح شواهد المغني لجلال الدين السيوطي ٢/ ٦١٥.

والتصوير الرائع ، وليس بسبب المبالغة ، وقد رأينا الجمال كله في الشعر الصادق ، **يقول ابن أبي الأصبع** :

(وأكثر الكلام والأشعار جار على الصدق، خارج مخرج الحق وهو في غاية الجودة ونهاية الحسن وتمام القوة، كيف لا والمبالغة ضرب واحد من المحاسن، والمحاسن لا تنحصر ضروبها، فكيف يقال: إن هذا الضرب على انفراده يفضل سائر المحاسن على كثرتها؟

وهذا شعر زهير والحطيئة وحسان ومن كان مذهبه توخي الصدق في شعره غالباً ليس فوق أشعارهم غاية ، **ألا ترى إلى قول زهير** :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة   وإن خالها تخفى على الناس تعلم

والى قول طرفة طويل:

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى   كالطول المرخى وثنياه في اليد

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً   ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وإلى قول الحطيئة بسيط:-

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه   لا يذهب العرف بين الله والناس

فإنك تجد هذه الأشعار في الطبقة العليا من البلاغة وإن خلت من المبالغة. والذي يدل على أن مذهب أكثر الفحول ترجيح الصدق في أشعارهم على الكذب ما روى عن الحرورية امرأة عمران بن حطان

الخارجي أنها قالت له يوماً: أنت أعطيت الله عهداً ألا تكذب في شعرك **فكيف قلت :**

فهنـــاك مجـــزءة بـــن ثـــو   ر كـــان أشـــجع مـــن أســـامه

فقال: يا هذه إن هذا الرجل فتح مدينة وحده، وما سمعت بأسد فتح مدينة قط. **وهذا حسان يقول بسيط:-**

وإنـما الشـعر لـب المـرء يعرضـه   على المجـالس إن كيسـاً وإن حمقـاً

وإن أشـــعر بيـــت أنـــت قائلـــه   بيت يقال إذا أنشدته: صـدقَ)[1]

الفريق الثالث:الوسط

وهؤلاء وقفوا موقفا وسطا ، **وقالوا** : إن الاعتدال في الأمر هو الأولى فلا يرفضون المبالغة وفضلها ، لأن أشعارهم الجيدة والفن الذي يتناولونه بالمدح يزخر بالمبالغات ، لكنهم مع هذا يفضلون الصدق ، ويكثرون منه .

ثم كيف تعاب المبالغة وهي مذكورة في القرآن الكريم ، **وراجع كلمات مثل:** (الرحمن الرحيم ، وعلام الغيوب ، وفعال لما يريد) وراجع قول النبي ﷺ (لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك) وغير ذلك كثير لمن أراد المراجعة .

١- تحرير التحبر في صناعة الشعر والنثر لابن أبي الأصبع ص ١٤٨.

أقسام المبالغة

تنقسم المبالغة في استخدامات المتكلمين إلى ثلاثة أقسام ، **هي**:

(التبليغ ، والإغراق ، والغلو) فإذا كان الوصف المدعى ممكنا عقلا وعادة فهو التبليغ، وإذا كان ممكنا عقلا لا عادة فهو الإغراق، وإن كان ممتنعا عقلا وعادة فهو الغلو.

التبليغ

ويسميه بعضهم : المبالغة المقبولة ، لأنه يقوم على ما يقبله العقل وتجيزه العادة ، **ومن ذلك قول عمير بن كريم التغلبيّ**:

ونكـرم جارنـا مـا دام فينـا ونتبعـه الكرامـة حيـث مـالا

فإكرام الضيف من بدهيات العرب ، وتوصيل الكرم إلى باب بيته أمر غير غريب لا عقلا ولا عادة ، وكان كثير منهم يصنع ذلك ، ومن أمثلة المبالغة المقبولةأيضا ، **قول امرئ القيس يصف فرسا:**

فعـادى عـداء بـين ثـور ونعجـة دراكـا ولم ينضـح بـماء فيغسـل

فالفرس إذا أسرع لحق بالثور والنعجة ، في سباق واحد ، ولم يجهد ولم يصبه شيء من الإرهاق أو العرق ، وهذا أمر غير مستغرب على الجياد التي دربت على الصيد والقنص ، **ومنه أيضا قول المتنبى:**

وأصرع أيّ الـوحش قفّيتـه بـه وأنـزل عنـه مثلـه حـين أركـب

فأي وحش مهما كان إذا تتبعه الفارس بفرسه النجيب هذا يصرعه بمعنى يصيده ، ثم ينزل عن فرسه وكأنه لم يجر ، ولم يعدُ ، ولم يسابق ، وهذا لا غضاضة فيه عقلا أو عادة ،**ومنه قول آخر** :

رَهَنْتُ يَدِي بالْعَجْزِ عَنْ شُكْرِ بِرِّه وَمَا فَوْقَ شُكْرِي للشكُور مَزِيدُ

وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ اسْتَطَعْتُهُ لَكِنَّ مَا لاً يُسْتَطَاعُ شَدِيدُ

يعني أنه شكره قدر ما يستطيع ، ولكن شكره لم يرتق إلى عطاء الممدوح .

وإذا كان ما سبق في سياق المدح فهناك تبليغ أيضا في سياق الهجاء **ومن ذلك قول ابن الرومي يهجو رجلا اسمه ابن يوسف** :

لـو أن بيتـك يـابن يوسـف ممتـلٍ بَـرًا يضـيق بهـا فنـاء المنـزل

وأتـاك يوسـف يسـتعيرك إبـرة ليخـيط قَـد قميصـه لـن تفعـل

وابن الرومي هنا ، يصف حالة من البخل شديدة ، وهي على شدتها لا تعدم نظائرها في عالم الناس ، واختار الشاعر في وصف البخل شيئا هينا وهو الإبر التي يخاط بها الثياب ، ثم وصف امتلاك ابن يوسف لهذا النوع فقال إنه يمتلك عددا من الإبر تملأ فناء بيته ،بل يضيق بها فناء بيته ، وكم ياترى عدد هذه الإبر ؟ ! ثم المطلوب منه إبرة واحدة ، وليس كثيرا من

الإبر ، ثم إن الذي يطلب هذه الإبرة أبوه ، وليس شخصا غريبا ، ثـم إنه يطلب هذه الإبرة ليخيط بها خرقا في ثوبـه ، وهكـذا يـنحط الشـاعر في وصف ابن يوسف من خسة إلى ما هو دونها حتـى يصـل إلى مـلا يمكـن ، ولكن في الناس من هم كذلك وأشد ، ورغـم الغلـو والإغـراق في وصـف بخل هذا الرجل ، لكنني أعددتها من باب التبليـغ ، لوجـود نظائرهـا أمـام العيون . وأعددتها من باب المبالغة المقبولة ، أو التبليغ .

الإغراق

الإغراق أن يكون الوصف ممكنا عقلا ، وغير ممكن عادة ، فهو فـوق المبالغة، ودون الغلو، أو هو الإفراط في وصف الشيء الممكن البعيد وقوعه عـادة. ومـن ذلـك قـول امـرئ القـيس في وصـف أنفـاس صـاحبته **عند النهوض من النوم:**

كـأن المـدام وصـوب الغـمام وريـح الخزامـى ونشرـ القطـر
يعـل بـه بـرد أنيابهـا إذا غـرد الطـائر المسـتحر [1]

فهو هنا يصف طيب رائحـة الفـم وقـت السـحر ، ويشـبهها بطيـب رائحة الخمر المخلوطة بالماء النقي وطيب رائحة الخزامى ،ورائحـة البخـور كل ذلك حال اجتماعه ، **ومن النماذج التي شاعت في هذا الباب قول امـرئ القيس :**

١ـ المدام: الخمر يدام على شربها أو التي أديمت في دنها، وصوب الغمام: مطر السحاب، وريح الخزامى: رائحة هذا النبت الطيب الريح، ونشر القطر بضم القاف والطاء:رائحة العود الذي يتبخر به، يعل به برد أنيابها: يسقى به ثناياها الباردة مرة بعد مرة، الطائر المستحر: المصوت في وقت السحر.

وقـد أغتـدي والطـيرُ في وكناتهـا بمنجـردٍ قيـد الأوابـدِ هيكـلِ

وكقول النابغة:

بأنـك شـمسٌ والملـوكُ كواكـبٌ إذا طلعـتْ لم يبـدُ مـنهم كوكـبُ

وكقول طرفة يصف سيفاً:

أخـي ثقـةٍ لا ينثنـي عـن ضريبـةٍ إذا قـال مهـلاً قـال حـاجزُه قَـدِ

وكقول الحطيئة يمدح ابن شماس:

متـى تأتـهِ تعشُـو إلى ضـوءِ نـارِه تجدْ خيرَ نـارٍ عنـدها خـيرُ موقـدِ

وكقول ابن الرعلاء الغساني يصف سعَة طعنة:

وغمـوسٍ تضـلُّ فيهـا يـد الآ سي ويعيـى طبيبُهَـا بالـدواءِ

وكقول تأبطَ شراً يمدح شمس بن مالك:

ويسبقُ وفدَ الريحِ من حيث ينتحي بمنخـرقٍ مـن شـدِّهِ المتـداركِ

وكقول قيس بن الخطيم:

وإنِّي لدى الحرب العـوان موكَّـلٌ بإقـدامِ نفـسٍ مـا أريـد بقاءهـا

الغـلو

الغلو كالظلم ، فيه تجاوز للحد ، وخروج عن المعهـود حتـى يصـل إلى حد النكارة ،ولذلك قالوا عنـه:هو مـا لا يكـون ممكنـاً عقـلاً ولا عـادةً

ومن أمثلة ذلك قول الشاعر:

وأخفـت أهـل الشِرْـك حتـى إنـه ... لتخافـك النُطَـف التـي لم تخلـق

فـالخوف منـه تجـاوز النـاس إلى النطـف التـي في أرحـام النسـاء أو النطف التي في أصلاب الرجـال ، وهـذا أمـر يمجـه الطبـع ، ويرفضـه العقل فضلا عن الدين ولذلك يدخل تحت الممتنع عقلاً وعادةً، لما فيه مـن كذب ممقوت .

ومن الغلو قول الشاعر:

كفى بجسمي نحولاً أنني رجلٌ لولا ... **مخـــاطبتي إيـــاك لم تـــرني**

يعني أن النحول بلغ مبلغا يجعلك لا تـراني إلا إذا تكلمـت، وقالـت سكينة بنت الحسين رضى الله عنهما وقد أثقلت ابنتها بالدر: ما ألبسـتها إيـاه إلا لتفضحه؛ **يقول الشاعر:**

جاريـــة أطيـــب مـــن طيبهـــا ... والطّيـــب فيـــه المســـك والعنـــبر

ووجههـــا أحســـن مـــن حليهـــا ... والحـــلى فيـــه الـــدرّ والجـــوهر

ويقسم ابن حجة الغلو إلى قسمين : مقبول، وغير مقبول. فالمقبول لا بد أن يقر به الناظم إلى القبول بأداة التقريب، اللهم إلا أن يكون الغلو في مديح النبي - ﷺ - فلا غلو.

ويجب على ناظم الغلو أن يسبكه في قوالب التخيلات الحسنة، التي يدعو العقل إلى قبولها في أول وهلة، **ومنه قول أبي العلاء المعري:**

تكاد قسيه من غير رام ... تمكن في قلوبهم النبالا

تكاد سيوفه من غير سل ... تجد إلى رقابهم انسلالا

وأما الغلو الذي هو غير مقبول فكقول أبي نواس:

فلما شربناها ودب دبيبها ... إلى موضع الأسرار قلت لها قفي

مخافة أن يسطو عليَّ شعاعها ... فيطلع ندماني على سري الخفي

قالوا: إن سطوة شعاع الخمر عليه، بحيث يصير جسمه شفّافًا يظهر لنديمه ما في باطنه لا يمكن عقلًا ولا عادة. ولذلك وضع العلماء ضوابط تحول هذا النوع ، من الرفض إلى القبول ، وقالوا : إن هناك مسوغات لقبول المبالغة التي فيها غلو .

مسوغات قبول الغلو :

١- إدخال بعض الألفاظ التي تقرّب المعنى من العقل مثل: (كاد – حسب – ظن – لو- لولا) وهكذا ومن ذلك :قوله تعالى في شأن شجرةالزيتون :

﴿.....يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ .....﴾ [سورة النور:٣٥]

فلفظة(كاد) أخرجت المعنى من الممنوع إلى المتوقع ، لأن الزيت لا يضيء بدون نار ، فلما دخلت (يكاد) قربت المعنى من الوقوع

ومن ذلك قول الله تعالى:

﴿.....وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة إبراهيم:٤٦]

أي لتكاد تزول منه الجبال.

وقول الشاعر زهير :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم   قوم بأحسابهم أو مجدهم قعدوا

فحرف (لو) سوغ للمعنى وفتح له باب القبول ، لأنها تشير إلى أن ما قاله الشاعر ممتنع ، فلا تبتأس بما قال .

٢- أن يكون الكلام على سبيل الخيال :أي أن المتكلم يضع الكلام في سياق التخييل ، **مثل قول أبي تمام:**

ويهتز مثل السيف لو لم تسله   يدان لسلته ظباه من الغمد

وهذا الكلام في شأن السيف قد يقبل ، لأن ظباة السيف تقطع كل شيء حتى الغمد ، وتشبيه الممدوح بالسيف ظل عالقا في الذهن بأن ماضٍ وأنه قاطع ، وأنه ، وأنه من الصفات التي اعتدنا على رؤية السيف فيها لكن الشاعر جاء بصفة ، هي في السيف خيالية فما بالك بالرجل الذي يشبه السيف ، لذلك قبلت الصفة ، وتم تمريرها ،**وقول نصر الخابز أرزي:**

**ذبــت مـــن الشـــوق فلـــو زج بي		في مقلــــة النـــــائم لم ينتبــــــه**

**وكـــان لي فـــيما مضى ـــ خـــاتم		فـــالآن لـــو شـئت تمنطقــت بــه**

وهذا الكلام لولا الشعر لطرح أرضا ، ولولا المتنبي ، لكـان الطـرح أسرع ، لكنه لما كان شـعرا ، ومـن المتنبـي ، والقصـد إلى الخيـال قبـل هـذا الكلام على مضض ، وإلا فكيف يستقيم في العقل أن صير الذوبان إلى هـذا الحد ؟ أو يصير الخاتم نطاقا للعاشق الذائب ؟

ونحو ذلك قول أبي الطيب :

**عقــدت ســنابكها عليهــا عثــيرا		لــو تبتغــي عنقــا عليــه لأمكــن**

٣- ما أخرج مخرج الهزل ، **ومن ذلك قول الشاعر :**

**أســكر بــالأمس إن عزمــت عــلى		الشرــب غــدًا إنَّ ذا مـــن العـــج**

ولعلك لا تكاد تنتهي من البيت حتى ترتسم على شفاهك بسمة مـن معناه .

حسن التعليل

من فنون الخيال حسن التعليل ، وهو : أن يدعى لوصف علة مناسبة باعتبار لطيف ، غير حقيقي، وهذا التعريف يشمل عدة أمور ، **وهي** :

١ - الادعاء

٢- تعليل مناسب

٣- التلطف في المعنى

٤ - أن يكون التعليل غير حقيقي .

وما دمنا في نطاق الادعاء فنحن في دائرة الخيال، والخيال باب واسع في البلاغة العربية يحتاج إلى إعادة اكتشاف، ومن أحسن ألوانه حسن التعليل ، **وله أربعة أقسام** :

١ – وجود الوصف وغياب العلة ، فيؤتى له بعلة مناسبة :

ومن ذلك قول الشاعر :

سألت الأرض لم كانت مصلى ... ولم جعلت لنا طهرا وطيبا ؟

فقالت غير ناطقة لأني ... حويت لكل إنسان حبيبا

فالشاعر يتحدث عن علة التيمم ، وكون التراب طهورا ، والعلة من وراء ذلك ، وحين توجه الشاعر بالسؤال إلى الأرض كانت إجابتها :

أنها حملت في بطنها لكل إنسان حبيبا ، فكأن التطهر بالتراب إنما هو تطهر بالأحباب ، وإزالة الحدث لا تتم إلا بالالتصاق بالأحبة ، وهذا من ألطف المعاني ، وأدقها ، وجمالها ،وقربها من النفوس ، وقريب من هذا **قول ابن هانئ الأندلسي** :

ولو لم تصافح رجلها صفحة الثرى　　　لما كنت أدري علة للتيمم

فالشاعر يعلل للتيمم أيضا ، وأنه بسبب مشي الحبيب على تراب الأرض ، وكأن مشيها على تراب الأرض حوله من عالم التراب إلى عالم ما يتطهر به ، أو حوله من عالم الأرض إلى عالم السماء ، وهذا من أعجب العجب .

ومن لطيف حسن التعليل في خال تحت الحنك، ما حكاه ابن رشيق: قال: كنت أجالس محمد بن حبيب وكان كثيراً ما يجالسنا غلام ذو خال تحت حنكه، فنظر إلى ابن حبيب يوماً وأشار إلى الخال ففهمت أنه يصنع فيه شيئاً فصنعت أنا بيتين فلما رفع رأسه **قال لي اسمع وأنشدني:**

يقولون : لم من تحت صفحة خده　　　تنزل خال كان منزله الخد ؟

فقلت رأى حسن الجمال فهابه　　　فحط خضوعاً مثل ما يخضع العبد

فقلت له أحسنت ولكن اسمع شعراً:

حبذا الخال كائناً منه بين الخد والجيد رغبة وحذارا

رام تقبيله اختلاساً ولكن خاف من سيف لحظه فتوارى

فأنت ترى سباقا بين شاعرين على التعليل لوجود الخال تحت الحنك والمعهود في الخال أن يكون على الخد . فالأول جعل نزوله على الحنك من قبيل الخضوع والتذلل كخضوع العبد ، والآخر جعل نزوله من الخد إلى الحنك رغبة في تقبيله ،لكنه خاف من رؤيته فتوارى ، وكل ذلك تلطف في المعاني ، **ومنه أيضا قول أبي تمام :**

لا تنكري عَطَلَ الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي

ففقر الكريم لا سبب له إلا أن كل شيء يأتيه يسرع بإنفاقه ، تماما مثل الجبل الأشم إذا جاءه السيل أسرع بإنفاقه على من هو دونه من السفح وما أحسن هذا ، ومن بدائع هذا التعليل **قول ابن نباتة في صفة فرس:**

وأدهم يستمد الليل منه وتطلع بين عينيه الثريا

سرى خلف الصباح يطير مشيا ويطوي خلفه الأفلاك طيا

فلما خاف وَشْك الفوت منه تشبث بالقوائم والمحيا

ولن أكتب لك ما في الصورة من روعة ، ولكني أعيدك إلى نفسك لتستخرج منها ما تقر به عينك ، **وأريدك أن تقف أمام هذه العلامات :**

(البداية باسم الفرس ، واختيار لفظ الأدهم ، وكيف يستمد الليل من الفرس السواد ؟ والتعبير بالفعل " يستمد " والفعل "تطلع ") وغير ذلك كثير ففي كل كلمة وفي كل صورة تعبيرية أسرار لا تنتهي داخل هذه اللوحة الفريدة التي أبدعها ابن نباته .

٢ – وجود الوصف ، ووجود العلة ، لكن الأديب يرى علة أخرى في خياله،ومن ذلك قول المتنبي :

ما به قتل أعاديه ، ولكن يتقي إخلاف ما ترجو الذئاب

فالشاعر هنا يدَّعي أن الممدوح ليس في حاجة إلى إهلاك أعاديه ولا أن يقتل منهم أحدا ، كل ذلك لا يعنيه ، إنه فقط لايريد إخلاف موعدٍ وعده للذئاب فلقد وعدهم أن يطعمهم من لحوم أعدائه ، هكذا فقط .!!!!

ومن البدائع أيضا قول ابن عربي :

أتتني تؤنبني في البكاء فأهلا بها وبتأنيبها

تقول وفي قولها حشمة أتبكي بعين تراني بها ؟!

فقلت : إذا استحسنت غيركم أمرت الدموع بتأنيبها

إنها تؤنبه ؛ لأنه يبكي بالعين التي يراها بها ، وكان تعليله لهذا أعجب من تأنيبها العجيب ، إنه يؤنب عينه بالدموع ، لأنها تجاوزت واستحسنت غيرها . !!! **ومن شعر ابن المعتز :**

قالوا : اشتكت عينه ، فقلت لهم   من كثرة القتل نالها الوصب

حمرتها من دماء من قتلت   والدم في النصل شاهد عجبُ

فحمرة العين لا علاقة لها عند الشاعر برمد ، أو نحوه ، إنها مرتبطة بشدة قتل الأعداء ، لأنها تعودت على رؤية الدماء ، فتماهت مع لون الدم

ومنه قول الشاعر واصفا الجفاف في مصر وعدم نزول المطر :

ما قصرَ الغَيْثُ عن مصرٍ وترْبتها   طبعاً ولكنْ تعدَّاكم من الخَجَلِ

ولا جَرَى النِّيلُ إلاَّ وهو معترفٌ   بسبقكمْ فلذَا يَجْري على مَهْلِ

هو يرى أن المطر لم ينزل على مصر ؛ لأنها أرضُ غارقة في عطايا الممدوح ،والشاعر لا يستطيعُ مجاراتهِ في العطاء .

٣ – عدم وجود الوصف ، مما يتطلب وصفاً ، وعلةً مناسبة له .

ومن ذلك قول مسلم بن الوليد :

يا واشيا حسنت فينا إساءته   نجَّى حذارك إنساني من الغرق

حيث استحسن إساءة الواشي ،وهذا لا يحدث من أحد ،ولكنه يفعله من أجل ألا يبكي فيغرق إنسانُ عينِه في الدموع .

٤ – عدم وجود وصف ، ولا علة ، فالشاعر يدعي وصفا ، ويدعي له علة .

ومن ذلك قول الشاعر :

لـو لم تكـن نيـة الجـوزاء خدمتـه   لمـا رأيـت عليهـا عقـد منتطـق

فالشاعر يدعي أن برج الجوزاء ، وما فيه من دوائر تحـيط بـه كـالحزام مهمته خدمة الممدوح ، وهـذا غـير حقيقـي ، لكـن الشـاعر يتخيـل ذلـك ودليله هذا الحزام الذي يضعه الحمال على وسطه عند رفـع الأشـياء للسـادة ولا شك أن الخيال هنا تجاوز المدى ، لكن لا عجب في سـعة الخيـال مـا دام من الشعراء ، وله علته .

الفصل السادس
فنون المعاريض

التلميح:

التلميح:أن يشير الأديب في أدبه إلى قصة معروفة، أو بيت مشهور أو مثل سائر ، دون أن يصرح بذلك في الكلام ، **ومنه قول أبي تَمَّام**:

لَحِقْنَا بأَخْرَاهُمْ وَقَدْ حَوَّمَ الْهَوَى ... قُلُوباً عَهِدْنَا طَيْرَهَا وَهْيَ وُقَّعُ

فَرُدَّتْ عَلَيْنَا الشَّمْسُ وَاللَّيْلُ رَاغِمٌ ... بِشَمْسٍ لَهُمْ مِنْ جَانِبِ الْخِدْرِ تَطْلُعُ

نَضَا ضَوْؤُهَا صِبْغَ الدُّجُنَّةِ وانْطَوَى ... لِبَهْجَتِهَا ثَوْبُ السَّمَاءِ الْمُجَزَّعُ

فَوَاللهِ مَا أَدْرِي أَأَحْلامُ نَائِمٍ ... أَلَمَّتْ بِنَا أَمْ كَانَ فِي الرّكْبِ يُوشَعُ

فلقد شاع أن يوشع بن نون عليه السلام ، وهو أحد الأنبياء في بني إسرائيل ، وقاتل الجبارين منهم ، لمَّا أدبَرَتِ الشمس يوم الجمعة خاف أن تغيب قبل أن يفرغ منهم، ويدخل يوم السبت فلا يحلّ له قتالهم ، فدعا الله عزَّ وجلَّ ، فردّ له الشمس حتّى فرغ من قتالهم ، فأشار أبو تمام إلى هذه القصة حين تحدث عن غزله ، وظهور الشمس له بعد مغيبها ، وهو يقصد وجه حبيبته ، ويتعجب من طلوع الشمس ليلا ،وخروجها والناس نيام وكأنه يوشع بن نون ،وهذا من لطائف الإشارات.

ويقول الحريري في إحدى مقاماته مشيرا إلى قصيدة النابغة : " بت بليلة نابغية " يقصد أنه قلق من القوارض التي أمسكت به ليلا ، فلم يعرف للنوم طعما ، وقصيدة النابغة مشهورة **ومنها البيت** :

فبــت كــأني ســاورتني ضــئيلة   من الرقش في أنيابهـا السـم نـاقع

ومن نماذج التلميح اللطيفة ما قاله أحد الشعراء في محبوبته التي تسمى " بدر " :

يابــــدر أهلـــــك جــــاروا   وعلمـــــــوك التجـــــــرِّي

وقبحــــوا لــــك وصـــــلي   وحســـــنوا لــــك هجــــري

فليفعلـــــــوا مـــــــا أرادوا   فــــإنهم أهــــــل بــــــدر

فالشاعر هنا يشير إلى قصة غزوة بدر ، حيث قال فـيهم رسـول الله – ﷺ – " لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ماشئتم ولعلك تـذكر قصـة سيدنا حاطب بن أبي بلتعة حين نقل أخبـار النبـي – ﷺ –إلى أهـل مكـة ،أيام الفتح ، وعلم النبي – ﷺ بذلك ، وقال ما حملـك عـلى هـذا ؟ وأراد سيدنا عمر قتله ، فكانت العبارة المشهورة : لعـل الله اطلـع عـلى أهـل بـدر فقال اعملوا ما شئتم .

ومنه قول الله تعالى على لسان سيدنا يعقوب عليه السلام :

﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤﴾ [سورة يوسف:٦٤]

حيث أشار سيدنا يعقوبُ في كلامِه إلى فعلهم بيوسف عليـه السـلام حين قال لهم : ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ١٣﴾ [سورة يوسف:١٣]

فكان ردهم ساعتها: ﴿ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة يوسف:١٤]

واستحضار هذا الموقف حينئذ يقصد منه : هل ستفعلون به كما فعلتم بيوسف ، ثم تعودون لتقولوا : أكله الذئب ؟

التورية

من فنون المعاريض فن التورية ، ويعمد المتكلم إليه حين يريد إخفاء معنى من المعاني داخل اللفظ فلا يدرك إلا بعد مراجعة وتفطن ، وتُعرف التورية في اللغة على أنها الستر والتغطية ، فالعرب تقول : وريت الأمر ، أي سترته ، وأظهرت غيره . **أما في الاصطلاح فتعني :**

إيراد لفظ له ، معنيان ، أحدهما قريب ظاهر غير مقصود وهو المورّى به ، والآخر بعيد خفي مقصود ، وهو المورى عنه .

ومن أشهر النماذج في ذلك قول الشاعر :

وصاحبٍ لما أتاه الغنى تاه ونفس المرء طماحة

وقيل هل أبصرت منه يدا تشكرها قلت : ولا راحة

فعبر بالراحة ، ولها معنيان في هذا السياق ، المعنى الأول القريب : هو باطن اليد ، وهذا غير مقصود ،لأن لفظة (اليد) ذكرت قبله ، فلا يبقى إلا المعنى الثاني ، وهو المعنى البعيد الخفي الذي يقول : إن الراحة بمعنى الطمأنينة ،والهدوء ، **ومنه قول الشاعر:**

خيلٌ صيامٌ، وخيـل غـيرُ صـائمةٍ   تحتَ العجاجِ، وأخرى تعلك اللجما

فلفـظ الصـيام فيـه توريـة ، فمعنـاه القريـب : الصـيام عـن الطعـام والشراب وعدم الأكل ، **لكن المعنى الذي يريده الشاعر** :

أنها واقفة مستعدة للمعركة ، متأهبة لركوب الفارس فوقها ؛ وهنـاك خيل أخرى غير صائمة بمعنى : هانئة منشغلة بالأكـل والشرـب ، وعلـك اللجام ، **وتنقسم التورية ثلاثة أقسام** :

١ – التورية المجردة .

وهي التي لم يصحبها شيء يلائم المعنى القريب المورى به ، **ومن ذلك قول الله تعالى** :

﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ** .....﴾ [سورة الأنعام:٦٠]

فلفظة (جرحتم) لها معنى قريب ، وهو : شق الجلد ، وهذا لا يؤيده السياق ، أما المعنى الذي يرمـي إليـه الكـلام ، فهـو المعنـى البعيـد ، معنـى اقتراف الذنب ، وفعل المعاصي ، ولم يصحب التوريـة شيء يناسـب المعنـى القريب .

وفي كلام النبي – ﷺ – حين سئل ممن أنتم ؟

وكان ذلك في هجرته ، والعيون تترصده ، والكل يبحث عنه ، وهـذا كله مقام يستدعي الإيهام ، ودفع الأنظار ، أقول حين سئل قـال : مـن مـاء فجعل السائل يردد : أمن ماء العراق ؟

ولم يكــن رســول الله – ﷺ – يرمــي إلا إلى إبعــاد العيــون عنــه وفي الوقت نفسه لم يكذب ، **ففي القرآن الكريم** :

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ....﴾ [سورة النور:٤٥]

والإنسان كما أقر القرآن الكريم:

﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾ [سورة الطارق:٦]

فالمعنى القريب في ذهن الرجل : إحدى قبائل العرب ، لأن ذلك هـو الذي يتوافق مع السؤال ، أما المعني البعيد المقصـود مـن رسـول الله ، فهـو الماء الذي نعرفه ، والذي خلق منه كـل شيء حـي ، فـالقرب والبعـد هنـا بالنسبة لسؤال الرجل وإجابة النبي – ﷺ – وكـذلك حـين سـئل سـيدنا أبو بكر ، من هذا ؟

فكان جوابه : هادٍ يهدينى الطريق .

٢ – التورية المرشحة :

والترشيح للتورية يعني : أن يذكر معها مـا يناسـب المعنـى القريـب لأنه يزيدها خفاء ، ويكثر من الستائر التي يريد المتكلم وضعها على ألفاظـه وهذا تقوية للمعنى الذي من أجله جعلت التورية ، فحين يذكر ما يناسـب المورَّى به ، تكون التورية مرشحة ، **ومن ذلك قول الشاعر** :

فلـما نـأت عنـا العشـيرة كلهـا ... أنخنا فحالفنا السيوف على الدهر

فـما أسـلمتنا عنـد يـوم كريهـة ... ولا نحن أغضينا الجفـون عـلى وَتَـر

فلفظة الجفون ، تأخذك سريعا إلى جفون العين ، لكن الشاعر لا يريد هذا ، إنما يريد غطاء السيوف ، وأستارها ، وهذا المعنى ذكر معه ما يناسب العيون وأجفانها ، وهو لفظة : " **أغضينا** " فهذا اللفظ يأخذك إلى عيون الناس ، وجفونهم ، ويبعدك عن مراد الشاعر مما يقوي التورية ويزيد في خفائها المحبوب ، **ومنه قول الشاعر سراج الدين الوراقي** :

أصون أديمَ وجهي عن أناس لقاء الموت عندهم الأديب

ورب الشعر عندهم بغيض ولو وافى به لهم حبيب

يريد الشاعر أنه يترفع عن سؤال بعض الناس ممن يكرهون الشعر والشعراء ، ويعتبرون لقاء الأدباء كأنه لقاء الموت ، فالشاعر قدم الخبر وأخّر المبتدأ ، وأراد " الأديب لقاء الموت " .

وفي البيت الثاني أراد أنهم يبغضون صاحب الشعر ،حتى وإن كان من يقوله لهم حبيب ،ولكن : من المقصود بالحبيب ؟ هل هو المحبوب ؟ هذا هو المعنى القريب المتبادر إلى الذهن ، لكن الشاعر لم يرد هذا ، إنما أراد (حبيب بن أوس الطائي) ، المعروف بأبي تمام ، وهو من هو ، فهم لا يودون سماع الشعراء ولو كان الذي يقوله ، أبا تمام .

والتورية هنا مرشحة لأن الغموض فيها زائد عن الحد حيث أخذ الشاعر المستمعين إلى المعنى القريب ، وربطهم به حين ذكر لفظة " بغيض "

فارتبطت الأذهان بالحب والبغض ، وابتعدت عن حبيب بـن أوس ، وزاد البعد بشهرته ، حيث يشتهر حبيب بن أوس بأنه أبـو تمـام . كـل هـذا بَالَغ في خفاء التورية ، وزاد من قيمتها ، **ومن نماذج هذه التورية أيضـا قـول أحدهم متغزلا :**

يــا عـــازلي فيـــه قـــل لي إذا بـــدا كيـــف أســـلو

يمـــــر بي كـــــل وقـــــت وكلـــــما مـــــر يحلـــــو

فلفظة " مرّ " إما أن تكون من المرور ، أو من المرارة ، والشـاعر ذكـر ما يناسب المعنيين ، فذكر جملة " يمر بي كل وقـت " وهـي تناسـب المـرور وذكر جملة " يحلو " وهي تناسب المرارة ، لكن إلصاق اللفظين: " مـر يحلـو "ربطت الأذهان سريعا بالمرارة ،وخطفت الدلالة من عالم المـرور ، إلى عـالم المرارة ، فأحس القـاريء بشء في لسـانه ، عنـد سـماع الكلمتـين ، مـع أن الشاعر يرمي إلى العبور والمرور ، وهذه من لطائف التورية .

٣ - التورية المبيَّنة :

وهي التورية التي ذكر معها ما يلائم المعنى البعيـد " **المـورى عنـه** " وحين تذكر شـيئا يناسـب المعنـى المقصـود فأنـت تكـاد تكشـف أوراقـك للسامع ، وتدفعه إلى فهم ما تريـد دون تفكـير ، وهـذا الأمـر لـه سـياقات تناسبه وإن كان في المجمل لا يناسب أسـلوب التوريـة ، **ومـن ذلـك قـول الشاعر:**

أمـا والله لـولا خـوفُ سـخطك   لهـان عـلي مـا ألقـى برهطـك

ملكـتَ الخـافقين فتهـت عُجبـا   وليس هما سـوى قلبـي وقرطـك

فلفظة " **الخافقين** " تعنى مباشرة : المشرق والمغرب ، ولكـن الشـاعر أراد بهما : القلب والقرط ، ونـص عـلى ذلـك في آخـر البيتـين ، ولـو أنـك سألت : وهل القلب والقرط يحملان معنى الخافقين ؟

والإجابة : نعم ، لأن كلا منهما لا يثبت بل دائم الحركة والاضـطراب ومع روعة المراد إلا أن الشاعر لما نـص عليـه أزال بهـاءه ، ودفـع في اتجـاه الصراحة التي لا تستعذب في عالم البلاغة .

فالتورية تعلو عند الترشيح ، ثم تقل مـع التجريـد ، ثـم تكـاد تـزول مع التبيين .

التعريض

ظـروف الحيـاة تلجـئ كثـيرًا مـن المتكلمـين إلى التعـريض نيابـة عن التصريح ، ومن أشهر ما تعلمنـاه في الصـغر في سـيرة رسـول الله ﷺ حين أقبل مردفا أبا بكر عام الهجرة.

فقيل لأبي بكر: من هذا قدّامك ؟ قال: رجل يهـديني السـبيل، يريـد أنه يهديه إلى الحق ، والناس فهموا أنـه يدلـه عـلى الطريـق ، وكـذلك فعـل رسول الله ﷺ حين سأله رجل في هجرته ممّن أنت؟ فقال: من ماء، وكـذا ما حكى الله من قول إبراهيم عليه السلام حين قال : إني سقيم، **وقوله:**

فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ، وما روي عنه أنه قال عـن امرأتـه هـذه أختي .... إلخ .

كل ذلك يدخل معنا في هـذا اللـون البـديعي الأصـيل ، أعنـي لـون المعاريض ، فليست التعريض من باب الكذب ، بل هي وسـيلة تفـتح لـك الباب لتقول الصدق ، الذي تراه ، وتنجيك مـن أذى النـاس ، وتعصـمك من الكذب ، فكل ما في المعاريض من الصدق المحض .ولـذلك قـال عمـر رضي الله عنه : في المعاريض مندوحة عن الكذب.

وكتب اللغة تقول : إن التعـريض عـدول عـن التصرـيح إلى الكنايـة والإشـارة ، ولا يشـترط فيهـا لـزوم ذهنـي ، مثـل الكنايـة ولا مصـاحبةٌ ولا مُلابسة ما بين الكلام وما يُرادُ الدّلالة به عليه، إنّما هي محفوفـة بقـرائن الحال، فقرائن الحال هي الدالة على المراد ، **فالتعريض**:كما عرفوه : أن تقول كلاماً لا تُصرّح فيه بمرادكَ منه، لكنّه قد يشير إليه إشـارة خفيّـةً، ويُمْكِنُـك أن تتهرَّبَ من التزام ما أشرتَ به إليه إذا صِرْت مُحْرَجاً.

واللفظ في اللغة: مأخوذ من العرض ، وعـرض الكـلام ، وأَعْراضُـه ومَعَارِضُهُ ومعاريضُه: كل كلامٌ غير ظاهر الدلالة عـلى المـراد، والتعـريض في خطبــة المــرأة: أنْ يــتكلّم الخاطــب بكــلام يشــبه خطبتهــا دون تصريح.ولذلك يقولون في المثل : إيّاكِ أعني، واسْمَعِي يا جارة .

ولـيس التعـريض مقصـورا عـلى الكـلام فقـد يكـون في الأفعـال والأحوال ، ومن ذلك أن أصحاب الرسول ﷺ في بعض الغـزوات كـانو يأتون ، وقد ربط كلٌّ منهم على بطنه حجراً، تعريضاً بأن الجوع قد بلـغ منـه مبلغاً شديداً، فيكشف الرسولُ لهم عن بطنه، فيرون أنّه قد ربط حجرين.

لكنه في الكلام فن من فنون البلاغة العاليـة ،وضرب مـن الفصـاحة التي يعتمد فيها البليغ على قرائن الحال ، ولقد جاء هذا الأسـلوب الكـريم في القرآن العظيم ، **ومثاله قول الله عزّ وجلّ في سورة الزمر خطاباً لرسوله:**

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [سورة الزُّمَر:٦٥]

والرسول ﷺ معصوم ، لكنه خوطب بهذا الخطـاب تعريضـا لكـل إنسان آمن ثم أشرك ،فإن عمله محبط مهما كان .

ومن أمثلته أيضا في القرآن الكريم ختم الآيات بمثل قوله عزّ وجلّ: {إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلباب - وليَذَّكَّر أُولـوا الأَلْبَـاب - وَذِكْـرَى لأُولِي الأَلْبَاب - كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ - إِنَّ فِي ذَلِـكَ لآيـاتٍ لِقَـوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ - قَدْ فَصَّلْنَا الآياتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ} .

فهذا كله تعريض بالكافرين الذين لا ينتفعون من آيات الله في كونه.

ومن أمثلته أيضا قوله تعالى :

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

[سورة التوبة:٨١]

فقوله :{قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً} تعريض بأَنَّ هؤلاء المنافقين من أهل جهَنَّمَ .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ .... ﴾ [سورة القصص:٢٣-٢٥]

جاء قوله: ﴿ ....رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾

[سورة القصص:٢٤]

تعريضا بحاجته إلى الزواج، لذلك جاء في النصّ بعد حكاية دُعائه **قول الله تعالى:** {فَجَآءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى استحيآء} فدلّت الفاء العاطفة على الترتيب مع التعقيب، **لتبرهن على أن قوله:** (رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير) كان تعريضا برغبته في الزواج ، إشعارا بأنّ الله استجاب له دُعاءه الذي دَعا به تعريضاً لاَ تصريحاً.

إن التعريض يساعد المعاني على البروز بألفاظ لا تعافها الأذواق ولا تمجها الآذان ، وتحمل عنك من المعاني ما تراه ثقيلا إذا صرحت به ومن ذلك قَولِ عَمْرو بن مَعْدِ يكرب.

(فَلَوْ أَنَّ قَوْمي أَنْطَقَتنْـي رِمَـاحُهُمْ نَطَقْتُ، ولكنَّ الرِّمَـاحَ أَجَـرَّتِ!)

وهذا من أفضل ما قيل في هجاء القوم ، لأنهم قصروا في المنازلة والقتال ، فقصرت في المدح والمقال ،ولو أنهم طعنوا برماحهم لطعنت بكلامي ، ولمدحتهم بما يستحقون ، ولكنهم خابوا وخسروا ، وقصروا فقصرت ، وشققت لساني وسكتُ

التوجيه

من فنون المعاريض فن التوجيه، وهو مصدر الفعل : توجه وعرفه العلماء بأنه : (إيراد الكلام محتملا لوجهين مختلفين)

أو أن يحتمل الكلام وجهين من المعنى احتمالًا مطلقًا، من غير تقييد بمدح أو غيره ، ففي الكلام على هذا إبهام متعمد ، وهذا الإبهام المتعمد يزيله السياق والمقام ، لأنهم يستشهدون عليه ، **بقول الشاعر في الحسن ابن سهل، عندما زوج ابنته " بوران " بالخليفة:**

بـارك الله للحسـن ولبـوران في الختـن

يـا إمـام الهـدى ظفـرت ولكـن ببنـت مـن ؟!

فهناك إبهام في هذا السؤال ، (ظفرت ولكن ببنت من ؟)

هل يريد بنت من في الرفعة وعلو الشأن ؟ أم في الخسة والندالة والضعة ؟ ومن شواهده أيضا أن خياطا اسمه زيد ، كان أعور العين وخاط لرجل قباء ، **فقال فيه** :

خاط لي زيد قباء ليت عينيه سواء

قل لمن يسمع هذا أمديح أم هجاء ؟

فجملة (ليت عينيه سواء) قد يقصد بها السلامة، وقد يقصد بها العور، وكلا المعنيين صحيح، ولا يعرف ماذا يقصد ، ولذلك كله يرى بعض أهل العلم أن يسمى هذا اللون (الإبهام) .

وأقول : إن السياق والمقام هما الحكم في مثل هذه النماذج ، ففي بيتي الحسن بن سهل ، يستطيع القارئ أن يفهم المراد من الاستفهام إن علم منزلة الفتاة ومكانة أبيها من الصلاح ، كما أن بيتي الخياط ، من الممكن فهم المراد إن نظرنا إلى حالة القباء ، فإن كانت حسنة جيدة الخياطة فالمعنى على أنه يريد الاستواء في السلامة والصحة ، وإن كانت القباء سيئة الصنعة رديئة الخياطة كان الشعر دعاء عليه بأن تكون كلتا عينيه عوراء، وهكذا .

وتسميته بالتوجيه أليق عندي، ولا يصح إطلاق اسم الإبهام عليه لأن الكلام لا يفهم من غير الرجوع إلى السياق والمقام.

ولا ينبغي أن أسكت هنا عن الفرق بين التوجيه والتورية، لأن التورية تكون باللفظة الواحدة، والتوجيه لا يصح إلا بعدة ألفاظ متلائمة

قال الشيخ علاء الدين، من قصيدة مطولة:

أثخنت عينها الجراح ولا إثم عليها لأنها نعساء

زاد في عشقها جنوني فقالوا ما بهذا فقلت بي سوداء

ومن طرائف التوجيه ما ذكره ابن حجة أنه اجتمع جماعة من أصحابه لم يخرج اسم واحد منهم عن عليّ . **فقال أحدهم :**

لقد سمح الزمان لنا بيوم غدا فيه السمي مع السمي

تجمعنا كأنا ضراب خيط عليٌّ في عليٍّ في عليّ

للتوجيه نصيب في مصطلحات العلوم العربية وبخاصة علم النحو

ومن ذلك قول أحدهم :

أضيف الدجى معنى إلى لون شعره فطال ولولا ذاك ما خص بالجر

وحاجبه نون الوقاية ما وقت على شرطها فعل الجفون من الكسر

ومنه قول ثان:

إغراء لحظك مالي منه تحذير ولا لتعريف وجدي فيك تنكير

يا نصب عيني غرامي كيف أجزمه والقد مرتفع والشعر مجرور

وقول آخر:

يـــا ســـاكنًا قلبـــي المعنـــى ولـــيس فيـــه ســـواك ثـــاني

لأي معنـــى كسرـــت قلبـــي ومـــا التقـــى فيـــه ســـاكنان

وملخص الأمر أن التوجيه عند أهل التخصص هو: أن يحتمل الكلام وجهين من المعنـى، والفـرق بـين التوريـة والتوجيـه، أن التوريـة باللفظـة الواحدة والتوجيه لا يصح إلا بعدة ألفاظ.

الـرجوع

لا شك أن كل فن من فنون البديع يقـف مـن ورائـه غـرض بلاغـي ونكتة لولاها لما رأيت لهذا الفن وجودا بين أقرانه ، وكلما لطُفت هذه النكتة وحسُن هذا الغرض كان مدار هذا الفن عظيما عند الجميـع ، ومـن الفنـون التي ظُلمت في هذا الميدان فن (الرجوع) ، **فهو فنّ يعني** :

العود على الكلام السابق بنقضه و إبطاله لنكتة .

بمعنى أن المتكلم يدخل في المعنى ثم ينقضه ، أو يعود فيه ، أو يرجـع عنه ، وكل ذلك له هدف وغاية ، وظَنَّ الناسُ أن هذا كسبقِ اللسان بالخطـأ أو قول الكلام ثم نفيـه لأن المـتكلم لم يقصـد مـا قالـه أولا ، وهـذا فاسـد ولا يدخل معنا في هذا الباب ،فليس المراد أن المتكلم أخطأ ، أو غلط ثم

عاد ليصحح ما أخطأ فيه ، لأن الأمر لو كان كذلك لما دخل في عالم البلاغة ولما عدّ فنًا من فنون البديع ، بل إن الرجوع لون من الإيهام ، وضرب المخاتلة ، ونوع من إثارة المخاطب ، بتقديم كلام له يُمهَّد به لكلام آخر واستدراج له حتى يذكر أولا المعنى ويطمئن إليه ثم يرى المتكلم يعود عنه ويهدم ما بناه أولا ، وهذا كله بعيد كل البعد عن مفهوم الخطأ الذي سبق اللسان إليه ، فالرجوع شيء متعمد في الكلام ، ولفظ مقصود في بداية القول ؛ ليبنى عليه قول آخر ، وإن كان القول الآخر نقضا للقول الأول فالمتكلم هنا يوهمك أنه أخطأ ، وهو لم يخطئ ، لأن معناه الثاني لن يتأكد إلا بذكر المعنى الأول ، وتحققه لن يكون أشد وأبلغ إلا بذكر المعنى الأول

واستمع إلى قول زهير:

قف بالديار التي لم تعفها القدم   بلى وغيرها الأرواح والديم

وتأمل هذا الوقوف الذي بدأ بأن الديار مازالت شاخصة ، ولم يؤثر فيها شيء ، وأن الزمان لم ينل منها ، ثم يعود على هذا المعنى فيهدمه ويقول : بلى ، يعني أن الديار عفت وزالت ، وغيرها الأرواح والديم فبدأ أولا بوجود الديار التي تتطلب الوقوف ، لأنها مازالت شاخصة ثم بنى على هذا الوجود معنى مناقضًا له وهو أن الديار لم يبق منها شيء ولا أظنك تنسى أن الديار هنا هي رمز حبيبته ، ووجودها هو وجود للحبيبة ، والوقوف على الديار هو وقوف مع الحبيبة ، والحديث مع الديار هو حديث مع الحبيبة ، ثم إنك تعلم أن الشاعر يذكر كل ذلك ويريد

بالديار والحبيبة الحديث عن حبه ، وشوقه ووجده ، وأن وجود الديار شاخصة أمامه يعني أن الحب مازال قائما في نفسه ، يشغل من قلبه وكيانه حيزا كبيرا ، وكلما كانت الديار شاخصة قائمة يرعى حولها العوذ المطافيل كان حبه مشبوبا ، والشاعر بعد أن ذكر وجود الديار ورغبته في الوقوف بها عاد وتألم لفراق حبيبته وما كان لها أن تفارقة ، فذكر أن الحب قد زال وأن الهيام قد انقطع ، وأن ولعه بحبيبته قد انطفأ ، وعبر عن كل ذلك بأن الديار قد عفت ودرست ، وتغيرت بفعل الرياح والديم ، وهو يقصد بالرياح والديم الآلام التي تعاورته بفراقها ، وتتابع الأحداث التي أنسته ذكرياته معها ، فالوقوف الذي أمرك به في بداية البيت طيف خاطر فقط عنَّ له فجأة ، لكن لا حقيقة له ، وهكذا تجد الشاعر يصور لك مدى ما يعانيه من هذا الحب الذي كان صرحا من خيال فهوى !!!! **ومنه قول الشاعر :**

قليل منك يكفيني ولكن قليلك لا يقال له قليل

وهذا من أبدع شواهد الرجوع ، لأن الشاعر حين ذكر أن القليل من عطاياه يكفي ، عاد وقال إنه لا ينبغي أن يقال لأي عطاء منه إنه قليل فكل عطاياه كثير ، وإن قلت في نظر الآخذ ، وعجيب أمر الشاعر حين وجه الخطاب إلى نفسه بأسلوب تجريدي بديع ، وكأنه يلوم من يقول إن عطاءك قليل ، فلا يجوز أن يقال لفظ القليل لما يعطيه كثر أم قل

وفي صورة بديعية أخرى **يقول المتنبي :**

دمعي جرى فقضى في الربـع مـا وجبـا لأهلـه وشـفى . أنـى ولا قربـا

وهذا البيت فيه من الفن ما فيه ، بداية مـن إسـناد الجريـان إلى الـدمع وكأنه نقل إليه زمام قضاء الواجب ، فقام الدمع بالواجب المكلف بت خير قيـام ، حيـث ذهـب إلى الربـع ، وقضىـ مـا ينبغـي عليـه مـن حقـوق وهـذه البسـاطة في الأداء تضـفي عـلى الصـورة رونقـا وبهـاء لا تـراه إلا في شاعر الأمة العربية والإسلامية أبي الطيب المتنبي ، المهـم أن الـدمع قـام بالواجب ، وجرى في الربع ، وترتب على ذلك أن أهل الربع حمدوا له هـذا الأداء ، وشكروا له هذا الصنيع ، ثـم انتبـه الشـاعر إلى أن مـا فعلـه الـدمع لم يكن يكفي ، وأن أهل الربع حين شكروا وحمدوا إنما فعلـوا ذلـك بسـبب كرمهم وحسن أخلاقهم ، ولا يعني ذلك أن ما فعله الـدمع يكفـي ، فقـال (أنَّى) وهي اسم استفهام بمعنى (كيف) أي ككيف يكون جريان الـدمع في الربع قضاء لما يجب ، إن جريان الـدمع في الربـع لا يكفـي ، ولا يقـارب الواجب ، بل كان لا بد من جريان الـدماء ، فجريـان الـدمع وحـده قليـل بل أقل القليل .

الفصل السابع
فنون التناص

الاقتباس

ارتباط النصوص بالقرآن الكريم ، والحديث الشريف مظهر قديم عَرَفَهُ أهل اللغة منذ العهد الأول ، حيث كان الخطباء ، والحكماء والشعراء يرصعون إبداعاتهم بآيات القرآن الكريم ، وعبارات من كلام النبي الكريم ﷺ – ولا يعد هذا من قبيل الاقتباس حتى تجد صنعة ومهارة تُنسيك أن هناك كلامين ، وتقنعك بأن الكلام كلام واحد ، فإذا رأيت المتكلم ينص على أخذه ، فلا اقتباس ساعتها ، واسمع إلى ابن نباته **وهو يقول :**

(أيها الغفلة المطرقون ، أما أنتم بهذا الحديث مصدقون ؟ ما لكم لا تشفقون ؟ فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون) فهذه الخطبة ترى فيها الخطيب وهو يأخذ من سورة الذاريات هيئة كثير من آياتها ويملأها بعباراته ، وهذا اقتباس لهيئة آيات القرآن ،**ومن ذلك قول الشاعر:**

إن كنت أزمعت على هجرنا ... من غير ما جرم فصبر جميل

وإن تبدَلت بنا غيرنا ... فحسبنا الله ونعم الوكيل

ولعلك لاحظت اقتباسه من القرآن الكريم في قول الله تعالى :

﴿ .... فَصَبْرٌ جَمِيلٌ .... ﴾ [سورة يوسف:١٨]

وقوله:

﴿....وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ [سورة آل عمران:١٧٣]

وفي قول آخر:

ستبقى لها في مضمر القلب والحشا   سريرة حب يوم تبلى السرائر

حيث اقتبس قوله سبحانه:

﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ [سورة الطارق:٩]

ليعبر به عن تمكن حبها في قلبة ، وبقاء هذا الحب ، وتمسكه هو به فلا يبرح حتى تُعرض القلوب على رب العلمين .

ويقول السيوطي :

أيها السائل قوما   ما لهم في الخير مذهب

اترك الناس جميعا   وإلى ربك فارغب

وهكذا ترى آيات القرآن حاضرة في قلوب الأدباء ، والمبدعين فلما فاضت بها القلوب اقتبستها الألسنة ، وأدمجتها في لغتها لتنير لهم آدابهم

ومن الاقتباس من حديث النبي ﷺ قول أحدهم :

لا تعاد الناس في أوطانهم   قلما يرى غريب في الوطن

وإذا ما شئت عيشا بينهم   فخالق الناس بخلق حسن

فالشاعر هنا يوصي كل غريب بأن لا يعادي أهل الديار ، وألا يكن خصما لأحدهم ، لأن من طبائع النفوس أن تنتصر لأبناء الوطن من الغرباء

بحق أو بباطل ، إلا عند من يتقي الله ، حيث ينتصرون للحق فقط ، ومن هنا يوصي الشاعر كل غريب بأن يخالق الناس الذين يحيا وسطهم بخلق حسن ، وهذا مستنبط من حديث النبي – ﷺ :

" اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن . "(١)

والاقتباس نوعان :

الأول: مالا ينقل فيه الجزء المقتبس عن معناه الأصلي ، كما سبق .

والآخر: ما ينقل فيه الجزء المقتبس إلى معنى آخر ، وذلك مثل قول ابن الرومي وهو يهجو :

(لئن أخطأْتُ في مدحِي   فما أخطأَتَ في منعي)

(لقد أَنزلتُ حاجاتي   بوادٍ غير ذي زرعِ)

فالشاعر هنا حول المعنى المقتبس من كلام سيدنا إبراهيم عليه السلام ، حين أتى بأهله عند بيت الله الحرام ، حوله إلى معنى آخر مختلف تماما ، لأنه جعل رغباته قد نزلت عند ممدوح بخيل لا يعرف للشعر قدرا ولا للشعراء حقا، ومن ذلك أيضا قول الشاعر :

قد كان ما خفت أن يكونا   إنا إلى الله راجعونا

١ - مسند الإمام أحمد بن حنبل حديث رقم ٢١٣٥٤ ج ٣٥ / ص ٢٣٤ تحقيق الأرناؤوط مؤسسة الرسالة بيروت.

حيث اقتبسه من قول الله تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ ﴾ [سورة البقرة:١٥٦]

وقول آخر :

أعوان أهل الظلم قد زلزلوا   بيأسهم قلب الكئيب الكليم

يا أيها الناس اتقوا ربكم   زلزلة الساعة شيء عظيم

ولعلك تلحظ هنا تغييرًا في العبارة المقتبسة ، ولكنها لا تخرجها من عالم الاقتباس ، لأن للشعر ضروراته التي تلجئ الشاعر إلى بعض التغيير في اللفظ ، **وعلى الجملة فالاقتباس من حيث قبوله أو رفضه أنواع :**

١ – قسم يكون في الخطب والمواعظ ، وهذا كله مقبول ، وحسن .

٢ – قسم يكون في الرسائل والقصص ، والشعر المنضبط ، وهذا لا بأس به .

٣ – قسم يكون في الهزل والمجون شعرا كان أو نثرا ، وهذا لا يقبل ولا يضفي على النفوس إلا امتعاضا .

التضمين

يختص التضمين بالأخذ من الشعر ، فحين يأخذ شاعر من شاعر آخر بعضا من معانيه وألفاظه يعد هذا من التضمين ، شريطة أن ينبه على أن هـذا المأخوذ من شعر غيره ، وبخاصة إذا لم يكن هذا الشعر المأخوذ مشهورا بـين الناس ، فإن كان الشعر مشهورا فلا حرج من التنصـيص عـلى أخـذه لأنـه كالمعلوم للجميع ، وقد يكون الشعر المأخوذ بيتا كاملا ،ويطلق عـلى هـذا : الاستعانة ، **ومثال ذلك قول الشاعر :**

إذا ضاق صـدري وخفـت العـدا　　تمثلـــت بيتـــا بحـــالي يليـــق

فبـــالله أبلـــغ مـــا أرتجـــي　　وبـالله أدفـــع مـالا أطيـــق

لاحظ قوله (تمثلت بيتـا) ، حيـث يـنص هنـا عـلى أنـه اسـتعار بيتـا من الشعر يليق بمقامه وحالته ، وقد يكون الشعر المضمن جـزءا مـن بيـت يودعـه الشـاعر بيتـه ، ويرفـو بـه معنـاه ، ولـذلك يطلـق عليـه : الإيـداع أو الرفو ، والرفـو بمعنـى الصـلة ، التـي تصـل بهـا شـيئا قصـيرا فتطيلـه **ومن ذلك قول أحدهم :**

عـلى أننـي سأنشـد عنـد بيعـي　　أضـــاعوني وأي فتـــى أضـــاعوا

وهذا مأخوذ من قول الشاعر :

أضـــاعوني وأي فتـــى أضـــاعوا ... ليــــوم كريهـــة وســـداد ثغـــر

وليس الأخذ عيبا يعيبه النقاد ، فالأدب بنـاء يضـع فيـه لاحـق عـلى سابق ، ويضيف فيه آخر إلى أول ، ويزداد الأخذ حـلاوة إذا رأيـت للآخـذ بصمة ، ونكتة زائدة على المأخوذ ، **ومن ذلك قول الشاعر :**

ومـا السَّـيِّدُ الجبَّـارُ حـينَ يريـدُنا ... بكيـــدٍ عـــلى أرماحِنــا بمحـــرَّمِ

وقول ثاني :

نُعاطِي الملوكَ الحقَّ ما قصدوا بنـا ... فلـــيسَ علينـــا قـــتلُهم بمحـــرَّمِ

وقول ثالث :

بِـك صـارَ عنـترُ صـادقاً في قولـه ... ليس الكـريمُ عـلى القَنـا بمحـرَّمِ

وكل ذلك مأخوذ من قول عنترة :

فشـككْتُ بـالرّمحِ الأصـمِّ ثيابَـهُ ... ليسَ الكـريم عـلى القَنـا بمحـرّمِ

العــــقـــــد

وهو نظـم النثـر ، وتحويلـه مـن عـالم الأدب النثـري إلى عـالم الأدب الشعري ،وتغيير ما يلزم في الجملـة النثريـة ،حتـى توافـق الـنظم الشـعري **ومن نماذج ذلك قول الشاعر :**

أنلنـي بالـذي استقرضـت حظـا وأشــهد معشـرـا قــد شــاهدوه

فـــإن الله خــــلاق البرايــــا عنــت لجــلال هيبتــه الوجــوه

يقـــول: إذا تــــداينتم بــــدين إلى أجـــل مســـمى فـــاكتبوه

لاحظ قول الشـاعر : فـإن الله ... يقـول ، وكيـف أدمـج عبـارة : إذا تداينتم بدين .... إلخ في الأبيات الشعرية حتى صارت جزءا منها ، وتلـك قدرة شعرية كبيرة .

ومن عقد الحديث؛ ما أسند إلى الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه قال :

عمدة الخير عندنا كلمات أربع : قالهن خير البرية

اتق الشبهات، وازهد، ودع ما ليس يعنيك، وأعملَنْ بنية

فهذان البيتان عقد لعدة أحاديث ومنها : قولـه عليه السلام :" الحـلال بـين والحرام بين، **وبينهما أمور مشتبهات وقوله :**

"ازهد في الدنيا يحبك الله"

وقوله عليه السلام : "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"

وقوله عليه السلام : "إنما الأعمال بالنيات)([1]).

وتحويل النص النثري إلى نص شعري قدرة فائقة يتمتع بها من يستطيع صوغ المعاني ، وتأطير الجمل داخل عالم الشعر الذي يحتاج إلى نظم ووزن خاص ،**ومن العقد أيضا ما جاء عن ابن حجر أنه قال:**

من خير ما يتخذ الإنسان في	**دنياه كيما يستقيم دينه**
قلبا شكورا ،ولسانا ذاكرا	**وزوجة صالحة تعينه**

فهذا عقد لقول النبي صلى الله عليه وسلم :

(" ليتخذ أحدكم قلبا شاكرا ،ولسانا ذاكرا ،وزوجة صالحة تعينه على أمر الآخرة) ، **ومنه قول أبي العتاهية :**

ما بال من أوله نطفة	**وجِيفة آخره يفخر**

حيث عقد قول سيدنا علي رضي الله عنه : "وما لابن آدم والفخر؛ وإنما أوله نطفة، وآخره جيفة!".

وقوله أيضا:

كفى حزنا بدفنك ، ثم أني	**نفضت تراب قبرك عن يديّا**
وكانت في حياتك لي عظات	**وأنت اليوم أوعظ منك حيا**

١- سنن أبي داوود ٣/ ٢٤٧ والمستدرك ١/ ٧٨٧٣ وسنن الترمذي رقم ٢٣١٧ ج٤ / ٥٥٨ وصحيح البخاري ١/ ١ .

وهذان البيتان قيلا في موت الإسكندر ، ويشير المعنى إلى أنه كان متحدثا لبقا في حياته ، فلما مات صار حديثه أبلغ ، وعظته أوقع ، **كما يقال** :

كفى بالموت واعظا وقد صاغ أحد الحكماء ذلك فقال :

"كان الـمَلِكُ أمس أنطقَ منه اليوم، وهو اليوم أوعظُ منه أمس".

وحكي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال : لو بغى جبل على جبل لدك الباغي " **فجاء شاعر وصاغه شعرا فقال :**

يا صاحب البغي إن البغي مصرعة فـارْبَعْ فخير فعال المرء أعدله

فلو بغى جبل يوما على جبل لاندكّ منه أعاليه وأسفله

وقالت السيدة عائشة - رضي الله عنها - حين أمرت بثياب لها أن ترقع :

" لا جديد لمن لا خَلَق له " فجاء شاعر وصاغ ذلك شعرا ، وعقده في عالم الشعر **فقال :**

البس جديدك إني لابس خَلَقي ولا جديد لمن لا يلبس الخَلَقا

الحَــــلُّ

الحل : ضرب مـن صـياغة الشـعر عـلى طريـق النثـر ، فهـو عكـس العقـد أو هو : نثر النظم ، **ويشترط لقبوله شرطان** :

الأول : جودة التركيب ،حتى لا يقل عن الشعر فيضيع المعنى معه ،وذلـك لأن صياغة الشعر ،وسبكه أعلى في لغة العرب.

الآخر : أن يأتي في موقع حسن ، بحيث لا يـُحدِث قلقـا ، أو تنـافرا داخـل النص ، **ومن ذلك قول نصيب** :

فعاجوا فأثنوا بالذي أنـتَ أهلـه ولو سكتوا أثنتْ عليكَ الحقائـب

حيث أخذه بعضهم فقال : لو أمسك لساني عن شكرك لنطق عليَّ أثرُ برك.

وقال آخر : لـو جحـدتُكَ إحسـانك لأكـذبتني آثـارُه ، ونمَّـت عـليَّ شواهدُه ، فشهادة الأموال أعدل مـن شـهادات الرجـال، وقـال أحمـد بـن صبيح فيه : في شكر ما تقدم من إحسانك شاغل عما تقدم من امتنانك.

ومنه قول بعض الكتاب يصف مجرما خارجا على القانون :

(فإنه لما قبحت فعلاته ، وحنظلت نخلاته ، لم يزل سوء الظن يقتـاده ويصدق توهمه الذي يعتاده) ، **فهذا حل لبيت المتنبي** :

إذا ساء فعل المرء سـاءت ظنونـه وصـدق مـا يعتـاده مـن تـوهم

ويصف أحدهم السيف فيقول : (أورثه عشق الرقاب نحولا ، فبكى

والدمع مطر تزيد به الخدود محولا) ، **وهذا نثر أدبي لقول المتنبي :**

في الخد إن عزم الخليط رحيلا　　مطر تزيد به الخدود محولا

وفي نموذج آخر ، يقول أحد الزائرين للمرضى محفزا غيره على الزيارة :(العيادة سنة مأجورة ، ومكرمة مأثورة ، ومع هذا فنحن المرضى ونحن العواد ، وكل وداد لا يدوم على ذلك فليس بوداد)وقد أخذه **من قول الشاعر :**

إذا مرضنا أتيناكم نعودكم　　وتذنبون فنأتيكم ونعتذر

ولعلك تلحظ الفارق بين الصياغة الشعرية ، والصياغة النثرية في جميع الأمثلة ، حيث تستولي الصياغة الشعرية على قلبك وعقلك وكأنها سحر للمعنى ، وبوتقة للإبداع اللفظي ، وإعادة بناء للألفاظ في صورة هي أقرب إلى القلب منها إلى العقل.

الفصل الثامن
فنون التوكيد

تأكيد المدح بما يشبه الذم

يحتاج المدح في العقلية العربية إلى توكيد ، لأن أغلبه مدح بما ليس موجودا ، وكذلك الحال بالنسبة للذم ، فالنفوس إذا رضيت ذهبت في الثناء إلى أبعد مدى ، فوصفت بصفات واقعية ، وغير واقعية وإذا غضبت ألحقت بالمغضوب عليه ما فيه وغير مافيه ، ومن هنا أحس السامعون بالزيادة التي تكون محل إنكار ، فاحتاج الأمر إلى التوكيد والتفنن فيه ، والخروج به عن الإلف ، وهذا هو جوهر الفن الأول من فنون التوكيد ، **ولتأكيد المدح صور متنوعة ، ومنها :**

١ – **استثناء المدح من الذم المنفي،** استثناء منقطعا ، بحيث ينفي عن الممدوح صفة الذم ، ثم يتبعها بأداة استثناء ثم يثبت صفة مدح بعدها . **ومن ذلك قول النابغة :**

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم   بهن فلول من قراع الكتائب

فنفى العيب أولا ، ثم استثنى، فأحسسنا بأن هناك عيبا لا نعلمه فذكر بعده مدحا ، فترسخ المدح على المدح ، وجاء الثناء بعد الثناء .

ومن ذلك أيضا قول الشاعر :

وما تشتكي جارتي غير أنني إذا غاب عنها بعلها لا أزورها

فنفى الشكوى منه يدل على حسن الجيرة ، والإحسان إليهم ، لكنه فاجأنا باستثناء مشعر بأن هناك شكوى واحدة ، فلما أفصح عنها كانت هي المدح الأكيد ، والأولى بالثناء عليه هنا ، وهي أنه لا يزور جارته عند غياب بعلها ، ليؤكد بذلك ما بدأ به ، وأنه حفيظ لحرمة الجيران ،**ومن ذلك أيضا قول الشاعر:**

ولا عيب فيكم غير أن ضيوفكم تعاب بنسيان الأحبة والوطن

وإذا كان هذا عيبا ، فكيف يكون المدح ؟ المهم أنك تلحظ في الأمثلة السابقة تكوّن الأسلوب من عناصر لا تتغير **وهي على الترتيب :**

(أداة نفي + صفة ذم + أداة استثناء + صفة مدح)

وراجع ذلك (أداة نفي – لا –) + (صفة ذم– عيب فيكم) + (أداة استثناء – غير) + (صفة مدح – ضيوفكم تعاب بنسيان الأحبة والوطن) وهذه التركيبة الكيمائية الكلامية ترسخ في الفؤاد ، وتتوغل في النفوس أكثر من المدح المباشر كأن يقال إنكم كرماء .

٢ – استثناء المدح من المدح : فيثبت المتكلم صفة مدح، ثم يأتي بأداة استثناء تشعرك بأن هناك صفة ذم قادمة ، ثم يثبت صفة مدح أخرى فيتأكد المدح الأول بالمدح الآخر ومن ذلك ما نسب إليه – ﷺ – ولم تثبت صحته :

" أنا أفصح العرب بيد أني من قريش " (١)

فقوله أنا أفصح العرب مدح لرسول الله ، وحين قال " بيد " استشعر السامع أن هناك شيئا مخالفا ، فقيل " أني من قريش " فاضيف إلى المدح مدح آخر ، **ومنه قول الشاعر** :

فتى كملت أخلاقه غير أنه جواد فما يُبقي من المال باقيا

راجع نفسك، وقف عند القراءة على لفظة: غير أنه ....ما الذي تتوقعه ؟ نعم تتوقع الذم ، لكن الشاعر بعدها قال " غير أنه كريم " فأضيف إلى المدح ما يزيده نصاعة ، ووضوحا وقوة ، ومن بديع هذا الصنف، **قول بديع الزمان** :

هو البدر ، إلا أنه البحر زاخرا سوى أنه الضرغام لكنه الوبل

---

١ - ذكره صاحب كتاب كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما شاع من أحاديث على ألسنة الناس ١/ ٢٠١ وقال : أورده أصحاب الغرائب ، ولا يعلم من أخرجه ولا إسناده .

فالشاعر كأنه يضع لبنة من المدح، ثم يوهمك بأن اللبنة الثانية مخالفة فإذا هي موافقة ، ثم يوهمك مرة ثالثة ، ورابعة ، وفي كل مرة لا يضع إلا مدحا .

٣ – **استثناء المدح استثناء مفرغا** : بمعنى أن المتكلم لا يذكر المستثنى منه بل يأتي بالمستثنى مدحا مباشرا ، **ومن ذلك قول الله تعالى** :

﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [سورة البروج:٨]

وقوله : ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا .... ﴾ [سورة الأعراف:١٢٦]

فالانتقام يحمل الذم، لأنه لا يكون إلا بجرم، وهذا مفهوم، ثم استثنى ليخبرنا بسبب الانتقام، فكان الإيمان بالله هو السبب، فتم المدح بما لا مزيد عليه لهذا الصنف من البشر الذين قدموا أرواحهم لله فداء دينهم.

تأكيد الذم بما يشبه المدح

حين تعكس الصورة الماضية، تجد تأكيد الذم بما يشبه المدح، وليس عليك إلا أن تحذف كلمات المدح وتحل محلها كلمات الذم لتكتمل الصورة **فتأكيد الذم بما يشبه المدح صورتان** :

الصورة الأولى:الاستثناء من صفة المدح المنفية صفة ذم كقولك: فلان

لا خير فيه إلّا أنه يسيء إلى من أحسن إليه، **فقولك** : (لا خير فيه إلا) أشعرت بأنك ستذكر صفة مدح بعدها فلما قلت : إنه يسئ إلى من أحسن إليه . أكدت الذم ، وثبت قواعده ، **ومن النماذج أيضا قولهم**: (لا فضلَ للقوم إلا أنهم لا يعرفون للجار حقه) وقد ذكروا لهذا اللون أمثلة من القرآن الكريم ، **ومنها قول الله تعالى**:

﴿**لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾**﴾ [سورة النبأ:٢٤-٢٥]

والمعنى هنا ليس على الذم ، ولكن البناء بناء واحد حيث استثنى من صفة منفية صفة أخرى تؤكدها ، **ومنه قوله تعالى**: ﴿**فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾**﴾ [سورة الحاقة:٣٦]

والصورة الثانية: أن تثبت للشيء صفة ذمّ وتعقّب بأداة استثناء تليه صفة ذمّ له أخريوم ، **ذلك قول الشاعر**:

هو الكلب إلا أن فيه ملالةً ... وسوء مراعاة ، وما ذاك في الكلب

ففي قوله:(هو الكلب) ذم وقدح ، والعرب تستعمل لفظ الكلب في المدح والذم أيضا بحسب السياق ، إلا أنه هنا أريد به الذم ، ثم استثنى أنه مع خسته تجد فيه ملالة وسوء رعاية ، وهذه ليست في الكلاب .

وتكمن بلاغة هذين الأسلوبين في أن كلًّا منهما يشبه الدعوى التي أُقِيمَ عليها الدليل والبرهان، فالمتكلم يستدل على نفي الذم أو المدح بما يؤكده ويزيد في ثبوته حتى صار ما بعد الصفات دليلا عليها ، ولا ريبٍ في أن إثبات الشيء بالدليل والبرهان آكدَ وأبلغَ من إثباته مجردًا عن الدليل.

وأمر آخر، وهو أن هذين الأسلوبين يحملان من المفاجأة والمباغتة للسامع الكثير ، مما يجعله أنشط حالا ، وأجدر بأن يلتفت إلى هذا الأمر غير المألوف ، فالمفاجآت في الكلام لون من ألوان التوكيد .

الفصل التاسع
فنون المهارة العقلية

الأسلوب الحكيم

كثيرًا ما يشارك المخاطب المتكلم في كلامه ، فيصَرْفُ كلامِ المتكلّم ساعة عن مراده ، أو يحول سؤاله عن غايته لينبهه على أنه الأولى :

و مما يُروي في ذلك قصّة "القَبَعْثَرَي" و"الحَجَّاج ، قال "القَبَعْثَرَى" وبيده عنقودُ العِنب المدَلَّى من غُصْنه: قَطَع الله عُنُقَهُ وسقاني من دَمه ، فأبْلَغ أحدُ الوشاة كلمتَهُ إلى الحجّاج، فاستدعاه وقال له: أنت الذي قُلْتَ: قطع الله عنُقه وسقاني دمه؟

قال: نعم، وقد قَصَدْتُ عُنْقودَ العنب الّذي كان بيدي.

قال له الحجّاج: لأَحْمِلَنَّك على الأدهم (أي: لأُقيّدنَّكَ بالحَدِيد).

قال القَبَعْثَرَى: مثْلُ الأمير يَحْمِل على الأدهم والأشهب (قاصداً : من الخيل).

قَال الحجّاج: قَصَدْتُ الحديد.

قال القَبَعْثَرَى: لأنْ يكون حديداً خيرٌ من أن يكون بليداً،وهكذا استطاع القبعثرى أن يحوّل دفة الكلام بمهارته العقلية وسرعة بديهته من قصد إلى قصد ، ومن سياق يجر عليه الوبال إلى سياق يحفظه

من النكال ، فالمهارة العقلية في الأسلوب الحكيم تجعلك تحور الكلام وتحمله على سياق آخر ومقصد آخر ، **ومن ذلك أيضا قول الشاعر:**

(وإخوان حسبتهم دروعا فكانوها ولكن للأعادي)

(وخلتهم سهاما صائبات فكانوها ولكن في فؤادي)

(وقالوا قد صفت منا قلوب لقد صدقوا ولكن من ودادي)

ومنه أيضا قول أحدهم:

طَلَبْتُ مِنْهُ دِرْهَماً يَوْماً فَأَهَرَ الْعَجَبْ

وَقَالَ: ذَا مِنْ فِضَّةٍ يُصْنَعُ لاَ مِنَ الذَّهِبْ

حيث تجاهل غَرَضَ طالِب الدّرهم ، وحمل كلامه على غَيْر مراده وادعى أنه فهم الكلام على غير المراد حين أجاب بأن الدرهم من الفضة وليس من الذهب ، مع أن السائل لم يسأل عن ذلك ، إنما سأله القرض .

وحكى القرآن الكريم دعاء المشركين على رسول الله وعلى المؤمنين وأنهم كانوا يسألون الله الفتح ، والنصر على محمد ،

فقيل لهم :

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ .. ﴾

[سورة الأنفال:١٩]

أي: إنْ تَدْعُو الله بأنْ يَنْصُرَكم على الرسول والذين آمَنُوا معه، فَقَدْ جَاءكم النَّصْرُ ، وهذا فيه من التهكم أيضا ما فيه ، حيث جاء قبول دُعائهم بالنّصر ولكن عليهم ، وليس لهم .

وقد يأتي الأسلوب الحكيم في إجابة السائل بغير ما يطلب في سؤاله **كما في قوله سبحانه :**

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾ [سورة البقرة:٢١٥]

فقد سألوا : ماذا ننفق ؟

فكان الجواب : أنفقوا للوالدين والأقربين ، أما ماذا تنفقون فلا يحتاج إلى سؤال .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى :

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ .... ۗ ﴾

[سورة البقرة:١٨٩]

فهم سألوا عن كيفية الحدوث ؟ فكانت الإجابة أن الأهلة تحدد مواقيت الشهور، الّتي يحتاجها الناس وبخاصة الحج ، أما كيف يحدث فلم يكن العلم قد توصل إلى الظواهر الكونية بعد ، حتى يعرفوا ماذا يحدث .. ولقد سئل رسول الله ﷺ عن الساعة ؟ ، فكانت إجابته : وما أعددت لها . وهكذا يوجه المخاطب المتكلم إلى الأولى ، وإلى ما يراه أنفع ، أو على الأقل يحوّل مقصوده إلى مقصود آخر يتناسب معه.

القول بالموجب

هذا فن عقلي من فنون الجدل ، يبرع فيه أهل المناظرات وَهُوَ تسليم الدليل مع بقاء النزاع، أو التسليم الجدلي ، بمعنى أنك تسلم للخصم بالدليل الذي يستدل به ، لكن يبقى محل النزاع قائما ؛ لأنك لا تبني على دليله ما يراه هو ، كما في قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ۝١٠ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١١﴾ [سورة إبراهيم:١١]

فرسلهم سلموا بأنهم بشر مثلهم ، فهذا الدليل حق ، لكن لا ينبني عليه ما يرونه هم ، فالكفار يبنون على أن البشر لا يمكن أن يكونوا رسلا وهذا خطأ ، فالبشرية لا تعارض الرسالة ، لأن الرسالة اصطفاء من الله تعالى لواحد من البشر ، فكان الرد عليهم مبتدءا من كلامهم بالتسليم لهم بجزء من المعنى .

والقول بالموجب نوعان :

الأول: حمل كلام المتكلم على خلاف مراده ،كما سبق في الآية الكريمة ومنه **أيضا قول الشاعر :**

رأتنى وقد نال منّى النّحول وفاضت دموعى على الخدّ فيضا

فقالت: بعينىّ هذا السّقام فقلت: صدقت، وبالخصر أيضا

وبيت الحلي:

قالوا سلوت لبعد الإلف قلت لهم سلوت عن صحتي والبرء من سقمي

فقوله: سلوت عن صحتي هو حمل لفظ وقع من كلام الغير على خلاف مراده.

ومن أحسنه قوله تعالى:

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ .... ﴾

[سورة التوبة:٦١]

يقول الزمخشري : (الأذن: الرجل الذي يصدق كل ما يسمع ويقبل قول كل أحد، سمى بالجارحة التي هي آلة السماع، كأن جملته أذن سامعة، ونظيره قولهم للربيئة . عين. وإيذاؤهم له: هو قولهم فيه هو أذن. وأذن خير، كقولك: رجل صدق، تريد الجودة والصلاح. كأنه قيل: نعم هو أذن ولكن نعم الأذن. ويجوز أن يريد: هو أذن في الخير والحق وفيما يجب سماعه وقبوله، وليس بأذن في غير ذلك ، ثم فسر كونه أذن خير بأنه يصدق بالله لما قام عنده من الأدلة ويقبل من المؤمنين الخلص من المهاجرين والأنصار وهو رحمة لمن آمن منكم، أى أظهر الإيمان أيها المنافقون حيث يسمع منكم ويقبل إيمانكم الظاهر، ولا يكشف أسراركم ولا يفضحكم، ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين، مراعاة لما رأى الله من المصلحة في الإبقاء عليكم، فهو أذن كما قلتم، إلا أنه أذن خير لكم لا أذن سوء فسلم لهم قولهم فيه، لا أنه فسر بما هو مدح له وثناء عليه، وإن كانوا قصدوا به المذمة والتقصير بفطنته وشهامته، وأنه من أهل سلامة القلوب والغرة.

وقيل: إن جماعة منهم ذموه صلوات الله عليه وسلامه وبلغه ذلك فاشتغلت قلوبهم فقال بعضهم: لا عليكم، فإنما هو أذن سامعة قد سمع كلام المبلغ فأذن، ونحن نأتيه ونعتذر إليه فيسمع عذرنا أيضا فيرضى **فقيل**: هو أذن خير لكم. وقرئ: أذن خير لكم، على أن أذن خبر مبتدأ محذوف، وخير كذلك، أى هو أذن هو خير لكم يعنى إن كان كما تقولون

فهو خير لكم، لأنه يقبل معاذيركم ولا يكافئكم على سوء دخلتكم)

وقال ابن المنير معقبًا : (في الأول إطماع لهم بالموافقة، ثم كر على طمعهم بالحسم وأعقبهم في تنقصه باليأس منه، ويضاهي هذا من مستعملات الفقهاء: القول بالموجب، لأن في أوله إطماعا للخصم بالتسليم، ثم بتا الطمع على قرب، ولا شيء أقطع من الإطماع ثم اليأس يتلوه ويعقبه) (١).

والنوع الآخر : نقل الصفة من مدعيها ، بمعنى أن يدعي الخصم صفة لنفسه ، فأسلم بالصفة لكن لي أنا وليست له ، **كما في قوله تعالى:**

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨ ﴾ [سورة المنافقون:٨] حيث نقلت صفة العزة من المنافقين إلى المؤمنين دون تعرض للخروج .

والفرق بين القول بالموجب والأسلوب الحكيم أن القول بالموجب غايته رد كلام المتكلم وعكس معناه، والأسلوب الحكيم هو تلقي المخاطب بغير ما يترقب، بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيها على أنه الأولى بالقصد.

إذن ملخص القول بالموجب : أنه اعتراف من المتكلم بجزء مما يقوله المخاطب ، ثم حمل هذا الاعتراف على خلاف مايريد ، ولاحظ مثلا قول الشاعر، **وتثبت مما يقوله ليرد به على حبيبته :**

---

١ ـ الكشاف للزمخشري وعلية حاشية ابن المنير ٢/ ٢٨٤.

قالت كحلت الجفون بالوسن	قلت ارتقابا لطيفك الحسن
قالت تسليت بعد فرقتنا	فقلت عن مسكني وعن سكني
قالت تشاغلت عن محبتنا	قلت بفرط البكاء والحزن
قالت تخليت قلت عن جلدي	قالت تغيرت قلت في بدني
قالت تخصصت دون صحبتنا	فقلت بالغبن منك والغبن

فكل صفة تثبتها هي لا ينكرها الشاعر ، ولكن يحول الصفة مما أسندتها لها إلى مسند إليه آخر .

المذهب الكلامي

وهذا المصطلح مكون من كلمتين ، الأولى (المذهب) وتعني الطريقة والأخرى (الكلامي) وتعني أهل الكلام أو علم الكلام ، وعلم الكلام هو علم العقيدة ، أو علم إثبات العقائد بالبراهين العقلية القاطعة أو العلم الذي يضع المقدمات فيلزم منها حتما النتائج ، **فحين تنظر مثلا إلى قول الله تعالى :**

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ..... ﴾ [سورة الأنبياء:٢٢]

وتفكرت فيها تجد أن الآية تثبت وحدانية الله تعالى ، وأنه لا يوجد في الكون إلا إله واحد بطريق العقل ، فلو كان آلهة غير الله تعالى لتنازعوا ولو تنازعوا واختلفوا لأمر كل منهم الخلق بأمر يخالف أمر الآخر ، وعندها

تفسـد السـماوات والأرض ، ولكـن السـماوات والأرض مازالـت موجودة وقائمة إذن لا يوجد تنازع ،لأنه لا يوجد إلا إلـه واحـد ، وهكـذا تجد الآية تخاطب عقلك ، وتثبت لـك وحدانيـة الله تعـالى بطريـق العقـل ، وهذا هو المذهب الكلامي ، **وعليه فتعريف المذهب الكلامي هو :**

أن يورد المتكلم حجة لما يدعيه على طريق أهل الكلام

فهناك حجة ، أو دليل ، وهذا الـدليل طريقـه العقـل ، ولـيس النقـل فأنت لا تستدل عـلى أمـر فتقـول قـال الله تعـالى ، أو قـال رسـول الله ﷺ أو قال العالم الفلاني كذا ، لأن هذه كلها أدلـة نقليـة ، ونحـن هنـا في بـاب الأدلة العقلية ، أي ما يقره العقل ، ويثبته الفكر ، **وراجع مثلا قوله تعالى :**

﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ....ۚ**﴾ [سورة الروم:٢٧]

تجد أن الآية تثبت البعث ، في الوقـت الـذي ينكـره الكفـار ، والآيـة تثبت البعث بطريق العقل ، فتقول : أيهما أثقل ؟ أن تبدأ في إيجـاد الشيـء أم أن تعيده بعد إيجاده ؟ العقـل يقـول إن الإيجـاد الأول هـو الأصـعب ، وأن الإعادة أسهل من البـدء ، وعليـه فـإذا كـان الله تعـالى أوجـدكم مـن عـدم أيصعب عليه إعادتكم ؟

الإجابـة لا ؛ لأن الإعـادة أهـون وأيسرـ ، فقيـل إن البعـث إعـادة وهو أهون على الله تعالى ، مع أن كل شيء على الله هين ، ولكن الآيـة تريـد أن تبين لهم الأمر على طريقة فهم الإنسان فجيء له بما يفهم .

ومن الشواهد أيضا قول الله تعالى:

﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [سورة النساء: ١٠٤]

والآية تشد من أزر المؤمنين ، وتذكرهم بأنهم أجدر بالصبر والجلد لأن ما يصيبهم من أذى يصيب أعداءهم أيضا ، وهم على الباطل ولا عهد لهم من الله بالنصر ، وهذا كله باعث لكم على الصبر والمصابرة

ومن أمثلة ذلك في الشعر قول النابغة يعتذر إلى النعمان:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة	**وليس وراء الله للمرء مطلب**
لئن كنت قد بُلِّغت عني خيانة	**لمبلغك الواشي أغش وأكذب**
ولكنني كنت امرأ لي جانب	**من الأرض فيه مستراد ومذهب**
ملوك وإخوان إذا ما مدحتهم	**أُحَكَّم في أموالهم وأُقَرَّب**
كفعلك في قوم أراك اصطفيتهم	**فلم ترهم في مدحهم لك أذنبوا**

فالمعنى أنني فعلت مثلما فعلت أنت ، فأنت أحسنت إلى قوم فمدحوك ، وأنا أحسن إليّ قومٌ فمدحتهم، فكيف تعاتبني وتلومني على شيء فعلته أنت فكما أن مدح أولئك لك لا يعد ذنبا، فكذلك مدحي لمن أحسن إليّ لا يعد ذنبا ، وعليه فالنابغة جاء بالدليل العقلي على صحة موقفه .

فالمذهب الكلامي كما قالوا هو : اصطناع مذهب المتكلمين العقلي في الجدل والاستدلال وإيراد الحجج والتماس العلل ، وذلك بأن يأتي البليغ على صحة دعواه بحجة قاطعة أيا كان نوعها .

الاستخدام

من الفنون البديعية التي تلاصق فن التورية : فن الاستخدام ، ولكنه لا يدخل في دائرة التعريض ، أو المعاريض و ولكنه فن يرتبط بالمهارة العقلية ، فهو في مجمله فن مهاري تراه يذكر لك اللفظ ويخرج منه رافدين من المعاني ، فهو استخدام للكلمة الواحدة من جهتين ، **ولذلك عرفوه فقالوا** : هو ذكر لفظ مشترك بين معنيين، يراد به أحدهما ثم يعاد عليه ضمير أو إشارة، بمعناه الآخر، أو يعاد عليه ضميران يراد بثانيهما غير ما يراد بأولهما **وقالوا أيضا** :

أن يأتي المتكلم بلفظة لها محملان، ثم يأتي بلفظتين تتوسط تلك اللفظة بينهما وتستخدم كل لفظة منهما أحد محملي اللفظة المتوسطة ، وتدبر معي كلمة (الشهر) **في قول الله تعالى** :

﴿....فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ ....﴾ [سورة البقرة:١٨٥]

حيث وضعت بين كلمة (شهد) مما جعل المعني في كلمة الشهر

ينصرف إلى الهلال ، والمعنى فمن شهد منكم الهلال فليصم ، وفي الجهة الأخرى تجد كلمة (فليصمه) وبها ضمير عائد على الشهر ، مما يجعل كلمة الشهر تنصرف إلى الأيام ، فالكلمة توسطت بين أمرين وأضفت كل جهة عليها من سربالها .

ولكي أوضح لك ذلك في كلام الشعراء ، انظر معي إلى كلمة (السماء) في قول معاوية بن مالك.

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وان كانوا غضابا

حيث وقعت هذه اللفظة بين كلمتي (نزل) و (رعيناه) فكلمة نزل تجذب لفظ السماء إلى جهة المطر ، **والمعنى** : إذا نزل المطر بأرض قوم ولكن لفظة (رعيناه) تشد الكلمة إلى جهة أخرى ، وهي (النبات) فالضمير في رعيناه العائد على السماء تجذب لفظ السماء إلى معنى العشب والنبات ، فالكلمة الواحدة ترفد الجهتين بما يناسب كل ، ومثل ذلك تجده **في قول البحتري**:-

فسقى الغضا والساكنيه وإن همو شبُّوهُ بين جوانحي وضلوعي

والغضا: شجر بالبادية، وضمير ساكنيه أولاً راجع إلى الغضا باعتبار المكان الذي يزرع فيه ، لكنك حين تنظر إلى كلمة (شبوه) أي جعلوا ناره تتوقد تجد أن كلمة الغضا تحولت من جهة النبات الأخضر إلى جهة الجمر المشتعل ، والكلمة لا تبخل على المعنيين .

فالاستخدام يحول اللفظ الواحد إلى شجرة ذات فرعين ، فرع يعطيك من الكلمة معنى هو كالأصل فيها ،ثـم يعـاد عـلى اللفظـة ضـمير يصـبغها بمعنى آخر ، وتتبع معي كلمـة (العقيـق) في قـول ابـن معتـوق الموسـوي المتوفى سنة١٠٢٥هـ:

تـــالله مـــا ذكـــر العقيـــق وأهلـــه ... إلا وأجـــراه الغـــرام بمحجـــري

فالكلمة في أول الأمر ، وفي صحبة الذكر والأهل ، لا تفيد إلا المكـان أو وادي العقيق ببلاد الحجاز ، فقوله (ذُكر العقيق وأهله) تصرف ذهنـك مباشرة إلى هذا المكان ، وحين تنفك من هذا المعنى ثم تضـع كلمـة العقيـق في عبارة أخرى وهي : (أجـرى الغـرام العقيـق بمحجـري) تجـد الكلمـة تسرع إلى معنى الدم الأحمر الذي يشبه لون العقيق .

ومن ذلك أيضا كلمة (النجم) في قول الشاعر :

رحلـــتم بالغـــداة فبـــت شـــوقا ... أســـائل عـــنكم في كـــل نـــاد

أراعـي الـنجم في سـيرى إلـيكم ... ويرعـــاه مـــن البيـــدا جـــوادي

حيث أراد بها أولا النجم الذي في السماء ، وهذا هو الذي يهتـدي بـه الشاعر في سيره إليهم ، لكن هذا النجم حين نظـر إليـه مـن خـلال جملـة : (ويرعاه من البيدا جوادي) تـرك عـالم السـماء وانفتـل بـين يـدي الجـواد لينقلب إلى العشب الذي ينجم من الأرض وترعاه الحيوانات .

فالكلمة في سياقها الأول كانت في السماء ، وفي سياقها الآخر طعاما للدواب . وهذه الحركة التي يحملها اللفظ ، تثير القارئ ، وتجعله يرى في اللفظ وكأنه حجر سيدنا موسى الذي تتفجر منه عيون المعاني ، فقط يحتاج اللفظ إلى أن يطرق عليه بمطارق السياق ، كما طرق سيدنا موسى الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا .

ولا تظن أن اللفظ المستعمل هنا من قبيل التورية ، فبين التورية والاستخدام فرق واضح ، وهو أن التورية تستفيد من معنى واحد في اللفظ ، وتهمل الآخر ، لكن الاستخدام لا يهمل شيء ، فالمعنيان في اللفظ مرادان ، وفاعلان ، وحاضران في الكلام .

وانظر ثانية إلى قول الله تعالى :

﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة الرعد:٣٩]

وراجع كلمة [كتاب] لأنك ستراها وهي في صحبة الأجل ، وحين تقول : (لكل أجل كتاب) ستراها بمعنى الأمد والموعد المحدد ، فلكل أجل موعد ينتهي عنده ، وأمد لا يتعداه ، فالكتاب هنا بمعنى الميعاد الذي ينتهي عنده الأجل .

لكنك حين تنظر بعد ذلك ستجد الآية تقول :

(يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) فأعادتني كلمة (يمحو) إلى معنى آخر في الكتاب ، وهو المعنى الأصلي للكلمة

وهو المكتوب ، الذي قد يمحى وقد يثبت في شيء آخر ، فالكتاب هنا بمعنى المكتوب .

إن الاستخدام حتى لا تنسى هو : أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر مرادا به أحد معانيه ثم يؤتى بضميره مرادا به المعنى الآخر ، أو هو أن يؤتى بلفظ مشترك ثم بلفظين يفهم من أحدهما أحد المعنيين ومن الآخر المعنى الآخر .

الهزل الذي يراد به الجد

من فنون المهارة العقلية فن مجيء الكلام في صورة الهزل ، والمراد به الجد ، ونعلم من ديننا أن الجد جد ، وأن الهزل هزل ، ولا ينبغي الهزل في مقام الجد ، كما لا يستحب الجد في مقام الهزل ، وتعلمنا من ديننا أن هناك مواطن يصبح الهزل فيهن جِدًّا ، كما جاء في الحديث الذي رواه أبو هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ :

" ثَلَاثٌ جِدُّهُنَّ جِدٌّ، وَهَزْلُهُنَّ جِدٌّ: النِّكَاحُ، وَالطَّلَاقُ، وَالرَّجْعَةُ "

لكن أهل اللسان كانوا ينطقون بالكلام هزلا ويريدون به الجد لكنهم عدلوا عن الجد الصريح إلى الجد المغلف في ثوب الهزل ، ففي هذا العنوان لا بد أن تتوقف عند مفرداته ، لأن هناك كلامًا ، وهناك إرادة ، وما يظهره الكلام ليس هو المراد ، فالمراد شيء آخر يحتاج إلى تفحص ، ويحتاج

إلى تدبر ، ويحتاج إلى نظر فيما هو مذكور قبل الكلام ، وما هو مـذكور بعد الكلام ، تدبر لمراد المتكلم من خلال أحواله ، لأنه يقصد المـدح بكـلام فيه هزل ، أو يقصد الذم بكلام فيه هزل ، فالهزل هنا غطـاء يخفـي مقصـود المـتكلم ، ولقـد كـان أصـحاب النـوادر والفكاهـات يعمـدون إلى هـذه الأساليب ، ومن شواهد هذا اللون البديعي ما أنشده ابن المعتـز، **مـن قـول أبي العتاهية:**

أرقيـك أرقيـك بسـم الله أرقيكـا   من بخل نفسك عـل الله يشـفيكا

مـا سـلم كفـك إلا مـن يناولهـا   ولا عـــدوك إلى مـــن يرجيكـــا

فالشاعر هنا يضاحك المخاطب ، ويمازحه في صـورة مـن يرقيـه مـن المرض الذي ألم به ، لكن : تدري ما المرض ؟ إنه البخل ، الذي جعـل كفـه لا يسالم إلا الكف الذي يعطيه ، وجعل كل من يطلب منه عطـاءً عـدوا لـه وهذا كله أخرج هذا المخرج ذمـا وتقبيحـا لهـذا المخاطـب الـذي لا يسـالم إلا من يعطيه ، ولا يعادي لا من يستعطيه .

ومن طرائف الهزل الذي يراد به الجد ما ذكره أحد الكتاب أنه حصل له بالديار المصرية جَرَبٌ أشرف منه على التلف، فوصف له الحـيكم بطيخًـا وهو عزيـز الوجـود في تلـك الأيـام، فبلغـه أنـه أُهـدى إلى الأمـير بطيخًـا **فكتبت إليه ليطلب منه بعضا من هذا البطيخ فقال :**

مـولاي عـاقبني الزمـان بجربـة وقد انقطعـت بجسـمي المسـلوخ

وعميت من حزني عـلى مـا تـم لي لكـن شـممت روائـح البطـيخ

لاحظ هذا ، وراجع البيتـين ، وتـدبر كيـف بـدأ بكلمـة (مـولاي) والمولى لا يرد طلب السائل ، ثم انظر كيف أسند الابتلاء إلى الزمـان وسـماه عقوبة ،وكيف استدر عاطفة الأمير بقوله (عميـت مـن حـزني) فـتراه مـع ابتلائه يرسم على شفتك ابتسامة من تلطفه في طلب البطيخ ، والتعبـير عـن هذا الطلب بقوله : (شـممت روائـح البطـيخ) ومثـل هـذا اللطـف تـراه في بيت الشيخ صفي الدين الحلي ، **يقول هازئا ممن يسبه :**

أشبعت نفسك من ذمي فهاضك ما تلقى ، وأكثرُ موت الناس بالتخم

فقوله: (وأكثر موت الناس بالتخم) هزل يراد به الجد لأنه يكني عـن أنه بالغ في ذمه حتى مات من كثـرة الـذم ، وكـأن الـذم الـذي كـان يفعلـه الرجل طعام كان يأكلة ، ومن كثرة ما أكل مات بالتخمة .

وأنشد البحتري المتوكل قصيدته:

مـــــن أيّ ثغـــــرٍ تبتســـــم وبـــــأيّ طـــــرفٍ تحـــــتكم

حســـــن يضـــــنّ بحســـــنه والحســـــن أشـــــبه بـــــالكرم

أفديـــــه مـــــن ظلكـــــم الوشـــــا ة وإن أســـــاء وإن ظلـــــم

وهي حلوة الروي، مليحة العروض، حسنة الطبع، فكـان البحـتري فيه كبر وإعجاب.

فإذا أنشد، قال: ما لكم لا تعجبون، أما حسن ما تسمعون؟!

فقام إليه أبو العنبس الصيمري وقد قال ذلك فقال:

عـــن أيّ ســـلح تلـــتقم وبـــأيّ كـــفّ تلـــتطم

ذقـــن الوليـــد البحـــتريّ أبي عبـــادة في الـــرّحم

أدخلت رأسك في الرحم

فولى البحتري مغضباً، فقال أبو العنبس:

وعلمت أنك تنهزم

فضحك المتوكل حتى فحص برجليه وأمر بالجائزة لأبي العنبس.

وهنا يثور سؤال : هل يحتاج الأديب إلى هذا الهزل ؟

والجـواب:أن حاجـة الأديـب إلى الهـزل تشـبه حاجتـه إلى الجـد لأن هناك من المعاني ما لا تستطيع البوح بـه إلى في ثـوب الهـزل ، وأحـوال الناس تلجئك في كثير من الأوقات إلى الهزل ولقد قالوا إن الإمام محمد بـن إدريس الشافعي رضي الله عنه صحب قوماً في سفره فكان يجاريهم على أخلاقهـم ويخالطهم في أحوالهم، وهم لا يعرفونه، فلما دخـل مصرـ حضرـوا الجـامع فوجدوه يفتي في حلال الله وحرامه، ويقضي في شرائعه وأحكامه، والنـاس مطرقون لإجلاله، فرآهم فاستدعاهم، **فلما انصرفوا سئل عنهم فأنشد:**

وأنزلنـي طـول النّـوى دار غربـةٍ إا شئت لاقيـت امـرأً لا أشـاكله

أُحامقـــه حتـــى يقـــال ســـجيّة ولو كـان ذا عقـل لكنـت أعاقلـه

وقد يخرج الفطن اللبيب، وينتج الطبن الأديب، من الهزل السخيف غرائب الجد الشريف، فالنار قد تلتظى من ناضر السلم.

وكان ابن الرومي أقرع الرأس، وقد أخبر بِعِلّة ذلك في قوله:

تعمّمت إحصاناً لرأسي برهةً ... من القرّ يوماً والحرور إذا سفع

فلما دهى طول التعمّم لّمتي ... فأزرى بها بعد الأصالة والفرع

عزمت على لبس العمامة حيلةً ... لتستر ما جرّت عليّ من الصّلع

فيا لك من جانٍ عليّ جنايةً ... جعلت إليه من جنايته الفزع

وأعجب شيء كان دائي جعلته ... دوائي على عمدٍ وأعجب بأن نفع

ومنه أيضا قول القائل :

إذا ما تميمي أتاك مفاخراً ... فقل عد عن ذا كيف أكلك للضب

ومعنى عد عن ذا : أي : اصرف بصرك عنه ، ولا تلتفت إليه فليس هذا هو المهم الآن ، لكن المهم هو كذا وكذا ، ومعلوم أن بني تميم كانوا يشتهرون بأكل الضب ، وأكثر العرب كانوا يعافونه ، لذلك أراد الشاعر أن يذكرهم بهذه النقيصة وهي أكل الضب ، فيلفت نظر المتفاخر إلى السوءة التي لا تمحى ، وهي أكلهم للضب.

تجاهل العارف

من فنون المهارة العقلية فن تجاهل العارف ، وهو فن يمزج الشك باليقين ، أو فن يصور الشيء الصحيح في صورة المشكوك فيه ، ليستثير بذلك ملكات الذهن فيتأكد المعنى ، فهو صورة بديعية يزعم صاحبها أنه لا يدري ، وهو يدري ، ويقول إنه لا يرى وهو يرى ، ويدعي أنه التبست عليه الأمور ، وهي عنده واضحة جلية ، وكونه يدعي أو يزعم كل هذا يريد من خلاله تثبيت المراد ، وإثارة ذهن المتلقي ، وتحريك الفكر ليعيد النظر في الكلام مرة بعد مرة ، ونحن في حياتنا نستعمل مثل هذا الأسلوب حين نقول لمن نحب ، هل طلع القمر من فتحة الباب ؟ إذا دخل علينا من نحب ، ونقول : لماذا أظلمت الدنيا فجأة ؟ إذا رأينا من نكره ، ونقول هل نأكل طعاما أم حلوى ؟ إذا كان الطعام مستطابا ، وقس على ذلك ما يتداوله الناس في حياتهم تجد أن هذا النوع من الفن مغروس في النفوس المبينة التي تبالغ في توكيد المعاني عن طريق التجاهل ، وراجع معي قول الشاعر ، **وهو يخاطب الظباء التي تمر به ويقول :**

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا ليلاى منكنّ أم ليلى من البشر

إنه يسأل الظباء :أليلى من جنس الظباء أم ليلى من البشر ، وكأنه لا يعلم ، لقد التبست عليه الأمور ، يقول هذا لأنه يرى في أوصاف ليلى

أوصاف الظباء من دلالٍ وجمالٍ وبهاءٍ وحَوَر ، يقول هذا ليحرك فيك محركات اللطافة ، ويستفز فيك بواعث الحسن والجمال ، ويجعلك تنظر إلى الظباء وبينهن ليلى تمشي على استحياء ، إن الشاعر لا يريد منك أن تجيبه ولا يطلب من ظبيات القاع أن ترد عليه ، لأنه ما أراد إلا عقد أواصر القربى بين ليلى وظبيات القاع ، في صورة المستفهم .

وانظر إلى قول شاعر آخر وهو يرى عالما غير العالم، وكائنات غير الكائنات ، ويحاول أن يعرف هل ما يراه هو ما يراه الناس؟ أم أن ما يراه هو خاص به وحده ، **يقول** :

أأنت ديار الحيّ أيتها الرّبا الـ	**أنيقة أم دار المهى والنّعائم**
وسرب ظباء الوحش هذا الّذى	**أرى بربعك أم سرب الظّباء النواعم**
وأدمعنا اللّاتى عفاك انسجامها	**وأبلاك أم صوب الغمام السّواجم**
وأيامنا فيك اللّواتى تصرّمت	**مع الوصل أم أضغاث أحلام نائم**

وراجع نفسك واسألها : لماذا يرى الشاعر هذه الديار في صورة غير التي يعتادها ؟ ثم ما الصورة الجديدة التي يراها بها ؟ ولماذا كانت أحسن من الصورة القديمة ؟ فالشاعر لا يرى الحسن سوءا ، بل يرى الحسن أحسن ، ولا ينظر إلى دياره التي كانت جميلة فيراها بالية ،بل يراها أجمل وأجمل ، وكل شيء بعد ذلك ازداد حسنا وبهاءا ، ويختم الشاعر ما يراه بأنه أضغاث أحلام نائم .

وقال ذو الرمة :

أيا ظبية الوعساء بين جلاجل ... وبين النّقا أأنت أم أمّ سالم

وقوله : (أأنت) يعني : أأنت ظبية الوعساء ؟ لكنه حذف ما ذكره من قبل ، وأراد أن يقول إن أم سالم لا تفرق عن ظبية الوعساء شيئا حتى إنني إذا رأيت واحدة ظننتها الأخرى، أو احترت بينهما ، كما يحتار الإنسان بين توءمين ، وهذا لطف في المعنى، ورقة في التعبير، وإدخال المعاني إلى النفوس بطريقة هي ألطف من اللطافة .

ومن بدائع ابن المعتز قوله في هذا التجاهل :

كم ليلة عانقت فيها بدرها ... حتّى الصباح موسّدا كفّيه

وسكرت لا أدرى أمن خمر الهوى ... أم كأسه أم فيه أم عينيه

وعليك أن تستحضر هذا العناق بين الشاعر ومحبوبه ، ثم هذه الصورة الخاصة المصاحبة ، وهي وضع رأسه على كفيه مع العناق ، ثم ما ترتب على ذلك من سكر وهو لا يدري من أي شيء سَكَر ؟ وأجب أنت إن كنت تعرف من أي شيء سكر ؟

إن الشاعر وهو يحتار في تحديد من أي شيء سكر لا يريد إلا إيصال رسالة أن نهل من كل ذلك ، نهل من خمر الهوى ، ومن ريقه ، ومن فيه ومن عينية ، وكل ذلك يسكر ، لكنه لا يعلم ما السبب المباشر للسكر وليتنا نعلم .

وأكثر من كل ما سبق في اللطف والجمال ما جاء عـن أحـد الأعـراب أنه قال :

أيـا شـبه لـيلى مـا للـيلى مريضـة وأنـــت صـــحيح إنّ ذا لمحـــال

أقـول لظبـى مـرّ بـى وهـو راتـع أأنـت أخـو لـيلى؟ فقـال: يقـال!

فالظبي شبيه ليلى، والظبي أخو ليلى في عرف الأعرابي، ومادام الأمـر كذلك فكيف تمرض هي ويصح هو ؟ !! وهذا استدعى أن يسأل الأعـرابي الظبي سؤالا محددا ، وهو : أأنت أخـو لـيلى ؟ وكانـت الإجابـة أن النـاس تقول هذا ، وهذا تركيب يكـاد يسـلب العقـل ، لأن الشـاعر هنـا ينسـيني الفوارق بين جنس البشر وجنس الظباء ، الشاعر يدخلني في عالم لا فـروق فيه بين النخلوقا ، ولن تجد جنسا يشبه جنسا آخر كـما يشـبه جـنس الظبـاء جنس الحبيبات ، إن هذا التشابه تصل إلى حد الأخوة ، بل تزيد عـلى ذلـك فإذا مرض واحد من أفراد الجنس مـرض أخـوه ، لـذلك تعجـب الشـاعر من سلامة الظبية مع مرض ليلى ، ومن لهوه في المراتع مع أنها تلازم الفراش من المرض، انظر إن الشاعر لا يبرهن على الشبه ، ولا يجتهد في عقـد أواصر القربى كما يفعل عالم التشبيه ،بل إنه يبني كلامه على أن الشـبه أمـر مفـروغ منه ، بل ويزيد على ذلك أن من يمرض منها يستدعي مرض الآخر ، وهذا من أعجب العجب .

وقد تطرق بعض أهل العلم إلى أن هذا اللون من البديع ورد في القرآن الكريم كما في قوله تعالى :

﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾ [سورة الأنبياء:٦٢]

وقوله :

﴿ ....ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ .... ﴾ [سورة المائدة:١١٦]

ولا أميل إلى عد هذه المواضع من هذا اللون البديعي، لأن هذا اللون البديعي قائم على تصور غير حقيقي لما نراه، وأرى أن ننزه القرآن الكريم عن ذلك .

وقد يأتي هذا اللون في الهجاء ، والذي عليه أهل البيان أن أشد الهجاء أعفه وأصدقه، فكل هجاء عف لفظه وصدق معناه ،كان أبلغ وأكد من غيره ، وبخاصة ما قربت معانيه، وسهل حفظه ، لأنك كلما تلطفت في الكلام ، وصدقت في الوصف كان المعنى أسرع إلى القلب والعرب تكره الفحش في القول ، وخروج البيان إلى عالم السب والقذف

ومن أقوى ما قيل في الهجاء قول زهير:

وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء

فالشاعر يدْرِي أَنهم رجال ، وَلكنه يتعامى عَن هَذَا لِأَن فِيهِ ضربا من الهزء بهم ، وكيف لا يكون ذلك وهو يزعم أنه لا يفرق بين نسائهم ورجالهم ، وهذا في حقيقته تجريد من كل صفات الرجال.